A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

UNIVERSITY
LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

الطبيب الاثر المرحوم جرجي جبرائيل البيطار

209.2
B624hA
c.1

حياة

جرجي جبرائيل بيطار

خادم الفقراء اخوة يسوع المسيح

١٨٤٠ - ١٩٣٥

بقلم

الخوري مكسيموس شتوي
ب.
سكرتير غبطة بطريرك الروم الكاثوليك

الحقوق محفوظة

مطبعة دير المخلص
صيدا لبنان

١٩٣٧

نشرت تباعاً في « الرسالة المخلصية »

تقدمة الكتاب

الى غبطة مولاي الحبر الكبير

كيريوس كيريوس كيرلس التاسع

بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق

الكلي الطوبى والجزيل القداسة

رجل البرِّ والاحسان وابي اليتامى والفقراء

أتشرف بان ارفع ترجمة

« خادم الفقراء اخوة يسوع المسيح »

دمشق ٢٨ ايلول سنة ١٩٣٧ الخوري

مكسيموس شوبي المخلصي

إننا بعد ان تصفحنا حياة المثلث الرحمة جرجي جبرائيل بيطار « خادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح » بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري مكسيموس شتوي ب م قد وجدناها جزيلة النفع وجديرة بالنشر لتعم فائدتها، وعليه فاننا لمجد الله الاعظم ولخير الانفس نأذن بنشر الحياة المذكورة ونثني على همة الناشر وغيرته راجين له الاجر والثواب ولمؤلفه كل رواج لكي يأتي بالثار الروحية الغزيرة .

† نقولاوس

مطران صيدا ودير القمر

وما اليهما

صيدا في ١٦ كانون الاول سنة ١٩٣٧

نأذن بطبعه

الارشمندريت

نقولا برخش

اب عام ب م

لحضرة الابن العزيز الفاضل الخوري مكسيموس شتوي المخلصي كاتم اسرارنا المحترم
سلام ودعاء وبركة رسولية

رفعتم الينا « ترجمة المرحوم جرجي جبرائيل بيطار خادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح » فاذا بها هدية نفيسة تقبلناها بجزيل الشكر وعظيم التقدير . ولقد تصفحناها بكل تروٍ فالفيناها على ما نعلم صورة حية صادقة للرجل البار الذي اختاره الله في القرنين التاسع عشر والعشرين ليعزز به ولا سيما في بلادنا الفضيلة والحياة المسيحية الحقة ويجعله سراجاً على منارة التقوى والصلاح .

ان جرجي جبرائيل بيطار هو رجل عاش في العالم واسس اسرته على مبادي الدين والكمال وتسامى بممارسة الفضائل المسيحية الى شوط بعيد شأن اكابر اصفيآء الله . ولم تقتصر اعماله على مآتي الفضيلة بل انه امتاز في فنونه الدنيوية فكان بذلك رجل الله في امور الدين ورجل الدنيا في الجد والاجتهاد واتقان العمل . فكل من يطالع كتابكم هذا الموضوع بعبارة جذابة وغيرة متقدة يجد فيه اكبر دافع للرجوع اليه تعالى وللتسابق في ميداني التقوى والعمل فكأنكم اديتم بترجمة هذا البار خدمة شريفة ورسالة مقدسة لعموم المسيحيين وللراغبين في سلوك السبيل القويم من اية طبقة او نحلة كانوا في الهيئة الاجتماعية . فنثني على اجتهادكم وغيرتكم في ابراز هذا الكتاب المفيد الذي نباركه من صميم الفؤاد ونأذن بنشره لطيب الاحدوثة وحسن القدوة ونحرض الجميع على مطالعته اكتساباً لفوائده الجمة ومتابعة لاعمال صاحب الترجمة مكررين على بنوتكم العزيزة خالص ادعيتنا وتقديرنا طالبين لكم المكافأة من لدن الله والبركة تشملكم ايها الابن العزيز

كيرلس التاسع
بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم
وسائر المشرق

مقدمة لصاحب الترجمة [1]

«باسم الاب والابن والروح القدس اله واحد آمين . إنَّ سيادة المطران
« نقولاوس قاضي ابن عمي قال لي في شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٠ : « اني
« اطلب منك يا جرجي ان تفتكر في كل حياتك لتعرف كيف كنت عائشاً .
« لان الشغل والخدمة ، التي تتعب فيها لاجل الفقرآء وغير الفقرآء لا اظن احداً
« غيرك يعملها . ولا تظن ان الكتابة عن حياتك هي كبرياء ، بل بالعكس
« فيها أجر عظيم باعطاء المثل الصالح للناس . فاكتب اذن شيئاً عن حياتك
« ودع ضميرك مستريحاً ومنشغلاً فقط بما تفتكر فيه لخير الغير . » فطاوعت
« سيادة المطران لاني اعتقد ان خير الغير قائم : اولاً بمحبتنا الحقيقية لعموم
« الناس والتوسل الى الله يومياً لاجل نجاح خيرهم الروحي والزمني ولاجل ان
« يلقي الرب الاله السلام والحب الحقيقي في قلوب الشعوب بعضهم لبعض ويلاشي
« الحروب من بين العالم ويوفي ديون المديونين ويفك سجن جميع المحبوسين
« ويرحم جميع الفقرآء والمرضى »

جرجي يطار

خادم الفقرآء

اخوة يسوع المسيح

---

(١) صدرت الكتاب بهذه المقدمة اللطيفة التي كتبها جرجي يطار نفسه . وقد ابقيت نصها الحرفي الشائق وهي تشف عن نفسية صاحب الترجمة موجزة في كلماته الاخيرة التي اعرب بها عن ارق الشعور واطيب الاستعداد .

(٢) هو سيادة المطران نقولاوس قاضي متروبوليت بصرى وحوران . وشقيق ماري قاضي قرينة صاحب الترجمة .

مقدّمة المؤلف

في الثامن والعشرين من تموز سنة ١٩٣٥ ، نهار الاحد ، الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، مات بدمشق شيخ جليل « قد شبع من الايام » . وكان إبّان مرضه الأخير متزوياً في غرفته يناجي الله بالصلاة والألم ويريد أن ينطفئ سراج حياته بتلك البساطة المسيحيّة الهادئة ، وتلك الدعة المطمئنة المتخفّية وذلك الشعور الصافي المتلألئ بنور الايمان الحيّ ، والمسفر عن اعتقاد نفسٍ عالية ، لم تعتبر وجودها في غربة هذه العاجلة إلاّ سيراً في ميدان الجهاد ، سريع الخطوات ، إلى المشاهدة المطوَّبة في وطن الابديَّة الخالد . ولم تُسمَع حول سريره تلك الجلبة المضطربة الناشئة عن حيرة الاهتمام او الهلع ، بل كان هنالك صِبيَة خاشعون يحدّقون بابصار الايمان الى شيخٍ يتّشح بظلمة الموت وتفترّ على ثغره ابتسامة الرجاء الناظر الى انوار القيامة . ففي وسط ذلك الهدوء الرهيب والسكون الخاشع ، طارت نفس ذلك الشيخ الجليل ، التقي النقي ، رجل الله « خادم الفقراء اخوة يسوع المسيح » جرجي جبرائيل بيطار !

وكأنَّ رنّة نعيه سادت بصداها اللطيف جلَبة المدينة ، أو كأنَّ هاتفاً سريّاً دعا الناس فأسرعوا الى مشهد الفضيلة الرائع ، متجلياً في ذلك الجثمان الهادىء ، واجتمعوا ، كبيرهم وصغيرهم ، الى حيث ساقهم الهاتف ، بهزةٍ لم يحدثها في نفوسهم سوى الشعور الشامل بنفوذ الفضيلة وسيطرة التقوى .

ولعمري إنَّ من يقف على حياة جرجي بيطار ، يعجب من تلك النفس المصطفاة التي « حضنتها كنيستنا الروميّة الكاثوليكيّة وانشأتها على تقوى الله لبذل الخير ، وإغاثة الفقراء ، وجبر المكسورين ، وتعزية الحزان ، وإطعام الجياع ، وكسو العراة ، وزيارة المسجونين ، وعيادة المرضى ، وتعليم الجهال ، وإرشاد

الضالين[1]» . ففي دقائق تلك الحياة الطيبة النزيهة امثولة شاملة تُلقي على الجميع درساً واضحاً في التربية المسيحية الراهنة ، والصِبا الساذج المستنير بحقائق الدين ، والشباب النشيط العامل المتسلح بدرع العفاف اللامع ، وتتمثّل في ذلك الفتى الواقف امام معترك الحياة يتبصر في أية دعوة يختار لمستقبله ، والزوج المسيحي المعتصم بواجبه ، وابي الاسرة الحقيقي ، والرجل الاجتماعي الذي يبذل مواهبه لافادة غيره ، ويتخذ من محبته للقريب شعار محبته لله .

ولكي يقف القارىء على دقائق هذه الحياة ، قد تصدَّيت لوضعها بصورة أمينة ، تبرز ما فيها من طرائف وبدائع . وليس بخافٍ علي تقصيري واستهدافي بكتابي لتصغير تلك الحياة التي تعاظمت في عيون الجمهور ، بصدق الشعور والعاطفة ، غير اني اعتصمت بالله الذي يؤتي من الضعف قوّةً ، واستندت الى ما بين يديَّ من الوثائق التاريخية الاصلية ، وهي رسائل صاحب الترجمة وبعض كتاباته الخاصة ، وشهادات الشيوخ الافاضل معاصريه ، وشهادات بنيه وبني بنيه الذين لازموه في اكثر اطوار حياته ، وهم حجّة في رواياتهم .

فالى اخواننا ابناء دمشق ، المدينة التاريخية العظيمة ، والى ابنـاء الطائفة الاعزاء ، والى جميع الذين يريدون «ان يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع[2]» اقدّم هذا الكتاب ليدوم بالمديح ذكر رجـل الله ، ونقتفي نحن آثار بره وتقواه .

الخوري مكسيموس شنوي ب . م .

كاتم اسرار غبطة بطريرك الروم الكاثوليك

عين تراز في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩٣٥

---

(١) تابين المرحوم جرجي بيطار للاب نقولا ابي هنا ب . م . (طالع الرسالة المخلصية السنة الثانية ايلول سنة ١٩٣٥)

(٢) ٢ تيموتاوس ٣ : ١٢

الفصل الاول

دمشق

وطن جرجي جبرائيل بيطار

قبل الشروع في الكلام عن صاحب الترجمة لا بدَّ لنا ان نقول كلمةً اجماليةً عن تاريخ وطنه الحافل بالذكريات. فدمشق تلك المدينة العظيمة الشأن هي منبت رجال عظماء ومسرح حوادث تاريخية خطيرة. وكل يعلم أنَّ للوطن تأثيراً كبيراً في إنشاء ابنائه وتربية رجاله. لذلك رأينا ان نلقي نظرة على تاريخ دمشق عموماً وعلى الوجهة الدينية الكاثوليكية خصوصاً ليعرف المطالع من استقراء الحوادث المتقدمة والحوادث المتأخرة، لاسيما في القرن الغابر، أن جرجي جبرائيل بيطار هو من عداد الرجال الناشئين من أُسَرٍ مسيحيَّةٍ ختمها الله بوَسم الاضطهاد فتفردت بالتقوى والفضيلة.

إنَّ دمشق (١) او الشام، المسمَّاة ايضاً جلَّق او الفيحاء، هي

---

(١) سميت دمشق باسم بانيها دمشاق بن كنعان. وقيل هو اسمها العبراني دمسك (دائرة المعارف. كلمة دمشق).

من اقدم المدن الشرقيَّة والغربيَّة ، واثبتها شهرةَ وبقاءً على ممر القرون الى ايامنا الحاضرة . فهي ترتقي الى ما هو أبعد من عهد ابرهيم الخليل كمدينةٍ عامرة معروفة .[1] وكانت عاصمة البلاد الاراميَّة ، وقد ذكر الكتاب من ملوكها الاقدمين بَنهَدَد[2] الذي حارب آخاب ملك اسرائيل ، وذكر ايضاً بنوع خاصّ نعمان المعروف بالسرياني او السوري الذي جآء إلى اليشاع النبي وطلب اليه ان يشفيه من برصه[3] .

والظاهر ان مآثمها ومظالمها قد تناهت الى حدّ انّ الله تعالى انزل بها ضرباته الصاعقة ، بدليل ذلك الوِقر الهائل الذي تنبَّأ به عليها أشعيا النبي[4] وتحقَّق بالغزوات التي انهالت عليها تَترى .

وقد اشتهرت دمشق منذ القِدَم بتجارتها الواسعة وارضها الخصيبة التي يروّيها سبعة انهر[5] يتألف منها نهر بردى المشهور الذي سمّاه اليونان والرومان : كريسورواس أي مجرى الذهب[6] . فكانت قِبلة نواظر الشعوب وأُطلق عليها لقب « عين الشرق »

---

(١) تكوين ١٤ : ١٥ (٢) ٣ ملوك ٢٠ : ١

(٣) ٤ ملوك ٥ : ٩ – ١٣ (٤) نبوءة أشعيا ١٧ : ١

(٥) هي : الاعرج ويزيد والديراني وثورا وقنوات وبانياس وعقربا (دائرة المعارف . كلمة دمشق) .

(٦) دائرة المعارف . كلمة دمشق .

و«مفتاحه» . ولا غرو فان موقعها الجميل في قلب سوريا ، بين بساتين وجنائن ، تعدّ من افضل جنائن الدنيا ، يثبت ما يقال عن دمشق إنها « جنَّة تجري من تحتها الانهار[١] » . لذلك كانت محطاً للقوافل القادمة من بالميرا إلى مرافىء صيدا وصور[٢] .

وقد توالت عليها حروب كثيرة . واول من افتتحها الاشوريون سنة ٨٠٠ قبل المسيح ، وعقبهم البابليون ثم الفرس سنة ٧٢١ واخيراً وقعت تحت سيطرة الاسكندر الكبير ، بعد موقعة ايسوس التي انتصر فيها على الفرس سنة ٣٣١ . ولكنَّها ، على ما مُنيَت به من الغارات والغزوات ، لم تزل متمتعةً ببعض حريتها واستقلالها الى السنة ٦٦ قبل المسيح ، التي فيها احتلَّها الرومان ، بقيادة بومبيوس[٣] .

وكان هؤلاء الفاتحون قد استولوا على أرض اليهوديَّة ، ففُتِح امام اليهود سبيل المهاجرة الى دمشق ، وكانوا يتواردون إليها بكثرة لعظم غناها واتساع تجارتها ، حتى اجتمع فيها عدد كبير وبنوا فيها المجامع العديدة .

واذ كانت الديانة المسيحيَّة تنتشر في اليهوديَّة والسامرة

---

(١) في الموضع نفسه المذكور آنفاً .

(2) Répertoire des connaissances usuelles, Tome D, Paris 1856 .

(٣) في الموضع نفسه .

والجليل والعشر المدن، وكان بين هذه البلاد وبين دمشق علاقات تجارية متصلة ، فقد دخلت الديانة المسيحيّة الى دمشق ايضاً بواسطة حنانيا الرسول ، وانتشرت بين اليهود انتشاراً ذُعِر منه يهود اورشليم ، فارسل رؤساؤهم معتمدَهم شاول المشهور، لقمع الديانة المسيحيّة وخنقها في مهدها . فسار شاول مأخوذاً بحميته العمياء وغيرته الفتاكة . بيد أنّ الله صَعَقه بأنواره السماويّة على مقربة دمشق ، فدخلها ذليلًا كفيف البصر ، وأُنزِل في بيت يهوذا في الزقاق القويم ، حيث عمَّده حنانيا الرسول ، بعد ان اعاد إليه بصره . فتقوّى بالنعمة الجديدة وأخذ يبشر بالمسيح في مجامع اليهود بدمشق كلها، ومن هناك سار إلى البلاد العربيّة ، ثم عاد الى دمشق ، مستأنفاً التبشير بالمسيح . فتآمر عليه هؤلاء ، وكمنوا له عند مدخل المدينة، ليقبضوا عليه ويقتلوه بعد ما رشوا حاكم الملك الحارث[١] . غير أنّ المسيحيين اكتشفوا المؤامرة فانقذوا شاول[٢] ودلوه في زنبيل[٣] من سور المدينة الشرقي . ففي دمشق اذن قد بدأ بالكرازة حتى يصح ان يطلق عليه لقب رسول دمشق، وان تعتبر هذه المدينة اول الاماكن التي تقدست باعراقه الرسولية.

وبقيت دمشق ، في عهد الرومانيين ، مدينة عامرة ، وكان

---

(١) هو المعروف بالحارث الغساني . دائرة المعارف . كلمة دمشق .

(٢) اعمال الرسل ٩ (٣) ٢ كورنثس ١١ : ٢٢ — ٣٣

من عادتهم ان يولّوا على البلاد التي افتتحوها حكاماً وطنيين . ولكننا نجد دمشق في تلك الايام تحت إمرة الملك الحارث وهو الحارث الرابع ملك الانباط الذي غلب هيرودس انتيبا حليف الرومانيين (سنة ٣٧) وقد بقيت دمشق تحت سلطته عدة سنوات[1] .

وفي ايام ديوكلاتسيانس قيصر ، تأسس بدمشق مصنع سلاح منه اتخذ السلاح الدمشقي شهرة واسعة . ولم تزل دمشق زاهية بعمرانها في التجارة والصناعة ، حتى كانت تعدّ في ايام يوليانس قيصر ، اجمل المدن الشرقيّة ، وكان لها في صدر ذلك الجاحد عطف خاص . الا ان نموّ الديانة المسيحيّة فيها اوغر صدره ، فلمّا اعلن اوامره باضطهاد الديانة المسيحيّة في كل المملكة الرومانيّة ، قام يهود دمشق ارضاء لخاطره قومة حماسٍ على المسيحيين ، فنكّلوا بهم ودمّروا كنائسهم[2] . بيد انّ هذا الاضطهاد القاسي ، لم يزد المسيحيين الا قوة وانتشاراً .

ولم يطل ذلك العهد القاسي حتى تسلّم ثاوضوسيوس الكبير

---

(١) بخصوص سفر القديس بولس الى بلاد العربية ورجوعه الى دمشق وتولي الملك الحارث على دمشق في ذلك العهد طالع :

Dict. de la Bible : Arétas
Brassac, Manuel Biblique IV[14], 1916
Hopfl, Introductio specialis in libros N. T.
Editio 1031, *p.* 242.

(2) Répertoire des connaissances usuelles .

زمام المملكة سنة ٣٧٨ واعلن ان الديانة المسيحيَّة هي ديانة المملكة الرومانيَّة ، كما كان فعل قبله الملك المعادل الرسل قسطنطين الكبير ٣١٣ ، ثم اصدر اوامرهُ بهدم المعابد الوثنيَّة في جميع انحاء المملكة . وقد شملت مدينة دمشق ، وكان فيها معبد مشهور للاله الاكبر جوبيتر ، فتحوَّل الى كنيسة ملكيَّة للمسيحيين تكرست على اسم القديس يوحنا المعمدان وهي اليوم الجامع الاموي المعروف[1] .

على انَّ ضعف الملوك البيزنطيين الذين خلفوا ثاوضوسيوس الكبير بعد انقسام المملكة الرومانيَّة الى شرقية وغربيَّة سنة ٣٩٥ قد مهَّد السبيل امام الفرس والعرب ، ليشنُّوا غاراتهم على المملكة البيزنطيَّة عموماً وعلى سوريا بنوع أخص . فاستولى الفرس على دمشق سنة ٦١٤ في عهد الملك هِرَقل وسبوا قسماً كبيراً من سكانها . وسنة ٦٣٥ افتتحها المسلمون بقيادة ابي عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص . واستُعمل فيها معاوية بن ابي سفيان وبايعه الناس بالخلافة فصار مؤسّس الدولة الاموية . وجُعلت دمشق قاعدة الممالك الاسلاميَّة[2] ، وعظمت وبلغت اسمى درجات الخ[illegible] وتمتَّع المسيحيون براحة تامَّة في جميع أيَّام هذه

---

(١) Dictionnaire d'Archéologie chrétienne وقيل انه كان هيكلاً قديماً للاراميين على اسم معبودهم رامون .

(٢) دائرة المعارف . كلمة دمشق

الدولة . ولعلّ اولئك الفاتحين لم يحتلوا دمشق عُنوةً بل الارجح أنهم دخلوها على اثر مفاوضات سلميّة جرت بينهم وبين وجهاء المدينة ، وكان في طليعتهم سرجيوس بن المنصور جد القديس يوحنا الدمشقي وقال بعضهم انه أبوه [1] .

فهذا الفتح السلمي يشرح لنا اتفاق الفاتحين ووجهاء المدينة على ان يكون القسم الغربي من المدينة للمسلمين والقسم الشرقي وما اليه لليهود والمسيحيين . ويخترط هذا القسم الشارع المعروف الى اليوم بالزقاق القويم ، وحوله أحياء حارة النصارى وحي اليهود

وكان للمسيحيين في ذلك العهد نحو خمس عشرة كنيسة اشهرها الكنيسة المريميّة والكنيسة الكبرى الملكية المعروفة باسم القديس يوحنا المعمدان [2] . بيد ان هذه الكنيسة جعلت بعد الفتح الاسلامي مشتركة بين المسيحيين والعرب ، وبقيت كذلك الى ان تحولت نهائياً الى الجامع الاموي المشهور ، في ايام الخليفة الوليد الاول سنة ٧١٣ [3] . وقد ازدهرت الديانة المسيحيّة بدمشق في ذلك العهد ، وانبتت رجالاً عظماء نظير القديس اندراوس الكريتي اسقف جزيرة كريت والقديس يوحنا

---

(١) سيرة القديس يوحنا الدمشقي الاصلية : نشرة الاب قسطنطين باشا ب م

(2) Dictionnaire d'Archéologie chrétienne.

(٣) دائرة المعارف . كلمة دمشق .

الدمشقي الشهير . ولا يبعد ان يكون الفضل في تلك الحرية التي تمتع بها المسيحيون بدمشق للنفوذ العظيم الذي كان لاسرة القديس الدمشقي عند الفاتحين .

وفي سنة ٧٤٩ انقرضت الدولة الاموية في عهد مروان الثاني فاحتلّ العباسيون دمشق سنة ٧٥٠ ونقلوا العاصمة الى بغداد . فاخذت دمشق بالانحطاط وصارت قصبة معاملة ، تحت امرة ولاة قد استبدوا في حكمهم ، فاضطهدوا المسيحيين اضطهاداً قاسياً [١] . بيد ان هذا الاضطهاد لم يزدهم الا رسوخاً في ديانتهم ، يقويها في نفوسهم ذكر اجدادهم ، وذكر رسولهم القديس بولس ، المنقوش على اسوار مدينتهم وصفحات قلوبهم .

ولم يزل المسلمون يتوسعون في فتوحاتهم ، ولا سيّما على عهد السلجوقيين الذين افضت اليهم زعامة العالم الاسلامي ، في القرن الحادي عشر ، فاجتاحوا آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين حيث استولوا على الاماكن المقدسة . فساءت احوال المسيحيين ، في الشرق كله ونهبت كنائسهم وبيوتهم .

ودبّت الحماسة الدينية في صدر امرآء الغرب وملوكه فنظموا الحروب الصليبية (١٠٩٥ — ١٢٧٩) بيد انها اخفقت دون غايتها ولعلها كانت سبباً لاشتداد الاضطهاد على المسيحيين في الشرق [٢] .

---

(1) Diotionnaire d'Archéologie Chrélienne .

(٢) ان الامر المحدث في النفس الالم والغم والذي زاد في تقهقر

وقد جرب الصليبيون ان يحتلوا دمشق سنة ١١٤٧ ولكنهم لم يُفلحوا، وما عتمت ان وقعت تحت سيطرة صلاح الدين الايوبي المشهور(١)، وبقيت تحت حكم خلفائه(٢) الى سنة ١٢٧٨ مسيحية حين احتلها المماليك سلاطين مصر، ولبثت خاضعة لهم الى ان انقرضوا بقيام الملوك الجراكسة سنة ١٣٨٢ مسيحية. وسنة ١٤٠٠ مسيحية حمل عليها المُغول بقيادة اميرهم تيمور الذي «نكب الدمشقيين وسلب اموالهم، واحرق بيوتهم، وكان يسقي الكبرآء منهم الرماد، ويعذبهم بالمآء والملح والكلس والكي بالنار، واستخرج

الديانة المسيحية في الشرق عموماً انما هو حادث الانشقاق العظيم الذي فصل الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية الرومانية وقد ابتدأ في النصف الثاني من القرن التاسع في الكرسي القسطنطيني ولم يلبث ان امتد وتثبت بسعايات ميخائيل كيرولاريوس سنة ١٠٥٢ ومرقص الافسسي سنة ١٤٣٩. بيد انه من المقرر الثابت ان قسماً كبيراً من مسيحيي الشرق ثبتوا، في قلوبهم ومعتقداتهم منضمين الى كنيسة المسيح الرومانية الحقيقة، لا سيما في الكرسي الانطاكي عموماً وفي دمشق خاصة، فقد جلس على هذا الكرسي عدة بطاركة اعلنوا انضمامهم الى الحبر الروماني وامتازوا بقداسة سيرتهم وغيرتهم الرسولية: منهم نقولاوس الاول (٨٣٢) الذي حرم فوتيوس بطريرك القسطنطينية. ومكاريوس الثاني (٩٣٢) وبطرس الثالث (١٠٥٢) الذي رذل كيرولاريوس. وافثيميوس الاول الذي اعلن اتحاده مع الكنيسة الرومانية (١٢٨٢) وميخائيل الثالث (١٤٣٩) ويواكيم الخامس (١٥٥٤) وافثيميوس الثاني كرمه (١٦٣٤)

(١) من سنة ١١٣٧ الى ١١٩٣ وهو الذي قضى على مساعي الحروب الصليبية الثالثة. (٢) بعد خراب مدينة انطاكية سنة ١٢٦٨ مسيحية

جنى الاموال منهم استخراج الزيت بالمعاصر ، ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل [١] » وسار عنها سابياً ارباب الصناعة والفن .

وبقيت دمشق في أيادي الجراكسة الى سنة ١٥١٥ مسيحية، حين نزعت من ايديهم في عهد السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٦ م فنشر فوقها العلم العثماني ومنذ ذلك الوقت اعتبرت دمشق جزءاً من المملكة العثمانيَّة ، وجعلت مركزاً رئاسياً للحكم العثماني في القطر السوري . وكان يحكمها وزرآء مفوضون من قبل السلطان ، وقد استأثر كثيرون منهم بسلطتهم واتخذوها وسيلة لاشباع مطامعهم . وكان نصارى دمشق هدفاً لهذه المطامع كأن اسم الرعية الذي اطلق عليهم جعلهم عبيداً أرقآء لابتزاز أموالهم بالجزية القاسية المفروضة عليهم . ولم يكن يباح لهم الدخول في سلك الجندية او تعاطي التجارة الواسعة ، والظهور في اسواق المدينة بمظهر الاشراف والكبرآء [٢] .

على يد الملك الظاهر بيبرس آخر خلفآء الدولة الايوبية ، الذي انتزعها من ايدي الصليبيين وقد هجرها النصارى ولم تعد تصلح مقاماً للبطاركة . فاضطر البطاركة الانطاكيون ان يجعلوا اقامتهم في قبرص قبل تقريرها في دمشق سنة ١٣٦٧ بحكم من مجموع المطارنة الانطاكيين . (طالع سيرة المطران افثيميوس الصيفي الفصل التاسع . للاب قسطنطين باشا ب . م .)

(١) عن دائرة المعارف كلمة دمشق . (٢) تاريخ دمشق للخوري ميخائيل بريك : نشرة الاب باشا ب . م . ١٩٣٠ .

وقد شمل هذا الاضطهاد القاسي جميع نصارى دمشق من غير تفرقة بين المذاهب . بيد ان غير الكاثوليك منهم ، لم يلبثوا أن استمالوا اليهم الحكام فاكتسبوا صداقتهم . ولمّا رأوا نموّ الكاثوليك وتمسّكهم بالكنيسة الرومانيّة ، حقدوا عليهم ووشوا بهم لدى الحكام ، وصوّروهم دعاةً للنفوذ الافرنجي . وبلغ الحقد بفئة منهم ، إلى حد أنهم سعوا لدى السلطان ، بواسطة البطريرك القسطنطيني ، فأصدر أمراً جازماً ، حتم به على جميع المسيحيين الخاضعين للسلطنة العثمانية ، ان ينبذوا المذهب الكاثوليكي . فهذا الامر الجائر ، قد زجّ عدداً كبيراً من كاثوليك دمشق في اعماق السجون[1] ، وجُلدوا جلدات عنيفة .

وقد اشتدّ عليهم بنوع اخص ، بعد انتخاب البطريرك كيرلس الخامس ، طاناس بطريركاً شرعياً على الكرسي الانطاكي ، في ٢٠ ايلول سنة ١٧٢٤[2] ، وإعلانه خضوعه التام للحبر الروماني . وهذا البطريرك الجليل هو أوّل بطريرك على طائفتنا الروميّة الكاثوليكية التي يبتدىء تاريخها الحصري منذ سنة انتخابه ١٧٢٤ .

---

(1) Revue de l'orient chrétien, année 1896, No 2

(٢) ارتسم بطريركاً شرعياً في الكنيسة المريمية بعد انتخاب الرعية له حسب العادة بموجب لائحة رسمية قدمت لعثمان باشا والي الشام .

فقام الارثوذكس ، ولا سيما في حلب ، واعلموا البطريرك القسطنطيني بما حدث . وللحال احضر الى القسطنطينية الكاهن سلبستروس ، تلميذ البطريرك السالف اثناسيوس الدباس ، وكان انضمّ بعد وفاة معلمه المذكور الى رهبان آثوس ، فرسمه بطريركاً على الكرسي الانطاكي في ٢٧ ايلول سنة ١٧٢٤ (١) ، اي بعد انتخاب كيرلس طاناس وسيامته بطريركاً باسبوع واحد . ثم ارسل البطريرك الدخيل الجديد معتمداً من قبله ، وزوّده بفرمانٍ سلطاني لضبط الكرسي البطريركي بدمشق والقاء القبض على كيرلس . فالتزم هذا خوفاً على نفسه أن يهرب الى دير القمر في جبل لبنان ، ومن هناك سار الى دير المخلص الذي كان انشأه ، سنة ١٧١١ خاله السعيد الذكر ، المطران افثيميوس الصيفي ، مؤسّس الرهبانيّة المخلصية ، وقطن فيه الى آخر حياته . وتوفي سنة ١٧٦١ بعيداً عن دمشق ، وكل البطاركة الذين خلفوه حتى البطريرك اغناطيوس قطان المتوفى سنة ١٨٣٣ لم يدخل واحد منهم الى دمشق ، بسبب تسلط البطريرك الارثوذكسي فيها وعدم اعتراف سلاطين عثمان بواحد من بطاركة الكاثوليك . فكان هذا الحرمان الجائر شديد الوطأة على كل كاثوليك دمشق ، فقد ذاقوا الأمرّين من قبل

---

(١) تاريخ دمشق للخوري مخائيل بريك المذكور

الاضطهادات القاسية التي انزلت بهم ، في جميع شؤونهم الماديَّـة والاجتماعيَّة والدينيَّة ، إذ إنهم كانوا يدفعون قسراً جزيةً ثقيـلة ، هي ضعف مـا يدفع سواهم . ولم يكن مباحاً لهم الظهور بمظهر الاشراف ، ومعاطاة التجارة الحرَّة الواسعة . وكثيراً ما أرغموا بقوة الحكومـة عـلى تتميم فروضهم الدينية في الكنـائس الارثوذكسية دون سواها . إلاَّ أنَّهم كانوا يتسلَّلون سراً الى كنائس اللاتين ، اذ لم يُسمح لهم في ذلك الوقت أن يبنوا كنائس خصوصية . وعند الاقتضاء ، كانوا يجتمعون سراً مع كهنتهم في بيوت معيَّنة ، بـأوقات معـلومة ، للقيـام بحفلات طقوسهم الكاثوليكية ، وكان بعض الوشاة يطلعون الحكومة على مقرهم ، فتأمر للحال بالقبض على المتقدمين منهم جاهاً ومالاً ، ولا يُفك أسرهم إلا لقاء غرامةٍ باهظة [1] .

وكانت الرهبانية المخلصية قد أنشئت سنة ١٧١١ ، واخذت تنمو نموًّا عجيباً . فبسبب استمرار ذلك الاضطهـاد القاسي ، وإقامة البطاركة في دير المخلص او غيره من اماكن لبنان ، اضطر البطاركة ابتداءً من كيرلس الخامس طاناس ، إلى ان يرسلوا كهنة من رهبان دير المخلص لخدمة الطائفة في دمشق [2] .

---

(1) Revue de l'Orient chrétien, année, 1896, N° 2

(٢) اربع محاضرات في تاريخ مدرسة دير المخلص للاب ق. باشا ب م سنة ١٩٢٨ .

وليس من ينكر على هؤلاء الرهبان ، جهودهم في الخدمة ، إبّان تلك الاحوال الضيّقة ، وغيرتهم الرسولية على إنماء الكثلكة ، بالتعليم الديني القويم ، فكانوا المثل الصالح الفعال ، لنشر التقوى الراهنة بين جميع الأُسر الدمشقية الكاثوليكية ، وحمل كثيرين على انتحال الدعوة الرهبانية ، ولسنا نغالي اذا قلنا إن الطائفة بدمشق قد حُفظت ونَمت بمعونة الله وفضل رهبان دير المخلص .

على أنّ القلم يعجز عن وصف اصناف المظالم التي لحقت بكاثوليك دمشق ، مدّة نفي البطاركة عنهم ، بيد أنّ تأصلهم في الكثلكة ، كان ترساً لهم ، ازاء الاضطهادات ، فهي لم تردهم إلا قوةً ونمواً . وأشدّ ما كان يشق عليهم ، اضطهاد كهنتهم خدمَة نفوسهم . فيجدر بنا أن نورد شيئاً مما كتبه احد الشهود العيانيين ، في تلك المظالم ، وهو المرحوم الياس دمر الدمشقي الكاثوليكي (١) .

فبعد ان بيّن هذا الشاهد العياني ، سعايات غير الكاثوليك ، لدى الحكومة المحلية ، بالرشوة او بالتملّق ، لاصدار اوامرها باضطهاد الكاثوليك ، في دمشق وصيدا وعكا وغيرها ، جاء على وصف حادث مؤلم ، هو نفي الكهنة من دمشق قال :

« في اليوم السابع من كانون الثاني ، افتتاح سنة ١٨٢٢ ،

(١) اطلعني على بعض ما كتبه هذا الشاهد العياني حضرة الاب الفاضل افثيميوس سابا ب م كاتم اسرار غبطة السيد البطريرك الذي كان نسخ منه شيئاً اثناء اقامته في رومة

« ثاني عيد الظهور الالهي ، حينما كان الكهنة يتممون فروضهم
« الدينية سراً في الليل ، ويقيمون الذبيحة الالهية ، فبعد إشراق
« الشمس بساعتين ، جاءت جنود الحكومة ، ومعهم اشخاص من
« الروم ، وصاروا يعرّفونهم بالكهنة الكاثوليك ، خشية ان
« يقبضوا على كاهن روم . في مدة ساعتين ، قبضوا على كهنة
« الروم الكاثوليك ، في الطرقات وفي البيوت ، وكان الجنود
« يدخلون إلى بيوت المسيحيين الكاثوليكيين بدون حياء ، بل
« بنوع التهديد والاهانة والشتائم والكلام الغير اللائق ، وبسبب
« ذلك حصلت اضرار كثيرة للنساء ، لا لزوم لشرحها ... وبعد
« ان قبضوا عليهم جميعاً ، اخذوهم الى السرايا عند الوالي ،
« وبالوقت خرج الامر حالاً بارسالهم الى جزيرة إرواد مقيّدين ،
« وسلموهم الى احد القواد ، مصحوبين بخمسة وعشرين جنديا
« حسب النظام ، ولم يشفق عليهم احد ، ولا احد امكنه ان
« يترجّى الحاكم ان يبقيهم في السجن أقله يومين او ثلاثة ، حينما
« يتحسّن الطقس ، لانه بذاك اليوم كان برد شديد جداً بسبب
« هطل الثلوج ... فسار هؤلاء المساكين ، نظير مسير الاربعين
« شهيداً تقريباً . فأوجه الطائفة ، إجتمعوا حالاً ، وجمعوا دراهم
« كافية الى اكرام الآغا والعسكر الذين سافروا برفقتهم ،
« والكهنة ايضاً لاجل المصروف في الطريق . وارسلوا هذا المبلغ
« مع احد معتبري الطائفة المدعو يوسف سيُّور . فهذا اسرع

« وحصَّلهم على الطريق البعيد عن دمشق مقدار ساعتين ، واعطى
« الآغا مبلغاً كافياً . . . واعطى الجنود كذلك . . . وتوسّل اليهم
« وترجّاهم ودموعه تجري كالمطر وقال لهم : هؤلاء اناس وظيفتهم
« التعبد لله تعالى ، وإقام فروض الصلاة للشعب ، وليس عليهم جُنح
« ولاذنب ، والآن هم مظلومون ظلماً بهذه الدعوى ، فاكرر رجائي
« ان تشفقوا عليهم ، ولا تتقاسوا عليهم في الطريق . . . فوعده
« الآغا قائلاً : يا معلِّم إرجع الى بيتك وكن مطمئنَّ البال والخاطر
« من جهتهم ، حيث إنني انا عرفت وتأكدت أنَّهم مظلومون . وحباً
« بالله تعالى وإكراماً لخاطرك ، وخاطر ابناء طائفتك ، الذين اكرموني
« بهذا المبلغ ، الذي سلمتني إياه ، لا يمكن ان يصادفوا ضيماً ولا
« إهانة ، إلى حين تسليمي اياهم الى مأمور الجزيرة ، وهناك ايضاً
« سأتكلم واوصي المذكور ان يعاملهم بالرفق والاحسان والشفقة ،
« لحين يفرج عليهم المولى . . . فرجع المرحوم سيُّور ودموعه
« تسكب مع دموع الكهنة ، واخبر معتمدي الطائفة بما صار ،
« وكانوا بانتظار رجوعه بفروغ صبر ، وملازمين صلاةً مقرونةً
« بالبكاء على نيَّة اولئك الكهنة المساكين ، لان طريق سفرهم
« صعب جداً بسبب الثلوج التي تتراكم اعتيادياً بكل عام على
« الجبال والطرقات في تلك المحلات .

« وعند ذلك حرَّر اوجه الطائفة تحريراً كافياً بكل ما حصل ،

« تفصيلاً ، وارسلوه مع شخص مخصوص من دمشق الى عكا ،
« بناء على أنَّ معتبري الطائفة الذين في عكا ، يعرضون هذه
« الواقعة على والي عكا حيث إنَّ جزيرة ارواد تحت قضاء
« طرابلس ، وطرابلس تحت قضاء عكا ، والوالي الذي في عكا له
« السلطة على المحلَّات المذكورة [1] .

« فهذا المرسال اوصل التحارير الى المذكورين ، وافادهم
« ايضاً شفاهاً عن كل ما حصل ، في دمشق حرفياً ، فعند اطلاعهم
« على ذلك ، بكوا بكاء مرًّا . وبعد ان انتهت تلك المناحة
« المحزنة ، جمعوا حواسهم وتخابروا بما يلزم العمل به ، فاتفق رأيهم
« على عرض الدعوى على الوالي وهو انه ، ثاني يوم ، دخلوا لعند
« الوالي مقدمين استعفاءهم من خدمته (حيث إنهم كانوا
« موظفين في دائرة الحكومة) فسألهم عن سبب استعفائهم ،
« فاخبروه عن واقعة الحال التي حصلت في دمشق ، وعن نفي الكهنة
« الى جزيرة ارواد . فما كان من حضرة الوالي إلّا انه حالاً حرَّر امراً
« الى حاكم طرابلس أن يطلب الكهنة من مأمور الجزيرة المذكورة .
« فعند وصول الامر ، حالاً صار اطلاقهم ورجعوا الى ديرهم ،
« دير المخلص العامر المشهور ، وكانت مدة نفيهم اثنين واربعين
« يوماً ، وما عادوا تجرّعوا على الرجوع الى دمشق إلّا بعد عشرة

---

(١) طالع تفصيل هذا في تاريخ ولاية سليمان باشا الذي نشره حضرة المؤرخ الاب ق . باشا ب م

« اشهر ، خشية ان يحدث حادث آخر نظير ذلك .

« فبمدَّة العشرة اشهر المذكورة ، كانت الطائفة بدمشق « محزونة حزناً شديداً ما عليه من مزيد فلا أحد خطب ، ولا أحد « تزوج ، والذي مرض ، كان يزوره الآباء الفرنسيسكان او « الآباء اللعازريون ويلازمونه ، ويساعدونه ، في الاشياء الدينية « والدنيوية ، حسب الاقتضاء الى ان يشفى ، واذا مات يجنزونه « سراً حسب طقسهم ويرجعون الى ديرهم . واولاد الذين خلقوا « في تلك المدة ، كان كذلك يحضر احد الرهبان المنوَّه عنهم ، « ليصلي لها (للوالدة) الصلاة الضرورية ، وبعد ذلك بمدَّة ، يتعمَّد « الولد في دير البادري المذكور ، واكثر النساء التي وضعت ، في « مدَّة تلك الاشهر ، ارّخوا أعمار الاولاد (بتاريخ حادث النفي) « فتقول الواحدة : ان عمر ابني ، من وقت نفي الخوارنة ، الى « جزيرة ارواد ... ان ابني خلق بعد سركلة الخوارنة باربعين يوماً « او أكثر ، وهلم جراً الخ ...

« ولكن بذلك الوقت ، استعمل رهبان دير المخلص واسطة « حسنة جداً ، وهي انه صار يطلع الكاهن من دير المخلص ، « لابساً ملبوس مكاري ، وعند دخوله الى دمشق ، يحمل ضمن « عباءته ، خضرة خبيزة ، نعنع ، هندبي ، او شيء آخر ، ويصير « يجول بين بيوت المسيحيين ، وينادي على بضاعته هذه . « فالامرأة الكاثوليكية ، تعطيه اشارة ، وتدخله ، وترسل تخبر

« زوجها او والدها . والمذكورون يخبرون اقرباءهم وجيرانهم
« فيحضرون في السهرة ، واحدٌ بعد واحد، الى البيت الذي به
« الخوري ، واذا صادفهم احد في الطريق ، وسألهم الى اين
« يتوجهون ، فيجاوبوه : الى زيارة مريض .

« وبذاك البيت الذي به الخوري ، يتحدث الناس باشغالهم
« او يلعبون بالورق ، خشية من حضور أحدٍ للسهرة ، ويتوجه
« الواحد بعد الواحد ، الى الغرفة الموجود بها الكاهن ، فيعترفوا
« لغايه نصف الليل ، وبعد نصف الليل يبتدىء القداس ، وعند
« الختام يتناولون القربان المقدس ، ويخرجون من ذلك البيت ،
« الواحد بعد الواحد كما جاؤا مساءً ، بعد ان يكونوا وضعوا
« رواقيب عند مدخل البيت ، وبعيداً عنه ايضاً ، ويكونوا
« دفعوا دراهم الى المتوجه بذاك الحي من الاسلام ، حتى يقدروا
« أن يقدسوا ذاك القداس - هذا اذا مشي الحال ومضت الليلة بدون
« كبسة وبدون شيء يكدّر - لان اكثر اوقات هذه القداسات
« كان يعرف بها بعض الروم ، وحالا يعرضون الى الحكومة أنَّ
« الكاثوليك مجتمعون في البيت الفلاني ، يصلون صلواتٍ نظير
« الافرنج ، ويدعون بصلواتهم الى ملوك الافرنج ، ويعتقدون
« نظير اعتقادهم ، ويظهر الروم ذواتهم انهم هم وحدهم رعايا
« الدولة العليَّة وهم المخلصون لها لا غيرهم . فبهذه المظاهرات ،
« يخدعون الحاكم ويستميلون رضاه عليهم ، وحالاً يامر الجنود أن

«يتوجهوا الى المحلّ الذي تكون فيه الصلوات . وعند وصولهم «يرمون القبض على الكاهن وعلى من يبقى في البيت، لان «الاكثرين يسرعون الى الفرار ... فالكاهن المسكين، يسرع «قبل كل شيء الى شرب الكاس الذي فيه جسد ودم سيدنا «يسوع المسيح ، وبعد ذلك يسرع في شلح بدلة القداس — إذا «أمكنه ذلك ، ويسوقونه مع الآخرين كالغنم الى الذبح ، وفي «الغد تبلغ القضية الى الحاكم ،وحينئذ يصدر الامر بضرب «الزخمات[1] وبالسجن ،الى ان يتقدَّم له المبلغ الكافي الى صفو خاطره «وخاطر اتباعه من اصحاب الوظائف الخ . وقد دام هذا الحال «مدة العشرة اشهر في غياب الكهنة الذين جاؤا من المنفى الى دير «المخلص وبقي متصلاً بعد رجوعهم لدمشق نحو ثماني سنوات[2] .»

---

(١) الزخمة هي جِلد مضفور ، بعرض اصبعين ، يضرب بها الجلّاد على أَلْيَة الانسان وهو مطروح على الارض ، وصدره الى الارض ، وجندي على راسه وجنديان عند رجليه . (عن الياس دمر المذكور)

(٢) كان الكهنة المخلصيون يتردّون زيًّا عالميًّا ويظهرون مظهر باعة الخضر المتجولين . وكانوا يخفون بدلاتهم الكهنوتية والاواني المقدسة ضمن سلال الخضرة . وقد وجد المثلث الرحمات المطران اثناسيوس خرياطي مطران صيدا ودير القمر احدى تلك البدلات الكهنوتية . واخبرني حضرة الاب الفاضل افثيميوس سابا ب م ان سيادة المطران المشار اليه قدم تلك البدلة الى قداسة البابا بيوس الحادي عشر كتحفة سنية تشهد بجهاد وغيرة الرهبان المخلصيين فقبلها قداسته وامر بوضعها في المتحف الفاتيكاني .

وقد رئف الله اخيراً بطائفته الامينة ، بعد ان خبر ثباتها العجيب إبان هذه الاضطهادات القاسية التي اذن بحدوثها ، فرام ان يحررها من ربقة الاستبداد ، بانتخاب السيد مكسيموس مظلوم ، بطريركاً عليها سنة ١٨٣٣ وكان المصريون سنة ١٨٣٢ احتلّوا سوريا ودمشق [1] بقيادة ابراهيم باشا المصري ابن محمَّد علي باشا الشهير . فنادوا بالحرية والمساواة ورفعوا الجزية القاسية عن اعناق المسيحيين ، فنال الكاثوليك حقوقهم العادلة المدنيَّة والاجتماعية ولا سيما الدينيَّة . فاخذوا ببناء كنيستهم الكاتدرائيَّة الحاليَّة ، بمساعدة عظيمة من رهبان دير المخلص [2] . ولما سمعوا بانتخاب بطريركهم الجديد ، وبالامر السلطاني القاضي بنقض تسلُّط الارثوذكس ورفع احتكارهم للكرسي الانطاكي بدمشق علَّلوا نفوسهم بقرب مشاهدتهم بطريركهم وراعيهم الجديد مكسيموس مظلوم .

على ان هذا البطريرك العظيم ، بعد ان تفقَّد شؤون الطائفة في لبنان على اثر انتخابه ، قصد ان يذهب حالاً الى دمشق . فانتهز فرصة احتلال المصريين لسوريا [3] ، وتسلَّح بامر صريح من

---

(١) دائرة المعارف — كلمة دمشق Dictionnaire des Connaissances usuelles - Tome D

(٢) وثيقة تاريخية مثبتة محفوظة في مجلات دير المخلص .

(٣) طالع المشرق سنة ١٩٣٢ : المصريون في لبنان وسوريا سنة ١٨٣٢ — ١٨٤٢ .

محمَّد علي باشا الكبير ، واكتسب صداقة يوحنا بك البحري الرومي الكاثوليكي الشهير ، الذي كانت عينته الحكومة المصرية مفتشاً من قبلها لرؤساء سوريّا . وفي ٥ نيسان سنة ١٨٣٤ يوم سبت لعازر ، دخل البطريرك إلى دمشق يصحبه بعض السادة الاساقفة وجمهور من الاكليروس ، وكان الاهالي قد خرجوا لاستقباله بموكب حافل ، فدخل الكنيسة الجديدة التي كان تمَّ بناؤها ، وابناء الطائفة متألبون حوله تألّب الاغنام حول راعيها . فالتفت اليهم البطريرك بوجهٍ متهلّل ، وألقى عليهم تلك الخطبة الشهيرة ، التاريخية ، التي استهلها بآية الكتاب « اذكر يا إسرائيل اليوم الذي خرجت فيه من العبودية . »

وفي اليوم التالي كرّس الكنيسة الجديدة باحتفال مهيب . ثم امر ببناء دار للبطريركية بقرب الكنيسة . وفي سنة ١٨٣٥ أنشأ اخوية سيدة البشارة (١) للرجال وجعل لها مرشداً خاصاً من الرهبان المخلصيين ، وأسّس جمعية الفقراء ، وجمعية التعليم المسيحي للفتيان ، وعيَّنَ وكلاء للكنيسة الكاتدرائيَّة .

وقصارى الكلام إنَّ الجهود الجبَّارة التي بذلها هذا البطريرك العظيم ، ولا سيَّما في رحلاته المتعددة إلى الاستانة واوربا ، قد جعلته يسمَّى ، بكل صواب ، أبا الطائفة الروميَّة الملكيَّة الكاثوليكيَّة .

(١) جرى الاحتفال باليوبيل المئوي لهذه الاخوية سنة ١٩٣٥ بحضور صاحب الترجمة وكان اقدم المشتركين فيها .

وهو اول من حصّل من الباب العالي الفرمان السلطاني ولقب : بطريرك انطاكية والاسكندريّة واورشليم وسائر المشرق [١]، ونال منه إنعام لبس القلنسوة لاكليروس الطائفة [٢].

ففرحت الطائفة جمعاء فرحاً عظيماً ، لا سيّما كاثوليك دمشق، وكان ذلك الفرح الشامل برهان انتصارهم المجيد، على الاضطهادات القاسية التي نزلت بهم ، وخرجوا منها كما يخرج الذهب من النار ، لامعين بايمانهم ، ومعتقدهم ، وراسخين في التقوى المسيحيّة الحقّة ، التي هي افضل تراثٍ يخلّفه الآباء للابناء .

وفي سنة ١٨٤٨ ، كان رجع ، الى دمشق ، البطريرك مكسيموس مظلوم ، عائداً من الاستانة ، وظافراً بالحقوق والامتيازات العظيمة التي منحها السلطان بواسطته للطائفة . فجرى له ايضاً استقبال حافل ، ووفد للسلام عليه وتهنئته غبطة السيد متوديوس بطريرك الروم الارثوذكس ، فتعانق الحبران ، وصار بعض تقارب بين الطائفتين الشقيقتين .

غير أنَّ عهد الراحة والسلام لم يطل ، كأنَّ الله تعالى قدَّر باحكامه السامية ، ان لا تنشأ الطائفة ، في دمشق خصوصاً ، ولا تنمو إلّا بالاضطهادات ، تحقيقاً لقوله تعالى : « إنَّ حبة الحنطة التي تقع في الارض ، إنْ لم تمت ، فانها تبقى وحدها ، وإن ماتت أتت

(١) إثبت له هذا اللقب البابا غريغوريوس السادس عشر السعيد الذكر .
(٢) طالع نبذة تاريخية . نشرة الاب ق . باشا ب م .

بشمر كثير[١] . »

فلما جاءت سنة الستين المشهورة ، وانتشرت اخبار الثورة التي اشعل الدروز نارها في لبنان ، باتفاق سري مع خورشيد باشا والي بيروت ، حتى تحمَّس بعض الجهلاء والرعاع[٢] بدمشق للايقاع بالمسيحيين . فاستمالوا اليهم والي دمشق احمد باشا ، وتملقوه ، بواسطة بعض الزعماء ، ليبيح لهم النهب والذبح . فكانت بدمشق تلك المجزرة التاريخية الهائلة . ولولا رحمة الله تعالى ، واستخدامه الامير عبد القادر الجزائري لحماية النصارى ، لما سلم منهم إلّا عدد قليل ممن توفقوا الى الفرار .

فتلك السنة المشؤومة ، وما جرى فيها من ذبحٍ وسلبٍ وحريق ، والتي نقل السلف اخبارها للخلف[٣] ولم تزل ذكرياتها السوداء حيَّةً في اذهان كثيرين ، تصور لنا ، بمشاهدها الفظيعة ، حارة النصارى بدمشق ، أتوناً هائلاً ، امتزج ازيز نيرانه ، بعويل النساء ، وصراخ الاطفال ، وقعقعة البيوت المتهدّمة ، وصخب الاوغاد الثائرين مع عساكر الاتراك ، لتعقب الأُسر الهاربة

---

(١) يوحنا ١٢ : ٢٤ — ٢٥

(٢) دائرة المعارف — كلمة دمشق

(٣) طالع : ما وقع لي في حادثة سنة ١٨٦٠ — للاب داود جمال ب م — وضع الأب نقولا ابو هنا ب م . مجلة المسرة كانون الاول ١٩١٣ وكانون الثاني ١٩١٤

أمامهم ، يقتلها الذعر قبل ان تحطِّمها الفؤوس . وقد أظهر التعصب الديني الذميم ، في تلك النازلة السوداء ، كل ما يستبيحه من فظاعات ومخازٍ ، فكان هو النافخ في صدور الثائرين ، ثورة الغضب السفَّاح ، ونار الحقد الفتاك ، وبلغ التسفُّل بكثيرين منهم الى بقر بطون الحوامل[1] وقتل الاجنَّة وطرحها للكلاب ، وذبح الرجال على ركاب زوجاتهم ، وسلب عفاف العذارى سراً وعلناً . وقد شاركهم اليهود في الفظائع ، فاتفقوا مع الثائرين ، على إبادة المسيحيين ، وسرق الاطفال ، للتجارة بهم . فتلطخت دمشق بدماء الابرياء ، وإنَّ كثيرين ممَّن لم يتسنَّ لهم الهرب او الاختفاء ، ركعوا بشهامة امام مضطهديهم ، فحزَّت اعناقهم إكراماً وتمجيداً للدين المسيحي[2] .

واذ كان اولئك الثائرون ، جادِّين في سيرهم ، للسلب والنهب ، وصلوا الى (الحارة الجوانية) — وهي حيٌّ من احياء النصارى — فاستوقفهم منظر امرأةٍ في بيتها[3] تزين وجهها سماء التقوى المسيحيَّة ، والنبل والشرف ، وامامها ولداها الصغيران . فخشعت ابصارهم عند رؤيتهم إياها ، وسرى اليهم ، من مهابتها ،

---

(1) Vincenzo G. Berchialia : Il soldato Druse 1867 p. 297

(٢) الفرنسيسكان السبعة ورفاقهم المسابكيون الثلاثة — نقولا مساميري — الخوري رافائيل زلحف وغيرهم كثيرون .

(٣) عن احدى كتابات صاحب الترجمة جرجي بيطار .

ما خدّر أعصابهم وكسر ثرّة غضبهم ، بيد أنّ قحتهم الغريزية ، دفعتهم الى مهاجمة بيتها ، فنهبوا ما نهبوا ، ولكنّ ايديهم الاثيمة ، احترمت سيدة البيت وطفليها ، واكتفوا بأن قذفوا من افواههم ، ما تلوكه ألسنتهم من فظائع الشتم واللعنات . وكانت تلك السيدة الفاضلة ، وردة نقولا حوس ، زوجة جبرائيل بيطار ، ووالدة جرجي بيطار ، صاحب الترجمة ، الذي كان في تلك السنة شاباً ممتلئاً ذكاءً وقوةً ، وفضيلةً وتقوى . وقد توصل بذكائه النادر الى ان يجعل من بيت والديه مختبئاً محكماً ، لجأ اليه ، من وجه الثائرين ، نحو ثمانية عشر رجلاً ، من آل مباردي وقاضي ومعري ، وفضّل هو ان يهرب مع والده ، متكلاً على عناية الله ، الذي حفظه ليكون بدمشق ، رجل التقوى ، والفضيلة ، والفن ، و « خادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح [١] . »

---

(٣) توقيع صاحب الترجمة جرجي بيطار .

الفصل الثاني

اسرة جرجي جبرائيل بيطار[١]

آل البيطار[٢] أُسر كثيرة ، مسيحيَّة وغير مسيحيَّة ، لان ما ينسب الى الصناعات يكثر الاشتراك فيه . وكان الاتراك يلقبون من يتعاطى طبَّ الخيل (بيطار باشي) فيعرف باسم « بيطار » . فكثر الالتباس بهذه التسمية بين جميع الطوائف .

وفي دمشق أسرة من الروم الكاثوليك ، معروفة باسم بيطار وقد ذكر من اسلافها سنة ١٧٢٣ جبران بيطار وسنة ١٧٧٥

---

(١) اعتمدت في هذا الفصل وما يتبعه على شهادات وثيقة أملتها مريم شقيقة صاحب الترجمة على حضرة الاب جورج غبريل ب.م. المحترم ، وعلى ذكرياتٍ خطية اصلية من قلم صاحب الترجمة كان دوَّنها بخط يده بقلم رصاص ، في دفتر خاص يحتوي على تسع عشرة صفحة ، جليَّة واضحةً ، لم يضرب فيها على كلمةٍ واحدة . وقد عثر على هذا الدفتر ابنه الارشمندريت جبرائيل بيطار ب.م فأرسله إليَّ وكان لي كنزاً ثميناً او شعاعاً استجليت على ضوئه افادات قيّمة عن حياة والده العائلية والمدرسية وعن نبوغه في فن الفسيفساء وعن حوادث كثيرة من حياته .

(٢) تاريخ الاسر الشرقية لعيسى اسكندر المعلوف .

ديمتري بيطار الدمشقي بمصر . ولا نعلم من هم من سلالة هذين الآن . ومن المقرّر الثابت ان جبرائيل بيطار والد صاحب الترجمة ، يَمُتّ الى المذكورين ، ان لم يكن بالقرابة القريبة ، فبالصنعة والموطن ، لانه كان يتعاطى طبّ الخيل بدمشق آخذاً عن ابيه . وقد اشتهر بصنعته حتى عرف بهذا الاسم اكثر من سواه[1] . بيد اننا لا نعرف عنه شيئاً غير ما ذكره عنه ولده جرجي . ولو لم تتلف السنة الستون المشؤومة سجلات الكنائس والبطريركيَّة بدمشق ، لكانت انتهت الينا بعض المعلومات القيّمة عن هذه الاسرة .

كان جبرائيل بيطار يقطن في دمشق ، منزلاً بالحارة المدعوَّة (الجوّانيّة) وكان فيها حانوته . ولم يكن له مورد غير جنى صنعته . وقد عُرف بقوّة البنية الجبارة ، تلطفها سلامة القلب والنيَّة ، والسذاجة المسيحيَّة ، والتقوى الراهنة . ويُؤثر عنه انه لم يكن يهاب سطوةً على الارض غير سطوة الله فكان منظره ، بقامته الممتلئة ، وكتفيه العريضتين ، وذراعيه القويتين ، يبعث المهابة في الصدور ولكنه كان امام الله ولداً بالطاعة

---

(١) من احاديث صاحب الترجمة كان يمليها على ولده الياس بيطار .

والنشاط ، ولم يغفل عن القيام بواجباته المسيحيَّة ، فكان يذهب لى الكنيسة لسماع القداس كل يوم ، ويركع بتهيب وخشوع ، على حصيرةٍ كانت ، حسب العادة القديمة ، مفروشة في آخر الكنيسة من جهة المدخل [1] .

وبعد ان دخل البطريرك مكسيموس مظلوم مدينة دمشق سنة ١٨٣٤ ، وابتهجت الطائفة بمشاهدة رئيسها وراعيها ، أخذ في بناء الكنيسة الكاتدرائية المعروفة سنة ١٨٣٥ ، فكان جبرائيل بيطار في طليعة المساعدين على بنائها وتزيينها . ولا شك ان تقواه المسيحيَّة الراهنة هي التي قرَّبته الى ذلك البطريرك العظيم ، فأوجدت بينهما تلك الدالة الحرَّة التي تجمع بين الاب وابنائه . فكان يقوم باكراً لحضور قداس البطريرك واذا اتفق لهذا ان يتأخر عن الوقت المحدد ، كان جبرائيل يذهب الى الدار البطريركيَّة ، فينبهه بدالةٍ بنويَّة ويحضر معه الى الكنيسة . فما اجمل هذا النشاط في نفس الابن وما اجمله مع التواضع في نفس ذلك الراعي الصالح [2] .

---

(١) كان لجبرائيل بيطار اخ شقيق يدعى يوسف كان يسكن في باب توما .

(٢) من ذكريات صاحب الترجمة .

وقد امتاز جبرائيل بيطار بغيرته على تزيين بيت الله وبمحبته للفقرآء والمرضى. فكان سريعاً الى العطاء بقلبٍ متهلل ونفسٍ شيّقة الى فعل الخير. وفي ذلك الوقت لم تكن قد تألفت بدمشق الجمعيات الخيريّة كما هي في شكلها الحاضر ونموّها الزاهر. بل كانت الاسر المسيحيَّة تهتمّ بهذا العمل الخيري كل اسرةٍ بدورها، ولا سيّما في ايام الصيام الاربعيني. فكانوا يهيئون الطعام من عدسٍ ونحوه، في حَلّةٍ كبيرةٍ، ويعدون ما يكفي من الخبز، فيأتي بعض الفعلة، وينقلون الطعام في سطولٍ يعلقونها بعصا طويلة يحملها اثنان على اكتافهما، ويأخذون الخبز في اطباقٍ الى الكنيسة، فيوزعها وكيل الكنيسة على من يحضر من الفقرآء. ومن كان منهم مقعداً، كان يأخذ نصيبه وهو في بيته.

فكان جبرائيل بيطار يحسب دوره في اعداد الطعام وتوزيعه من ابهج ايام حياته، وكان يتهيأ لذلك اليوم قبل وروده كأنه عيد عظيم[1].

ولمّا كان الهذيذ بالموت من اكبر العوامل على الاستفادة من قِصَر الحياة للخلاص، والثبات في الايمان والفضيلة، كان ذكر الموت والابديّة لا يبرح فكر جبرائيل بيطار، فيقيس اعماله بهذا

---

(١) من ذكريات صاحب الترجمة.

المقياس الادبي الفعّال . ولذلك كان يحضر جميع المآتم ، ويرافق الميت إلى المدافن وهناك ، بين تلك المنازل الرهيبة ، كان ينفرد عن الجموع ، فيخرج من المقابر جمجمةً يحملها بين يديه ، ثم يبرز امام تلك الجموع الخاشعة ، فيلقي عليهم أبلغ المواعظ واجلّ العبر[١] .

على انّ مهنته الوضيعة ، لم تكن تحول دون تقرّبه من اعيان الطائفة الذين اكتسب صداقتهم . فكانوا يجلّون فيه تقواه واستقامته وغيرته ، وفي طليعتهم ، رجل العلم والتقوى والادارة ، المرحوم فضل الله سيوفي الذي كان عضواً في مجلس التجارة وهو والد رجل البرّ والفضل المرحوم مخائيل سيوفي وجدّ السيد انطون سيوفي . وقد توثّقت بين الرجلين ربط الصداقة والمحبّة المسيحيّة فكانا يجدّان معاً في سبيل التقوى والفضيلة . ويحضران يومياً إلى الكنيسة لسماع القداس الالهي فيخدمه فضل الله ذو الصوت الجميل بأنغام لذيذة وعاطفةٍ تقويّة مؤثّرة . وكثيراً ما كانا يتلوان معاً صلاة الغروب وأحياناً صلاة النوم ثم يذهب كلٌّ منهما إلى بيته[٢] .

ولما كان الله تعالى قد اختار جبرائيل بيطار ، ليكون اباً

---

(١) من ذكريات ولده صاحب الترجمة .

(٢) من ذكريات ولده صاحب الترجمة .

صالحاً مباركاً «لخادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح» فقد اعدّ له بعنايته الشاملة، شريكة لحياته، فتاة على مثاله في التقوى والفضيلة. فاذ كان يوماً، يشتغل في حانوته[1]، مرّت امامه ابنةٌ كريمة هي وردة ابنة نقولا حوس من دمشق. فاستوقفها منظره الجبار، ونشاطه ورزانته، وشاء الله تعالى ان تكون هذه الابنة زوجةً لجبرائيل. على انّنا لم نتوصل الى معرفة تاريخ هذا الزواج المبارك بسبب اتلاف سجلات الكنيسة والبطريركيّة في السنةالستين المعهودة.

وجد جبرائيل في هذه الزوجة المباركة أكبر مساعدٍ له على بذل الخير والاحسان والعناية بالمرضى. وكانت هي تضارعه بالتقوى والفضيلة. ولا شكَّ انّ هذين الزوجين الكريمين، المتحدين بعاطفة الايمان والمحبة، العائشين في جوٍّ لطيفٍ هادىء، قد اعدهما الله منبتاً مقدساً، وضع فيه تُراث الايمان والتقوى. وقد بارك الله زواجهما فرزقهما ستة اولاد كان جرجي بكرهم سنة ١٨٤٠. واما الخمسة الباقون فهم مريم امرأة خليل خوام من دمشق وقد توفاها الله عن شيخوخة صالحة سنة ١٩٣٥، وبطرس وقد توفي سنة ١٨٩٣ مخلفاً ثلاثة بنين، وحبيب وقد انخرط في سلك

---

(١) اخذاً عن احد شيوخ دمشق.

الرهبانيَّة المخلصيَّة سنة ١٨٧١ ودعي يوحنا وتوفي برائحة القداسة في دير معلولا سنة ١٨٨١، ونقولا الذي تعلَّم طبَّ الاسنان وعاش في مصر، وسيِّدة وقد عاشت بتولًا طيلة حياتها وامتازت بغيرتها الشديدة على تجهيز البنات الفقيرات وقد توفاها الله سنة ١٩٠٠.

فكل هؤلاء البنين الصالحين مشهود لهم عند الجميع بالتقوى والفضيلة اللتين غرسهما في نفوسهم والداهم الفاضلان. فنظرة مجرَّدة الى هذه الاسرة الكريمة ترينا ان ايدي الوالدين هي اوَّل مدرسةٍ اساسيَّة لها في مستقبل الحياة تأثيرها الفعَّال في الآداب والاخلاق وفي تكوين العادات الحميدة والتهذيب الديني الكامل. ومهما يكن من مخاطر المدارس المضرة والعشرة الغير المنظَّمة، فهي في حقيقة الواقع اقلّ خطراً من مدرسة الطفولة البيتيَّة اذا لم تكن هذه مؤسَّسة على الدين والتقوى والمثل الصالح في الوالدين.

الفصل الثالث

نشأة جرجي بيطار

في ذلك المنزل الوضيع القائم في الحارة «الجوّانية» بدمشق ولد جرجي بيطار سنة ١٨٤٠ وكان مجيئه الى العالم سبب فرحٍ لوالديه، كما كان فيما بعد سبب بهجةٍ لجميع المرضى والفقراء. غير أننا، لم نتصل الى معرفة تاريخ عماده لسبب اتلاف السجلّات البطريركيَّة كما سبق القول. ولكنّ هذا الامر الواقع لا يمنعنا عن الاعتقاد الراسخ بأن والديه التقيين قدّماه الى المعمودية المقدّسة في تلك السنة عينها.

وبينما كان جبرائيل الطيِّب القلب والسريرة، يضاعف نشاط همته في صنعته، بعد ان انعم الله عليه بهذا المولود الجديد، كانت زوجته التقيّة تشمل ابنها بعطف حنانها وعنايتها[1].

فنشأ جرجي في ظلّ عناية والديه وفي جوٍّ مشبعٍ بالتقوى. ولم يبلغ السنة الثانية من عمره حتى بدأ يرسم على ذاته اشارة الصليب المقدس ويتلفظ باسم يسوع ومريم بنغمةٍ عذبةٍ وابتسامة ملائكيَّة. وما عتم ان حفظ الصلاة الربية بسهولة مدهشة، فأخذ عادة

---

(١) من ذكريات شقيقته مريم.

الصلاة ، وتقدست قواه العقليَّة بتلك العواطف والفِكَر التقويّة التي كانت تلقيها والدته في قلبه وفي حافظته [1] .

وعند المساء ، بعد عودة والده من حانوت شغله ، كانت هذه العائلة المباركة ، تجتمع في بيتها الوضيع ، بحضور بعض الجيران الاتقياء ، لقراءة فصل من الكتاب المقدس ، او سيرة من كتاب سيَر القديسين الذي كان وضعه السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم [2] . فكانت نفس جرجي تتفتَّح كالوردة الصغيرة لتقبُّل ندى التقوى المحيي . ولم يكن منظرٌ اعذب واجمل من رؤيته امام والدته يلقي عليها اسئلةً [3] عن المسيح وامه العذراء بتلك السذاجة التي هي شعار الصغار المعدّين لملكوت السماوات .

ولا يعني هذا ان جرجي كان معصوماً من تلك النقائص المرافقة سنّ الاطفال ولا سيما الانانيَّة الطبيعيَّة الطفليَّة . بيد ان سهر والدته على تهذيبه التهذيبَ المسيحي الكامل لم يقلّ عن سهرها على إصلاح نقائصه فكانت عنايتها به خصيصة ، كأنّ وحياً سرّياً كشف لها ان ابنها هذا سيكون عظيماً امام الله والناس . ولا ريب ان الفضائل العائلية التي نشأ جرجي في جوها ؛ كان لها

---

(١) من ذكريات شقيقته مريم .

(٢) من ذكريات صاحب الترجمة .

(٣) من ذكريات شقيقته مريم .

ذلك التأثير المقدس في مستقبل حياته، فتلك المظاهر التقوية التي اخذ يشاهدها ويفهمها في والديه قد علمته معنى الفضيلة والواجب والمحبَّة المسيحيَّة.

وفي السنة الرابعة [1] من عمره ابتدأ والده يعلمه عادة الصلاة في بيت الله. فكان يأخذه معه الى الكنيسة لحضور القداس والاحتفالات الدينية. وكان هذا الوالد مسروراً بأن يسلمه بعض النقود ليلقيها في الصينيَّة عند ما يمر به وكيل الكنيسة لجمع الحسنات او ليقدمها بيده الصغيرة، للمتسولين المساكين، اثناء ذهابهما الى الكنيسة او خروجهما منها، وعلى هذا المنوال، خلق الاب في نفس ابنه محبة الفقرآء، وانماها بالمثال العملي إذ كانت داره الوضيعة مفتوحةً امام الفقرآء، فكان يراهم جرجي الصغير فيعطف عليهم عطف المحب الغيور.

تلك كانت الحياة المثلى التي تراءت لنفس جرجي في والديه، وقد أقرَّ هو بفضلهما عليه وحفظ لهما ذلك الذكر الصالح الذي لم يفارقه في حياته حتى جمعه بهما في مماته كما سيأتي القول.

على ان اهتمام والديه بتأسيسه على مبادئ التقوى المسيحية الراهنة، لم يذهلهما عن العناية بتعليمه القراءة والكتابة، على قلَّة المدارس في ذلك الوقت. ولم يكن آنئذٍ للطائفة بدمشق غير

---

(١) من ذكريات شقيقته مريم وولده الياس.

المدرسة التي أسّسها السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم. ولئلّا نقصِّر في تصوير هذا الشوط الاول من حياة صاحب الترجمة، ندعه هو نفسه يتكلم عن نفسه بتلك الامانة الصادقة والسذاجة الطيّبة، اللتين عُرف بهما في جميع اطوار حياته قال :

« لقد وضعني ابي اولاً في مدرستنا الطائفية ، ثم ارسلني الى « مدرسة دير الآباء الفرنسيسكانيين بدمشق . وكان في هذه « المدرسة المعلم عبد المعطي مسابكي احد الشهداء المسابكيين « الثلاثة الذين طوّبتهم رومه . وكان هذا معلمي الخاص، وقد علمني « القراءة والكتابة. فكان كل يوم يأخذنا الى الكنيسة لنصلي ونحضر « القداس ولم يكن في الكنيسة بنوكة، فكنا نركع على الحصُر. « وكنت اشاهد معلمنا عبد المعطي ، راكعاً طيلة القداس من اوله « الى آخره، وطيلة الصلوات التي كنا نقيمها، لا يتحرك ولايتوكّأ « الى شيء، وكان منظره يجلب الخشوع الى القلوب ، فصرت منذ « صغري اعمل نظيره ، اذ كان لنا جميعاً مثالاً صالحاً . »

« وكان معلمي عبد المعطي ، يقدم لي كتاباً يتضمن بعض « الاخبار التقويّة ، فكنت ادرسها ثم احضر امامه واقرأها « عليه، وكان هو يصلح لي اغلاطي . وبقيت في هذه المدرسة الى « سنة ١٨٥٦ (١) . »

---

(١) ذكريات صاحب الترجمة .

على انّ تواضع جرجي الفطري قد حال دون تدوينه اقلّ الذكريات عن سلوكه في المدرسة مع زملائه. بيد ان شقيقته مريم لم تغفل عن تتبع نوع سلوكه، فلحظت ميله الغريزي الى مساعدة الفقرآء من زملائه وارشادهم هم وسواهم في طريق الهرب من الخطيئة. فكان ينتهز الفرص ليجمعهم حوله، فيوزع عليهم بعض الاطعمة التي يكون اشتراها لهم، ثم يسير بهم الى مكان منفرد حيث يلقي عليهم كلام المحبة والاخلاص، ويحرضهم على محبة الله والهرب من الخطيئة، ويزوّدهم بالنصائح والارشادات ليكونوا أتقيآء محبين للصلاة ومطيعين لوالديهم.

قالت شقيقته مريم: «ان والدتي كانت تعطي شقيقي جرجي كل يوم بضع نقود ليشتري بها كعكاً ويفطر قبل ذهابه الى المدرسة. فكان جرجي يأخذ النقود ويضعها في «مطمورة» حيث يجمعها لتؤلّف كمية غير يسيرة، ثم يأخذها ويوزعها على الفقرآء او يشتري بها لهم اطعمةً. وكان يسعى ليأخذ حصَّة شقيقه بطرس من النقود، فيضمها الى حصته. لكن والدته كانت تنبهه الى هذا الامر لئلّا يثير غضب شقيقه.

فرَبيَ جرجي على محبة الفقرآء، يذكيها في نفسه حبُّه للسيد المسيح ولا سيما بعد ان تناوله في القربان المقدّس لاول مرة في ذلك الدير. ومن فرط حبه ليسوع، كان يزوره كل يوم في الكنيسة، ويمثل امامه بتهيب وخشوع، كأنه ملاك بهيئة

انسان ، مما لم يخفَ على زملائه ومعلِّمه التقي[١] .

غير انَّ ادمانه التردّد الى المدرسة ، لم يمنعه عن مساعدة والده في صنعته ، فكان في اوقات الفراغ من الدرس يذهب احياناً الى حانوت والده . بيد ان هذه الصنعة لم تكن تلذ له لان ميله الغريزي الى النجارة كان يحمله على ابتداع ذلك الفن الذي اشتهر به . وقد لاحظ والده ذلك الميل ، فتركه ينمو فيه ، ولم يقسره البتَّة على تعلم صنعته .

ولمَّا بلغ جرجي السنة الخامسة عشرة من عمره ترك مدرسة دير الفرنسيسكان . ويجمل بنا ان نورد هنا ايضاً ما دوّنه في ذكرياته قال : « في سنة ١٨٥٦ خرجت من مدرسة الفرنسيسكان « واخذني ابي الى رجل صديق عزيز على قلبه ، كان شغله في « مجلس التجارة وكان اوَّل وأهمّ كاتب بدمشق ، وهو الرجل « الشهير فضل الله سيوفي ابو مخائيل سيوفي . فأتقنت الكتابة عن « يده . وكان يتعلم عنده اربعة اولاد من طائفتنا هم فرج الله « سيُّور وعزيز مساميري وحبيب جنّاوي وانا كاتبه جرجي بيطار « خادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح . وكان فضل الله سيوفي من « اعظم الرجال الاتقيآء . فكان كل يوم يأتي الى كنيستنا بحارة « الزيتون ويحضر ذبيحة القداس الالهي وهو يخدم القداس لان

---

(١) ذكريات شقيقته مريم .

« صوته كان جميلاً جداً . وعند المسآء قبل ان ننصرف الى بيوتنا
« نحن الاربعة ، كان فضل الله يوقفنا بالدار ونصلّي معاً صلاة
« الغروب واحياناً صلاة النوم . وفي كل مرة يذهب هو الى مجلس
« التجارة، كنت اذهب معه حاملاً له كيس الدفاتر ، وبواسطة هذا
« الرجل الفاضل تعلّمت الكتابة جيداً واتقنتها .»

فاذا تأملنا جميع الظروف التي نشأ فيها جرجي بيطار ، ادركنا بسهولةٍ انّ الله تعالى كان يعدّه بعنايته الالهيَّة لأن يكون بدمشق خادماً او بالحري رسولاً للمرضى والفقرآء الذين كان يتمثل بهم إخوة يسوع المسيح . ولعلّه اكتفى بما تلقنه من العلوم الابتدائيَّة قراءةً وكتابةً ليتفرّغ لهذا العمل المسيحي العظيم .

ولقد نمت في نفسه محبَّة القريب وبلغت به الى مستوى عظيمٍ ، ولا غرو فان محبَّة الله التي ملأت قلبه كانت هي الدافع الاوَّل لمحبته القريب بتلك الغيرة والتضحية المعهودتين فيه ، لما بين هاتين المحبَّتين من صلةٍ وتجانس . على أن الامثلة الصالحة التي وجدها في معلميه عبد المعطي مسابكي وفضل الله سيوفي ، وفي والديه التقيين ، قد أثّرت في نفسه الطيبة وطبعت قلبه بطابع الرقة والحنان والعطف . فعُهدت فيه منذ ذلك الوقت محبته الغريزيَّة للفقرآء ، كما عُهدت فيه التقوى الراهنة الدالّ عليها تدقيقه الشديد في حفظ الرسوم الدينيَّة التي تعلّمها ، والعمل

الكامل بوصايا الله والكنيسة ، والمبالغة في اكرام السلطة الروحيّة ورجال الكهنوت الذين كان يعتبرهم رجال الله على الارض .

واذ كان والده يأخذه معه كل يوم لحضور القداس الذي كان يقيمه السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم ، أخذ جرجي يدنو من هذا البطريرك العظيم بدالة بنويّة يلطّفها الاحترام العميق ، فيقتبس تعاليمه وارشاداته الابويّة . وكان يصغي بلهفةٍ واهتمام الى المواعظ النفيسة التي كان يلقيها ذلك الحبر العظيم على الشعب[١] ، ثم يعود الى البيت ، يردّد معانيها في نفسه وامام والديه وزملائه في المدرسة .

ولذلك حفظ جرجي لذلك البطريرك ذكراً وحبّاً قويّين . وكان يروي عنه قصّةً مأثورة ، اوردها البطريرك في احدى عظاته ، ليعطي الشعب امثولةً فعّالة ، في محبّة الفقرآء وفي ضرورة الصبر والاحتمال ، ولعلّ جرجي قصد في ترديد هذه القصّة على نفسه وعلى الآخرين ، أن يجعلها بمثابة دافع قوي يحمله على المبالغة في محبّة الفقرآء والمساكين :

« كان بدمشق امرأة فقيرة الحال . فألحّت يوماً على رجلها ان
« يبتاع لها في احد المواسم طبق حلوى . ولسبب لحاجتها من جهة

---

(١) من ذكريات صاحب الترجمة .

« وطفرِ رجلها من جهة اخرى ، اضطرَّ هذا المسكين الى ان يبيع
« لحافاً ، ليشتري بثمنه مطلوبها . فلما احضر البائع طبق الحلوى الى
« البيت ، وضعه في الغرفة وخرج تاركاً الباب مفتوحاً . وكانت
« الامرأة خرجت لقضاء شغل لها . واذا بكلب غافلها ، فدخل
« الدار وولج الى المربَّع حيث كان طبق الحلوى فالتهمه التهاماً .
« وعادت الامرأة فلم تجد شيئاً واخذت تلطم وتبكي [1] . »

وقد أثّرت هذه القصة في نفس جرجي ، وعلّمته ان الفقرآء والمساكين هم احوج الناس على الارض الى المساعدة . فاشتدَّت محبَّته لهم ، وحين كان لا يتسنّى له العطآء ، كان يطيِّب خاطرهم بكلامه العذب وتعزياته المسيحيَّة .

وكأنَّ ذكاءه في طلب الخير للفقرآء والسعي اليه ، قد ايقظ نبوغه في الفن الذي ابتدعه في النجارة ، ليشبع هيامه « الغريب الفائق التصور في مؤاساة الفقرآء ومسح دموع الباكين [2] » من المرضى والبؤسآء . ففتح بذكائه سبيلاً واسعاً لمساعدة الفقرآء اخوة يسوع المسيح .

---

(١) ذكريات صاحب الترجمة .

(٢) من تأبين الاب نقولا ابي هنا المخلصي لصاحب الترجمة .

الفصل الرابع

نابغة الفن

لم يكن جبرائيل بيطار ، رجلًا مستبدًّا في يقسر اولاده على تعلم حرفته . فلم يتطرّق يوماً الى فكره أن يلزم ولده جرجي باحترافها . وقد أنس منه ميله الفطري إلى النجارة فتركه يسير في طريق نبوغه .

فكان جرجي[1] يتحيّن بعض اوقات الفراغ من الدراسة او من مساعدة والده ، ليذهب الى المدينة ، إلى سوق « الاميلة » فيشتري عُدَد نجارة عتيقة ، ثم يعود الى البيت ونفسه شيِّقة إلى تحقيق ذلك المبدإ الاسمى الذي حمله على الاكتفاء بما احرز من مبادىء القراءة والكتابة ، ليتفرّغ لخدمة الفقراء .

وفي ذات يوم ، لاحظ جرجي ، أن السوس اخذ ينخر باب البيت العائلي . فاشترى خشباً جديداً وابتدأ يشتغل ليلًا في غرفةٍ خاصة ، بينا كان والداه نائمين . وظلّ على هذه الحال حتى فرغ من شغل الباب ، وفي احدى الليالي ركّبه باحكام وهدوء مكان الباب

---

(١) من ذكريات صاحب الترجمة

النَخر . ولما استيقظ والداه ورأيا الباب الجديد ، عجبا من دقة صنعته واتقان هندسته . ولكنّهما لاحظا في سكوت ولدهما جرجي ، دليلًا على تواضعه ، فلم يزعجاه بكلمة . بيد أنَّ والدَه الطيّب القلب لما تحقَّق نجاحه الباهر في النجارة ، فتح له حانوتاً خاصاً .

فتهلّلت نفس جرجي ، إذ فتح امامه سبيلٌ لابتكار فنّهِ ولمساعدة الفقرآء . وفي ذلك الوقت ، لم يكن في حارة النصارى ، نجار غيره . وقد اخبر هو نفسه قائلًا « إن ميلي للنجارة كان قوياً جدًّا جدًّا ، حتى إني اشتغلت فيها لذاتي ، ولم اشتغل يوماً واحداً او ساعة واحدة مع احد النجارين (١) »

ولم يزل يستشير ذكاءه الفطري في هذه الصناعة حتى توصَّل الى ابتكار فنِّ الفسيفساء او التطعيم في الخشب . وكان صيت هذا النجَّار الشاب ، يشيع في دمشق ، ولا سيَّما في اوساط الفقرآء الذين تعزَّوا بأن اوجد لهم الله مورداً للرزق ، في حانوت ذلك النجار الذي قال عن نفسه في إحدى رسائله « إنَّه وقف حياته منذ الصغر لخدمة الفقرآء » .

في اواخر سنة ١٨٥٩ ، استدعاه رئيس دير الفرنسيسكان المعروف بالدير الكبير ، وعهد إليه بصنع خزانة في سكرستيا

---

(١) من ذكرياته

الكنيسة لحفظ بدلات الكهنة ، وغطاء لمنبر الوعظ ، وحاجز امام الهيكل ، وباب لجرن المعمودية . وكان هذا اول عملٍ يقوم به جرجي ، فأحبَّ ان يجيء آية في الاتقان ، اكراماً لبيت الله .

واتفق له ' ان رأى في باحة الدير ، شجرة ليمون يابسة . فقطعها وفحص لون قلبها ، فوجده أصفر كلون «الكورمان» جميل المنظر . ثم نشرها قطعاً صغيرة ، ونزع عنها قشورها وفصَّلها بأقيسة وهيئات مختلفة . وحفر لوحاً من الجوز « الغامق » اللون ، ونزَّل فيه قطع الليمون ، فجاءت جميلة الالتئام . واخذ يتفنَّن في هذا الابتكار ، فصنع من لب الليمون عروقاً وزهوراً مختلفة ، بأشكال هندسيَّة دقيقة تشبه التخريم ، وكان في ابتداء عهده يقطع خشب الليمون ، قطعةً قطعة ، فينزّلها بيده في الجوز المحفور ، حتى لقد كان يستحيل على سواه أن يشتغل شيئاً فيه بعض الشبه بما يشتغله هو .

وقد توصَّل أخيراً بذكائه الطبيعي ، إلى اصطناع « قوالب » من الجوز الصلب ، حفر فيها هيئات بشكل مسطرةٍ ، طولها عشر سنتيمترات وسمكها سنتيمتر ونصف سنتيمتر وربع سنتيمتر ، وبدأ ينشر خشب الليمون او المشمش الاحمر وينزّله في الجوز المحفور ، ثم ينحته نحتاً محكماً ، فيضحي بمتانته كأنه مع خشب

---

(١) من ذكريات صاحب الترجمة

الجوز شيء واحد .

ومن شدة هيامه بفنِّه الجديد ، كان يشتغل فيه حتَّى بعد العشاء وكثيراً ما كان يتفق له ان يشتغل الى ساعات متأخرة من الليل ، وينسى ذاته الى الصباح ، اذ يقرع ناقوس القداس الاول وحينذاك كان يتنبَّه ، فيترك شغله ويذهب لحضور الذبيحة الالهية[1]

وقصارى الكلام ان جرجي بيطار ، قد ابدع في ابتكار هذه الصناعة كل الابداع ، ولا غرو فانها من نتاج « عقله الكبير ، وذكائه الثاقب ، وخياله الواسع[2] » واتقانه الطبيعي المدهش ، الذي هو صورة حقَّة ، لذلك الاتقان الأدبي الراسخ في نفسه .

ولم يكن شيء أحبَّ اليه من الانصباب على هذه الصناعة الجميلة التي قدَّم باكورة بدائعِهِ فيها الى الكنيسة بيت الله ، وكان يشتغل ضمن جدران ذلك الدير الهادىء ، مستنيراً بايمانه الحي ، ومتقوياً بذلك النشاط الذي يوليه ابتكار الصناعة ، ومسروراً بأنَّه يعمل لمجد الله وتزيين معابده .

وفي ذلك الدير عينه ، كانت نفسه تنمو في التقوى ، بالامثلة الصالحة التي كان يشاهد أمائرها في رهبانه وفي

(١) من ذكريات صاحب الترجمة

(٢) الاب نقولا ابي هنا المخلصي في تأبين صاحب الترجمة

المسابكيين الثلاثة ولاسيما معلّمه عبد المعطي . وقد دهش سكان هذا الدير من تقوى جرجي الراهنة ، والمقرونة بنبوغه ، ومن ايمانه الحيّ عند مثوله كل يوم امام القربان المقدس بخشوع الملائكة وورع القديسين . واذ كان يعود من الدير الى بيت والديه ، كان الفقراء يعترضون له في طريقه ، فينظرون اليه نظرات الامل والطمأنينة ، فيوزع عليهم بعض ما يكون جمعه في جيبه لمساعدتهم .

وقد لُحِظَ ، وهو في شبابه اللامع ، واثناء تردده الى اسواق المدينة ، ان تقواه ، لم تكن تلك التقوى المتحجبة في جوها الداخلي ، المتخوفة من الاصطدام بالجلبة الخارجية ، بل كانت هي الركن الراسخ في اعماق قلبه وعقله ، والمبدأ الحيوي المتأصل فيه منذ صغره ، لذلك يمكننا القول الصريح ، ان شعار تقواه كان متلألئاً ، سوآء في حياته الداخلية والخارجية . فكان يقابل الناس ولا سيما الشبان منهم ، بنكاته الظريفة ، وابتساماته اللطيفة ، ولا يفوته ، احياناً ، في مثل هذه الظروف ، ان يتلفظ امامهم بكلام مقدس ، يحثهم به على التقوى والفضيلة ، وعلى الهرب من الخطيئة ، دون ان يشعر سامعوه بسأم او نفور . واذ كان يقصد البعض منهم ان يروا نموذجاً من صناعة الفسيفساء التي ابتكرها ، كان يعرف بلطف وذكآء ان يحول اعجاب المعجبين بصناعته الى امثولة حسية يلقيها عليهم في التدقيق

الكامل الذي يجب ان تكون عليه النفس في علاقاتها مع الله عزّ وجلّ.

وكان يذكي نشاطه في العمل الذي عهد به اليه باعتقاده المسيحي انه يشتغل لله فيزداد بهذه الفكرة التقوية همّة وغيرةً. بيد ان اخبار الفتن والثورات أخذت ترد الى دمشق، فتلقي في قلوب اهليها الاضطراب والذعر، ولم يمضِ زمن حتى كانت ثورة الستين تضطرم نارها في دمشق عينها. فاضطر جرجي الى ترك عمله في الدير المذكور. واول ما تطرق الى فكره، حين بلغه خبر الثورة، انها تأديب من الله قصاصاً لخطايا البشر. والظاهر الجلي، ان الله حفظه في هذه المحنة، بعنايته الخاصة، ليكون رجل البر والاحسان ورسول الخير والسلام.

الفصل الخامس

ثورة السنة الستين — حوادث استشهاد

ندع صاحب الترجمة يقص علينا أخبار هذه الثورة الدامية، بصدقه المعهود، ووصفه الدقيق واسلوبه اللطيف[1]:

« في شهر حزيران سنة ١٨٦٠ كنت اشتغل في الدير الكبير،
« فوصلت الى دمشق اخبار المذابح في جبل لبنان. وهبط اليها

(١) من ذكريات صاحب الترجمة بخط يده.

« عدد كبير من نصارى حاصبيًا وراشيا . وهاج بعض الرعاع في
« دمشق على المسيحيين ، وتهددوهم بسفك دمائهم ونهب
« بيوتهم وكنائسهم .

« أمَّا نحن النصارى ، في الشام ، فكنَّا بالكنائس ، نقيم
« الصلوات والابتهالات الى الله ، لكي يرحمنا ولا يهملنا كما أهمل
« أهالي ديرالقمر وزحلة وراشيا وحاصبيًا ، فان عدداً كبيراً من
« الذين نجوا من المذابح هناك هربوا الينا وسكنوا عندنا في
« المدرسة وحوالي الكنيسة والبطركخانة والانطوش[1] .

« وكانت تلك الايام عندنا اشد سواداً من الفحم ، وكنَّا
« نكثر الصلوات ، ولا سيا صلاة البركليسي وكانت الكنائس
« غاصة بالشعب ، والدموع تنزل من عيوننا كالامطار ، وكنَّا
« ننام ونفتكر دائماً أنَّنا لا نشاهد الصباح كما جرى لكثيرين من
« امثالنا .

« وكان الرعاع بدمشق ، يرسمون الصلبان على الارض ،
« ويقولون للنصارى : تعالوا ، ادعسوا هذا الصليب . وكنَّا
« نتوقع المحنة ، قصاصاً لخطايانا ، من وقت الى آخر . فرأيت في
« تلك الاحوال المضطربة ، أن اصنع مختبئاً في بيتنا بالحارة
« « الجوانيَّة » . فكان يوجد في احد مربَّعات البيت غرفة ، يدخل
« اليها من باب ، في صدر المربَّع ، والى جانبي الباب كتيبَّة من

(١) سكن الرهبان المخلصيين الذي في حارة الزيتون

« اليمين و كتبيّة من اليسار . فأبطلت الباب الوسطاني ، وجعلته
« كتبيّة كالتي الى جانبه .

«فأصبح منظر الحائط كأنه مسدود مع انّ فيه ثلاث كتبيّات
« كما يلاحظ ذلك في غرف كثيرة من بيوت دمشق ، بحيث لا
« يخطر ببال احد ، أنّ ورآء تلك الكتبيّات فراغاً كبيراً ، يسع
« عدّة اشخاص . ثم جعلت احدى الكتبيّات تنفتح وتغلق ،
« نظير باب خفي بحيث يستحيل الانتباه الى ما ورآءها .

« وكان بالقرب من بيت والدي ، بيت كبير لاحد مشايخ
« العرب ، كان متزوجاً بسيدة انكليزية . ولهذا البيت ، جنينة
« واسعة ، تدعى « جنينة الست » . وكان بين الشيخ المذكور وبين
« والدي صداقة عظيمة .

« فنهار الاثنين الواقع في ٣ تموز ، بعد الظهر ، اذ كنت مع
« والدي في حانوته ، رأينا الفلاحين يعودون الى مزارعهم مهرولين
« وهم يصيحون : « قامت البلد » ! وللحال التجأنا الى بيت الست
« التي كانت تحبنا كثيراً . وفي تلك الساعة عينها هجم الثوار على
« حارات النصارى . واخذوا ينهبون ويحرقون ويقتلون . ودبّ
« الخوف في قلوب المسيحيين حتى انّ الحبالى ولدت من شدّة الذعر .

« وكان عند الست رجل يخدمها ، بصفة قوّاص واسمه احمد
« القوّاص ، من اهالي مسجد الاقصاب . وقد انضم الينا في
« بيت الست اثنان يدعيان يوسف عازار ويوسف كنعان .

« في اليوم التالي جاء القوّاص ، وقال لنا : إن أهالي مسجد
« الاقصاب ، يفتشون عن النصارى ليذبحوهم وانهم مستعدون
« لاقتحام جنينة الست ، لسماعهم انه يوجد فيها نصارى ، وانه
« من الضروري لنجاتهم من الهلاك أن يغادروا الجنينة ، ويتسلقوا
« الحائط ، إلى بستان الباشا الذي بجوارها .

« فوثقنا بكلام هذا الرجل . وبدون ان نعلم الشيخ او
« الست ، خرجنا الى بستان الباشا ، وكان فيه عليقة كبيرة ،
« فوق ساقية ماء ، وفي وسط العليقة فسحة كبيرة على جانبي
« الساقية .

« فقلت لوالدي وللرجلين اللذين كانا معنا : تعالوا نختبئ تحت
« هذه العليقة . فرفعنا العليقة ودخلنا تحتها . ثم جاء الينا رجل ،
« فرفع العليقة قليلاً ، ولكني لمحته حالاً ، وكان يسرع ليستدعي
« عصابته للفتك بنا . فقلت لرفاقي : إنّا هالكون اذا بقينا هنا
« دقيقةً واحدة .

« فانتفضنا جميعنا ، وبأسرع من لمح البصر ، قفزنا الحائط ،
« الى جنينة الست ، جنينة الأمان ، وبعد فرارنا وصلت العصابة
« الى العليقة المقصودة ، فلم تجد احداً . وكانت الست صاحبة
« الجنينة ، شعرت بغيابنا واخذت تفتش عنا فلمّا رأتنا بعد عودتنا
« اليها ، ابتهجت كثيراً ، وسألت اين كنّا . فاخبرناها بما جرى .
« فقال لنا الشيخ : لا تخافوا ! فقبل ان يتجاسر احد ان ينزل

« بكم سوءًا ، يجب ان يفتك بي ليصل اليكم . ثم استدعى
« بعض غلمانه وبثّهم في الجنينة ليترصّدوا الثائرين .

« أما والدتي ، فكانت في بيتنا ، بالحارة « الجوانية » مع
« شقيقتي مريم وشقيقي بطرس المرحوم وكان طفلًا رضيعاً . ولما
« ابتدأت الثورة ، ذهب بعض رجالٍ من الاهل والجيران ، إلى
« المختبأ ، الذي كان في بيتنا ، وكان عددهم ثمانية عشر رجلًا ،
« وهم من آل مباردي وقاضي ومعري واختبأوا هناك .

« فدخلت عصابة من الثوار الى البيت فلم يروا فيه إلّا والدتي
« وولديها . ثم ولجوا المربّع واخذوا يجدِّفون ويلعنون ، ويتهددون
« وكانت ساعة رهيبة ونهبوا وانصرفوا ، ولم يمسوا والدتي باذًى .

« وبعد ثلاثة ايام قضاها اولئك المساكين في المختبأ ،
« خرجوا من هناك ، ووضعوا عمائم بيضاء على رؤوسهم ، وهربوا
« ليلًا الى القلعة ، بواسطة زلم الامير عبد القادر المغربي الذي كان
« يأمر بجمع المسيحيين واخذهم الى بيوته لحمايتهم من القتل . ولا
« ينكر فضل المرحوم نقولا بك سيوفي ترجمان فرنسا الذي خدم
« المسيحيين احسن خدمة الله يرحمه ويرحم الامير عبد القادر .

« وكان امتدّ الحريق في حارة النصارى حتّى قارب بيتنا .
« وكانت والدتي واقفة في الباب تنتظر الفرج من رب الفرج . فمرّ
« بها رجل من مشايخ الاسلام الكرام يدعى ابن شيخ الارض ،
« وبصحبته خادمه . فقال لها : لماذا انتِ مقيمة حتّى الآن في

« البيت ؟ اصعدي يا اختي الى السطح وانظري النار تندلع من
« كل الجهات ، فعن قريب تصل اليك . قومي يا أختي ، حتى آخذك
« الى بيت احد الاسلام الذين تعرفينهم . فقالت له : نحن اصحاب
« بيت الشيخ سعيد العطار ، بالحارة التي قرب الجامع الاموي ،
« فخذني الى هذا البيت ، والله يطول عمرك ويكافئك عنا . فأجابها
« ابن شيخ الارض ، هيئي بقجة ثياب لطفلك هذا « هو المرحوم
« بطرس بيطار » لانك بحاجة اليها . فحمل هو الطفل والبقجة
« وتبعته هي مع شقيقتي مريم . ولقاء هذه الخدمة أخذ ابن شيخ
« الارض من بيتنا بسماح من والدتي ، خمس دجاجات كانت عين
« خادمه لعبت عليها .

« وفيما هم مارون « بالقيمرية » وجدوا رجلاً مسيحياً ، كان
« قد أسلم ، ولف على رأسه العمامة البيضاء . وكان الثوار
« يسوقونه امامهم ، وهو حامل أسلابهم الكثيرة . فدخلوا به الى
« قهوة الشاويش في مصلّب القيمرية . ثم استل أحد الثوار
« سيفه ، وضرب ذراع الرجل المسيحي الجاحد فقطعها . واخذ
« الرجل يبكي ويرجو العفو لانه أسلم . وجاء شيطان آخر وبتر
« ذراعه الاخرى ، وشيطان آخر قطع رجليه فأصبح المسكين
« خمس قطع .

« وقد جرى هذا المشهد ، على مرأى ومسمع من والدتي .
« فقال لها ابن شيخ الارض امشي يا اختي ! امشي ! الله اكبر ! الله

« اكبر على هؤلآء الناس !

« ولما وصلت والدتي ، الى بيت الشيخ سعيد العطار ،
« وجدت هناك كل عائلة الجهلان ، من رجال ونساء ، نحو
« اربعين شخصاً . وقد اتصل بالثوار ، ان الشيخ سعيد يلتجيء
« اليه عدد كبير من النصارى ، فكبسوا بيته ، وطلبوا منه ان
« يدفعهم الى ايديهم . فحلف لهم بالطلاق ، انه لا يوجد عنده
« نصارى ، فانصرفوا عنه .

« ومنذ ابتداء الثورة ، قصدت شرذمة من الثائرين الى
« سفل التلّة . فصادفوا فرناً لاحد النصارى ، باسم فرن حنا
« الاشقر . ووجدوا على باب الفرن ، أحد الصنّاع ، فانقضوا على
« هذا المسكين ، ورفعوه من رجليه ، وزجّوه في الفرن المتأجّج ،
« ثم اقفلوا باب الفرن ، وانطلقوا فرحين بهذا الشوآء ! وانتقلوا
« من هناك يواصلون السلب والقتل ، والتقوا ببيت الشّماع .
« وكان من هذا البيت رجل شاب ، مشهور بالقوّة البدنيّة
« والشجاعة . فتدجّج بالسلاح ، واختبأ تحت درج البيت ، دون
« أن يشعر أحد بوجوده . وكان لهذا الرجل امرأة جميلة المنظر ،
« وقد ابقاها في البيت اعتقاداً منه ان اولئك الثائرين لا
« يتعرضون للنسآء . فدخلوا البيت ، واذ لم يجدوا فيه رجلاً ،
« انقضوا على الامرأة المسكينة ليفترسوها . فشاهدهم ابن
« الشّماع ، من ثقب صغير في مختبئه . فآلمه المشهد ، وهاجه ،

« فانقضَّ عليهم نظير الاسد الزائر وقتل منهم عدداً كبيراً ثم قُتِل
« هو أشنع قتل .

« وكان في دخلة جوهر قبالة حارة الخضر بيت
« صهري نقولا المعروف بأبو الياس مساميري . وكان لهذا
« البيت بابٌ ثانٍ من حارة الراتمي التي كان فيها بيت المدعو
« نقولا فرح . ففي اليوم الثاني من الحادثة ، الثلاثاء ٤ تموز ،
« نزل فريق من اخواننا مسلمي الميدان الى المدينة ، وخلصوا
« عدداً من اصحابهم المسيحيين بارسالهم مخفورين الى الميدان .
« وكان بين نقولا المذكوروبين البعض من اعيان الاسلام صداقة
« قوية . وبواسطتهم كان هو ايضاً يرسل الى الميدان المسيحيين
« الذين تجمعوا في بيته .

« ولما سمع بذلك عمي يوسف بيطار قصد الى بيت نقولا
« مساميري ليحمله على الذهاب معه الى الميدان فلم يقبل نقولا
« بهذا الاقتراح اعتقاداً منه ان المسيحيين المرسلين الى الميدان
« كانوا يقتلون هناك . فهرب من بيته الى حارة الراتمي ومنها
« الى حارة المسبك البراني حيث وجد خمسة رجال اصحاب
« من سوق البزورية . فلما رأوه قالوا له : الحمد لله انا عثرنا عليك
« يا ابو الياس ، فقد جئنا نسأل عنك ، لنأخذك الى بيتنا ، ونخلصك
« من القتل . ولكن ، لكي نقدر ان نخلصك ، يجب ان تصير
« مسلماً ولو ظاهراً . حتى اذا رآك احد السفاكين فتقول له

« بلسانك فقط : انا مسلم . فقال لهم ابو الياس : هذا غير ممكن
« لاني مسيحي . فأخذوا يتضرعون اليه بقولهم : دخيلك !
« يا صديقنا ابو الياس ! ما عليك شيء اذا قلت بفمك انك مسلم
« وبقيت مسيحياً في قلبك . فكان جوابه اليهم انه ركع على
« الارض حيث كانوا ورسم على ذاته اشارة الصليب المقدس قائلاً
« علناً : « انا مسيحي » . وكان على مقربة منه اناس يشاهدون ما
« يجري امامهم ، ويسمعون اعتراف ابو الياس بالدين المسيحي .
« فهجموا عليه بالبلطات والسيوف . ولكنهم اكراماً لخواطر
« اخوانهم الذين كانوا معه لم يقتلوه حالاً بل طلبوا منه ان يصير
« مسلماً فاستمهلهم ثم صلى قليلاً وقال علناً : « انا مسيحي »
« فاعملوا بي ما تشاؤون . ولم ينتهِ من اقراره هذا حتى انهالوا عليه
« بضربات البلطات والسيوف فخطبوا جسمه كانه عود من حطب
« فطارت نفسه الى الفردوس السماوي لتتمتع بتلك السعادة
« السماوية صحبة الشهداء القديسين الى ابد الآبدين آمين . وتلك
« الارض التي ركع فوقها قد شربت دمه ، وانا كل مرة كنت
« امشي على هذه الارض ، اقف واقبلها لانها شربت دم شهيد
« كان في حياته من اتقى الاتقياء .

« وقد شهدت هذه الحادثة ، خالتي روزا حوس ، وكانت من
« النساء التقيّات جدًّا ، فحضرت الاستشهاد من اوله الى آخره ،
« وسمعت كلام الثوار ، واجوبة الشهيد ، ثم جاءت اليَّ حالاً

« وبيّنت لي بالتمام كيف قتلوه .

« وكان الخوري رافائيل زلحف المخلّصي ، موجوداً في بيت
« نقولا مساميري بالخضر ، حين وقوع الحادثة . ولما فرغ الثوار من
« قتل ابو الياس ، ذهبوا الى بيته لينهبوه ، فصادفوا الخوري
« رافائيل زلحف في الدهليز فضربوه على رأسه ، وطرحوه بين
« حيٍّ وميت ، ثم خلعوا باب الدار وألقوه فوق الخوري ،
« وطفقوا يدخلون البيت ويخرجون منه ؛ وهم يدوسون الباب
« الملقى فوق الخوري كلما دخلوا او خرجوا .[1] »

ويجمل بنا ، اتباعاً لحوادث هذه السنة الدامية ، ان نورد
هنا ما دوّنه صاحب الترجمة بخط يده بشأن الشهداء الفرنسيسكان
والمسابكيين الثلاثة قال[2] : « أتانا من رومة[3] وكيل سيدنا البابا
« ونزل بدير الآباء الفرنسيسكان . ثم عقدت اجتماعات كثيرة
« وتشكلت لجنةٌ من الخوارنة ليفحصوا استشهاد المسابكيين .
« فقالوا إنَّ جرجي بيطار هو اقدم واحدٍ بدمشق . ولعلّه يعرف
« المسابكيين . فاستدعوني إليهم واجتمعت بهم ثم وضعوا امامي
« كتاب الانجيل وقالوا : ضع يدك على هذا الكتاب المقدّس
« وتكلّم بكل ما تعرفه عن احوال المسابكيين فقلت انا اعرفهم
« بالتمام كما اعرف رئيس هذا الدير ، العجوز ، الاب كرملو

---

(١) ذكريات صاحب الترجمة (٢) ذكريات صاحب الترجمة
(٣) ايلول سنة ١٩٢٦

« ورهبانـه السبعة الفرنسيسكانيين الذين منهم الاب ملّاك
« المشهور . وهذا الدير كان فيه مدرسة ، وكان المعلم الاول فيها
« عبد المعطي مسابكي ، احد المسابكيين الشهداء . وانا كنت
« ولداً كبيراً لما دخلت هـذه المدرسة وتعلّمت عنده القراءة
« والكتابة . وكان الرئيس الاب كرملّو يعلِّمنا اللغة الطليانيّة
« وتعلّمنا من هذه اللغة كم كلمة . والى الآن اعرف منها شيئاً .

« وكان لهذا الدير بابان صغيران من حديد . فكثير من
« المسيحيين ، في حادثة السنة الستين ، التجأوا الى الدير خوفاً من
« القتل . أمّا الثوار ، فاذ لم يقدروا ان يدخلوا الدير لان الابواب
« كانت مغلقة ، دخلوا بيوت الجيران وصعدوا الى السطوح ،
« ومنها نزلوا الى الدير وقتلوا من كان مختبئاً فيه مـع الرهبان
« القديسين والمسابكيين ، الذين قبل ان يقتلوا تناولوا القربان
« المقدس . وقد تطايرت نفوسهم الى الفردوس السماوي بعد ان
« سفكت دماؤهم وتقطعت اجسادهم بالبلطات والسيوف[1] .

---

(١) كان جرجي بيطار، دون في مذكراته الخاصة، حوادث كثيرة غير التي ذكرنا ، ولكن تلك الذكريات الثمينة ، قد اتلفها ابان الحرب العظمى ، ابنه الياس خوفاً على حياة ابيه من جمال باشا الطاغية السفاح . لانه كان يسمع كل يوم ان الاتراك سيفتشون المنزل بعد ان فتشوا منزل خاله سيادة المطران نقولاوس قاضي ، المعروف بولائه لفرنسة ، والذي كان في ذلك الحين موقوفاً في السجن . ونحن مع اسفنا على هذه الخسارة نحمد الله على نجاة جرجي من يد ذلك الظالم

« وقصارى الكلام إنَّ جميع حارات النصارى بدمشق، من
« الخراب حتى باب شرقي ومن القيمرية الى باب توما قد التهمتها
« النيران مع كنائسها ولم نعد نشاهد في تلك المساحة السوداء
« سوى مداخن البيوت لانها كانت من حجر [1] . »

فبعد ان سكنت تلك العاصفة الهوجاء ، عاد جبرائيل بيطار مع امرأته واولاده الى بيته ، في الحارة « الجوانيَّة » ، واخذ في ترميمه . وكان حضر الى دمشق الوزير فؤاد باشا لتهدئة الاحوال ، وارجاع النظام . وقد اصدر هذا الوزير اوامره بتوزيع الخبز على المسيحيين المنكوبين . بيد ان الخبازين ، احتالوا على ان يأخذوا من الحكومة الدقيق الابيض النقي ، ليبدلوه بالدقيق الاسود المخلوط ويصنعوا منه خبزاً للمسيحيين .

فدبَّت حميَّة الغيرة في صدر جبرائيل بيطار ، وتناول رغيفاً من هذا الخبز الاسود ، وذهب يوم جمعة ، الى الجامع الاموي ، حيث كان الوزير المذكور يؤدي فريضة الصلاة . وانتظر جبرائيل ريثما خرج الوزير من الجامع ، فتقدَّم اليه بجرأته المعهودة ، وقدَّم بين يديه نوع الخبز الموزع على المسيحيين ، خلافاً

الذي كان يقتل في شبهة . ولاسيما لان السنين التي قضاها الفقيد بعد الحرب اظهرت كنوز مناقبه الصالحة واتاحت له ان يكتب ذكريات اخر لا شك انها اثمن من الاولى في ما يتعلق بحياته .

(١) من ذكريات صاحب الترجمة .

لأوامره . فغضب الوزير ، وشدّد في أوامره على الخبّازين ان يقلعوا عن خبثهم واطماعهم ، ويوزعوا على المسيحيين خبزاً نقيّاً ابيض[1] .

فالذي يتأمّل تلك الحوادث الدامية ، وما رافقها من ظروف المخاطر يدرك بسهولة ان عناية الله تعالى كانت ترافق جرجي بيطار وانها هي التي حفظته لاتمام مقاصدها فيه . وقد هاله مشهد الفقرآء المتشرّدين هنا وهناك فاضطرمت في نفسه غيرة المحبّة وقال : « لقد كثر الفقرآء اخوة يسوع المسيح فعلينا ان نساعدهم . » واتفق في هذا الامر مع والديه التقيّين . على انّ شعور قلبه الحسّاس ولطف عواطفه المسيحيّة ازآء مشاهد الالم المتجلّية امام عينيه في صفوف الفقرآء والمنكوبين كانا له هو ايضاً مصدر الم وتحسّر ومنذ ذلك الوقت جدّد في نفسه وَقْف حياته على خدمة الانسانية المتألمة .

الفصل السادس

الصحو بعد العاصفة

« جندية المسيح على الارض » او جمعية مار منصور (سنة ١٨٦٣)

كانت ثورة السنة الستين وبالاً على مسيحيي دمشق عموماً وعلى حارة النصارى خصوصاً . فلقد سيطرت الفاقة المؤلمة على الذين نجوا من فتك السيوف ، وتشتّت المنكوبون في احيآء

(١) في المحل نفسه .

دمشق ، وهجر المدينة عددٌ كبير من ابنـآء الطائفة وسواهم ، الى الاقطار الفلسطينية واكثرهم الى الاقطار المصريّة .

على انَّ النعمة الالهية[١] التي القت في نفس جرجي بيطار بذار الغيرة والمحبة ، منذ صباه ، قد جعلت من هذا الشاب رسولاً نشيطاً ، لنشر الخير والاحسان ، واعدته لاشرف واجمـل رسالةٍ على الارض ، هي رسالة المحبَّة الشاملة . ولقد أبكاه مشهد الالم المحسوس ، البارزة آثاره ، بعد تلك المأساة ، في الدمآء المتجمّدة ، والجثث المبعثرة ، والمنازل المتهدّمة الفاحمة ، وفي الفقرآء الجائعين ، الجائلين كاشباح مخيفة ، وقد ارتسمت على وجوههم صفرة الموت الكامن . فاضطرمت في نفسه نار محبته الفطريّة للفقرآء والمساكين ، إذ انبسط امام ايمانه الحي ميدان العمل والجهاد في سبيل القريب ، ذلك الايمان الذي قطن في اعماق نفسه منذ العماد ، ولم يزل ينمو حتّى بلغ به الى اسمى درجات المحبّة ، اعني التجرد الذاتي الكامل ، فوقف حياته لخدمة الغير وقفاً لم يُخلِفْ به حتى آخر يوم من حياته .

هذا هو جرجي بيطار ، الشاب النابه في العشرين من عمره ، الواقف في معترك الحياة ، لخدمة خالقه ، بخدمة اوضع فئة تمثـله تعالى على الارض ، اذ سمّى افرادها الكثيرين إخوةً له . وقد فهم

---

(١) اعتمدت في هذا الفصل على الروح البـادية في رسائل صاحب الترجمة .

جرجي ان محبّة الله على هذه الفانية ، لا يمكن ان يقوم عنها دليل اقوى من محبّة القريب الكاملة ، متخذاً من محبّة السيد المسيح للبشر ، أعظم برهان واوقع مثال ، حمله على التأسّي به تعالى في المحبّة ، ولذلك نسي نفسه ، واستعدّ لان يكون حجراً مختاراً في تلك المدينة السرية التي يبنيها اولئك الذين يحبون الله محبّة كاملة تبلغ بهم الى التضحية بنفوسهم على مذبح محبّة القريب .

وكان مغتبطاً اعظم الاغتباط بهذه الرسالة التي دعي إليها ، حتّى إنّها تسيطرت على قوى نفسه وأضحت موضوع افكاره وآماله واعماله ، إلى حدّ انّه لم يعد يفكِر بسواها ، فكان يشتد فرحه بها باشتداد الحاجة والفاقة ، وتتضاعف همّته في بذل الخير والاحسان ، بمختلف الوسائل والذرائع ، واهمّها المبالغة في تقديس نفسه ، اعتقاداً منه ان المصائب والمحن في هذه الحياة ، إنّما هي قصاصٌ من الله عن خطايا البشر ، فكان يتقدّس بالاكثر ، ويحمل الغير على التقوى والصلاح ليكفّ الله ضرباته .

ولمّا كانت محبة الله هي اول الوصايا واسمى الفضائل كلها ، فقد عرف جرجي ان يحب الله اولًا ولكن عن طريق الكفر بنفسه والتقرّب من الله تعالى بالعبادة والتقوى . ولكي يتوطّد في نفسه ذلك التقرّب ويرسخ فيه ، قد اتّخذ مريم العذراء ، والدة الاله ، شفيعةً خاصة له فجدّد اشتراكه في اخويّة سيدة

البشارة التي كان قد أسسها بدمشق السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم ، وانتظم جرجي في سلكها منذ سنة ١٨٥٤ ، وكان هو في مقدّمة الساعين لاعادة تأليفها ، بعد أن تبدّد اعضاؤها إبَّانَ الثورة . فجعل نفسه عبداً خاصاً لهذه السيدة المجيدة ، يستنجد بها بثقةٍ وايمانٍ كما يستنجد الولد بوالدته . وقد كتب في احدى رسائله معبراً عن عبادته القديمة والثابتة لمريم البتول قائلًا : « أيتها السيدة العذرآء ، اني منذ صباي كرست نفسي لك ، وصار لي خمس وسبعون سنةً مشتركاً في أخويتك . »

وقد جمع الى محبة الله والتعبد للبتول محبة شديدة لوالديه ، ولم يكن يحبهما فقط عن واجب المحبة المقرون بشعائر الهيبة والاحترام بل أحبهما ليتخذ من محبتهما ذريعةً لانتشار محبته الشاملة ، بمساعدتهما له في خدمة الغير . والحقّ انه كان سبب فرح لوالديه اللذين تعجبا من بوادر غيرته المسيحيَّة ، ومن سلام نفسه وتواضعه ودعته . فكان خلقه معهما ومع غيرهما ، متساوياً في أمائره واطواره الهادئة ، وممزوجاً بسذاجةٍ طبيعيَّة لذيذة .

وقد ارتفعت به هذه المحبَّة الى اسمى درجاتها فتمثلت باوضح مجاليها في عطفه على اشخاص الفقرآء والمرضى ، على اختلاف فقرهم وحاجاتهم وامراضهم ، الى حدٍّ أنّهم اخذوا يرون في هذا الشاب ، بابتسامته العذبة ، وحلاوة حديثه ، وكرم نفسه ، وطيب عواطفه ، مورداً لحاجاتهم ، وتعزية لهم في اوجاعهم .

فهذه الفروع الثلاثة من المحبَّة كان مصدرها واحداً في نفسه الفتيَّة ، وهو محبَّة الله التي ملأت كيانه منذ صباه ، كما شهد بذلك اباء الدير الكبير الذين دهشوا من تقوى الشاب جرجي بيطار ومن خشوعه النادر . ولم تكن فيه تلك المحبَّة محبَّة عاطفة او شعور ، بل محبةً عمليَّة قوامها التقوى والفضيلة وعمل الخير .

على ان هذا المبدأ السامي ، أعني مبدأ المحبَّة ، كان هو الدافع الاول الذي حمله على ان يؤسس في دمشق مركزاً لصناعة النجارة واتقان فن التطعيم في الخشب ، أو الفسيفساء ، الذي ابتدعه . ولم يكن يقصد من هذا التأسيس سوى ان يجعله مورداً يرتزق منه لمساعدة القريب اشباعاً لنزعات محبته المضطرمة . فاستدعى أشدهم ميلاً الى النجارة ، وفضَّل الفقراء منهم ليخفف عنهم وطأة الفقر ، فذاع بدمشق صيت هذا الشاب النجَّار المحب الفقراء ، جرجي بيطار .

وفي ذلك الوقت ، بعد هدوء العاصفة ، أخذ اهالي دمشق بترميم منازلهم واصلاح شؤونهم ، وكان جرجي قبل السنة الستين قد بدأ يشتغل في دير الاباء الفرنسيسكان فاستدعاه رئيس الدير لاستئناف العمل ، وهناك ظهرت لاول مرّةٍ بدائع فنّه المدهشة . وقد كتب هو عن نفسه قائلاً : « اني اشتغلت نجارة الدير كله ، وكنت ارفع اثقالاً قويةً [1] . »

(١) من رسائله بخط يده .

والحق ان جرجي بيطار كان قوي البنية ، جريء الصدر ، فكان ينصب حبلًا متيناً ، في سقف الدير وسقف كنيسته ، ويصعد على ذلك الحبل وينزل ويتنقل عليه من ناحية الى اخرى ، توفيراً للوقت الذي كان يستغرقه بناء الصقائل ، واسراعاً في العمل . فكانت جهوده هذه سبباً لما ابتلي به في شيخوخته من بعض العاهات المؤلمة [1] .

وبعد ان فرغ من الشغل في ذلك الدير ، صرف عنايته الى ترميم وتزيين كنيسة الطائفة الكاتدرائيَّة ، بحارة الزيتون ، الحاوية الآن من بدائع فنِه ما يشهد له بالتفوق وجمال التصوُّر . فقد « اشتغل فيها الكرسي البطريركي في الخورص ، وكرسياً آخر للبطريرك داخل الحنيَّة مقابل الهيكل الكبير ومنبرين في وسط الكنيسة ، لقرآءة الانجيل والقاء الوعظ على الشعب [2] . »

وبينما كانت الجماهير تُشيد باسم جرجي بيطار ، معجبةً بفنِه ودقة صنعته ، كان هو يصمُّ اذنيه عن سماع كلمة مديح او اعجاب ، ويستتر في تواضعه غير مهتمّ بسوى ازدياد مورده ، ليسدَّ حاجات الفقرآء واقبل اليه الكثيرون ، فاضطرَّ الى توسيع دائرة شغله وزيادة عُمّالهِ . فتهلّلت نفسه بما جنت يداه في سبيل الفقرآء . ويمكننا الجزم بأنَّه اقنع والده بأن يترك حينئذٍ مهنة البيطرة ، مستريحاً من

---

(١) من رسائله . (٢) من ذكرياته .

عنائها ، ليتكل على ذراع ابنه ، ويتفرغ لمساعدته على الاهتمام بالفقرآء ، الذين كان يكثر الصلوات من اجلهم ليفتح الله امامهم سبيل الخير .

وقد استجابه الله عزَّ وجلَّ بان ارسل الى دمشق سنة ١٨٦٣ مَن أسس فيها جمعيَّة مار منصور . ولنترك له ان يصف لنا في احدى كتاباته تأسيس هذه الجمعية قال :

« في سنة ١٨٦٣ اتى من بيروت الى دمشق ، الرجل الغيور
« على تكثير الجمعيَّات الخيريَّة الخواجا ريشار الفرنساوي . واسَّس
« عندنا جمعيَّة مار منصور . فانتخب رجالاً من كل الطوائف
« الكاثوليكيَّة ، فأُنشئت الجمعيَّة وتنظمت بقانون خاص ، وكنت
« من اول المشتركين فيها . واخذنا نفحص عن الفقرآء وكان
« عددهم كبيراً جداً . وترتَّبت لهم المساعدة مرَّة في الاسبوع ،
« وكان اعضاء الجمعيَّة اثنان اثنان يزورون العيال الفقيرة
« ويقدمون لها المساعدة المعينة ، ويعزونها مستفحصين عن
« احوالها الروحيَّة والزمنيَّة ويأخذون الاولاد الى المدرسة . وانا
« كنت ازور بعض العيال الفقيرة ، في بيوتها ، وكان بينهم رجل
« اعمى وعجوز ، له ابنة متزوجة يقيم عندها ، ورجلها بحال فقرية .
« فكنت ازوره وآخذ له المرتب . ولحظت اخيراً انه اصبح عالةً
« على نفسه وانَّه متعذب من حاله ، فأوقفته واخذت يديه وحملته
« على كتفيَّ ، واتيت به الى بيتنا ، فلمَّا نظرتني امّي حاملاً الاعمى

« قالت له : اهلًا وسهلًا بك يا عمّ . وللحال ادخلته الى المربع
« الصغير ، وفرشت له فرشة ، وبما انّه كفيف اعمى ، أخذت امي
« تطعمه بيدها . وكان هذا الاعمى المبارك يبكي ويقول
« لامي : « دخيلك يا ام جرجي اني اقدر ان آكل لذاتي . اعطيني
« خبزاً وجبناً ، ولماذا جئتِ بالطبيخ ؟ » فقالت له امي : « لا
« تستثقل يا عمّ ان هذا الطبخ هو من طبخنا ، فكن مرتاح البال
« ولا تهتم لشيء . فدعا لها من جوارح قلبه وقال : « الله يقوي كل
« جمعيات مار منصور في كل العالم ، ويكثر على افرادها الخيرات
« والصحة الكاملة لكي يساعدوا العميان والعاجزين والفقرآء .
« فكنت اسمع هذا الكلام واقول في نفسي : « واحسرتي على
« الفقرآء والعميان فانهم يتذوقون يومياً مرائر الكدر والغم
« وعذاب القلة والجوع والعري ، وخصوصاً الذين منهم اصحاب
« عيلة كبيرة ! ان الله تعالى خلق لنا العيون لكي نساعد الذين لا
« عيون لهم .

« وكانت ايضاً من العائلات الفقيرة التي كنت ازورها ،
« عائلة معروفة ، مستورة فأتى اليَّ احد رفاقي واخبرني بشدة
« حاجتها ، بان اولادها يبكون جوعاً . فتوجهت الى تلك العائلة في
« السهرة ، وسمعت الاولاد يبكون من الجوع وهم كثيرو
« العدد ، وكان على يد الام ولد ترضعه ، وولد آخر متكي على
« حضنها . فكلمت هذه الام المسكينة فقالت لي : ليس لاولادي

« رغيف يقتاتون به ، فلم اقدر ان اقف ازاءها وانظر هذا المنظر ،
« وترقرقت عيناي بالدموع السخينة ، فذهبت حالا الى السوق
« فاشتريت لهم خبزاً واكلاً وحلوى . فلما رأى الاولاد الاكل
« المقدم لهم ، هجموا علي ، والتهموا الاكل بشهية وقابلية قوية .
« ثم تركتهم بعد ان وزعت عليهم شيئاً من الدراهم[1] . »

فكلٌّ يعجب من شهامة وهمة هذا الشاب النشيط ، في خدمة الفقرآء ، وكل يتمثله وهو حامل الاعمى على ظهره ، أشبه بسامري الانجيل ، بل اعظم منه شأناً ، واشد منه محبة وكان فخوراً بهذه الخدمة ، كما كتب في احدى رسائله الى سليم وسلمى بولاد ، اللذين كان يطلب منهما مساعدة للفقراء : « يا أعزائي انتم تعرفون أني منذ صغري لاحق ومتبع كار خدمة الفقرآء ، ومن حين تأسست جمعية مار منصور ، سنة ١٨٦٣ من بعد الحادثة ، تمسكت بها ، ولم اتركها ابداً الى ان ابرح هذه الحياة ، لانها الذّ عمل لي ، لكونها تغفر الخطايا ، وترفع غضب الله عن الارض . »

ولم يكن للتعب او الملل ، في سبيل مساعدة الفقرآء ، منفذ الى نفسه سواء في الشغل اليدوي او في جمع التبرعات لاجلهم ، لاعتباره ان كل تعب في سبيل الفقرآء له المكافأة الجزيلة في السماوات ، وان للصدقة استطاعة عظمى على مغفرة الخطايا كما كتب في احدى رسائله : « لاتظنوا ان هذه العطلة ، او التعب لاجل

(١) من ذكرياته الخطية .

« الفقراء يذهبان سدى، لانه اذا كان لكاس الماء البارد ثمن عظيم،
« فما يكون ثمن التعب والسعي والاهتمام لصالح الفقرآء اخوة يسوع
« المسيح، وانا منذ صباي استعمل هذا الكار، لكي نمحو به
« خطايانا الكثيرة، واظن انه يندر ان يوجد احد بلا خطيئة، وقد
« فحصت ادوية كثيرة، فما وجدت دواء يمحو الخطيئة اكثر من
« الخدمة والاهتمام والاحسان للفقرآء والمتضايقين، كما وجد
« باستور الشهير الميكروبات واخترع دوآء ضدها. وقد توجد
« بعض ادوية لمحو الخطيئة، وهي الدموع الحرّى، ولكن الحسنة
« مع الدموع، او الندامة الكاملة، هي واحدة لواحدة، لمحو
« ميكروب الخطيئة، المعشش في جسمنا المملوء من الخطايا[١].»

وكم مرة بلغت به محبته للقريب الفقير، الى حد انها جرّدته من آخر درهم في جيبه، كما شهد هو في احدى رسائله قائلاً: « اني دائماً، ومنذ صغري اخليت حالي من الدراهم، وكنت أطفر من « الطنبورة » حتى يكون ضميري مرتاحاً وقلبي مسروراً[٢].»

وقصارى الكلام ان جرجي بيطار، وجد في جمعية مار منصور قوة عظيمة، استخدمها هو بغيرته ونشاطه وتضحياته الكثيرة ذريعة مباركة ليبلغ الى اعظم مستوى من محبة الله

---

(١) من رسائله بخط يده. (٢) من رسالةٍ له بقلم رصاص.

في اشخاص الفقرآء ، متعاوناً في ذلك مع والديه التقيّين وسائر اخوته .

وكان يعلم حق العلم ان فعل المحبة لله في شخص الفقرآء، ممثليه تعالى على الارض هو اكثر نفعاً للكنيسة من سائر الافعال ، فاتخذ هذا المبدأ الاسمى قاعدة لحياته ، ولم يدع العوامل البشرية تتسرب الى اعماله ، لان الروح الفائق الطبيعة كان مرشده اليها ورائده فيها . ولئلا يتخدر عزمه النبيل او تشعر نفسه بالسأم ، وهو واقف بين نزعات الشباب وميله الفطري الى خدمة القريب ، كان يتقوى كل يوم بالصلاة الحارة امام الله اثنآء حضوره القداس اليومي ويتغذى بتناول جسد الرب ، ليضرم في نفسه نار المحبة والغيرة ، ويثبت في سلك جمعية مار منصور التي كان يسميها « جندية المسيح على الارض[1] . »

---

(١) من رسائله .

الفصل السابع

الرهبانية أم الزواج ؟

في سنة ١٨٦٤ ، انتخب السيد غريغوريوس يوسف مطران عكا ، خلفاً للبطريرك التقي الابرّ اكلمنضوس بحوث الذي شاء بتواضعه ان يتنزل عن الرئاسة . فقصد البطريرك الجديد الى دمشق ، حيث ردّ الى وحدة الكنيسة والطائفة اولئك الذين كانوا خرجوا منها بسبب الحساب الغريغوري [١] . ولم تطل المدة حتى بلغ هذا البطريرك الجليل ما يفعله الشاب جرجي بيطار بدمشق من الخير العظيم وكان قد مثل امامه صحبة والده ، لتهنئته واخذ بركته .

« وكانت دمشق مجالا واسعاً لجهاد الرهبان المخلصيين ،
« ودامت على ذلك مدة طويلة ، رأت في خلالها ، كيف يبذل
« رجال الله دماءهم واعراقهم ، دون الذود عن حقيقة دينه و كيف
« يدافعون عن كرامة ابناء الطائفة ، ولعلّ شيوخ الطائفة ووالدي
« جرجي ، كانوا يروون له ما عانى اولئك الرهبان من الجهاد
« والاضطهاد ، وقد رأى هو من ذلك في ريعان شبابه ما فيه
« الكفاية [٢] . »

(١) الاب ق . باشا ب م — محاضرات في تاريخ المدرسة المخلصية .
(٢) الاب نقولا ابو هنا ب م — تأبين صاحب الترجمة .

فنزعت نفسه الى التأسّي بالرهبان ليس فقط في جهادهم بل في حياتهم الرهبانية ايضاً . بيد انــه لم يجسر ان يكاشف أحداً بفكرته هــذه ولم يشأ تحقيقها في ذلك الوقت مراعاة لخاطر والديه الطاعنين في السن وقياماً بواجب العناية بهما وباخوته بما انه بكرهم .

وكان شقيقه حبيب ، ثالث اخوته ، قد بدأ يشتغــل معه في حانوته . وما عتم أن برع في صناعة النجارة وفي فن الفسيفساء او التطعيم في الخشب . فازداد الايراد ، وزادت به محبــة جرجي للفقرآء ، فأخذ يوزع عليهم باكثر سخاء وتوسع مما قبل .

ولما تحقق براعة شقيقه واستطاعته ان يدير حانوت النجــارة ويساعد والديه ، عادت اليه نزعة الانتظام في سلك الرهبانية . ولا بدع اذا بقيت هذه النزعة كامنة في نفسه ، فقد نشأ على عــادة الصلاة والتضحية وممارسة الاسرار المقدسة ، واتضح له من امثلة الكهنة الاتقيــاء ما يكون الجهــاد الكامل في سبيل الله والنفوس ، فلم يكن العالم في نظره ، على ما بلغ هو اليه من صيت ذائع ومكانة واعتبار ، سوى ميدان يتبارى فيه رجال الله باعمال التقوى والفضيلة والجهاد . وقد فهم ان الاثبت والاشرف في تلك الاعمال هو ما تأتيه النفس الكهنوتية . ولذلك كتب هو نفسه في احدى رسائله قائلًا : « ان اميالي كانت ان اترك العالم واذهب

الى الدير العام لاشترك برهبانيته المقدسة[١].»

في سنة ١٨٦٨ اذ كان الايكونومس يوحنا كحيل رئيساً عاماً على الرهبانية المخلصية سافر جرجي من دمشق الى دير المخلص ونفسه شيِّقة الى الحياة الكاملة في الله قائلاً مع النبي داود: «هذه راحتي الى دهر الداهرين.»

فقبله الرئيس العام بتلك البشاشة العذبة التي عُهدت فيه والتي كانت تجتذب اليه النفوس كانما بجاذبية طبيعية. ولكنه تفرَّس بطلعة جرجي فادرك ان الله تعالى يدعو هذا الشاب الى غير الحالة الرهبانية. على ان جرجي لم يشعر آنئذ بتلك الطمأنينة الكاملة المرافقة النفس عند بلوغ امنيتها. فقد عرف أن البطريرك غريغوريوس يوسف موجود في الدير وكان ترأس انتخاب الهيئة القانونية الرهبانية بصفته زائراً رسولياً على الرهبانية. فخاف ان يعلم البطريرك بمقصده فيصده عنه لا محالة. وقد حدث ما كان يخشى حدوثه. فان البطريرك لما عرف بمقصد جرجي أمره بان يعود الى دمشق لمواصلة العمل الخيري الذي كان يأتيه.

فرجع الى دمشق حزيناً ولكن فكرة الترهب لم تزل امنيته الكبرى، ولم يبرح مترجياً ان يمن الله عليه بتحقيقها في مستقبل الايام. ولشدة هيامه بان يتخصص هو او احد افراد اسرتهِ لخدمة الرب بالحياة الرهبانية الكهنوتية قد تذاكر في هذا

(١) رسالة الى الرئيس العام استفانوس صقر.

الشأن مع شقيقه حبيب بعد ان آنس منه ميلًا الى تلك الدعوة المقدسة . ثم عرض الامر على والديه فرضيا وارسله الى دير المخلص سنة ١٨٦٩ وفي نفسه ان يلحق به الى هناك حين يأذن الله بذلك .

فذهب حبيب الى دير المخلص وفي سنة ١٨٧١ ابرز نذوره الرهبانية وارتسم كاهناً سنة ١٨٧٤ من يد البطريرك غريغوريوس يوسف عينه ودعي يوحنا . فابتهجت نفس جرجي وقد بلغه ما ذُكر عن شقيقه الكاهن يوحنا من اعمال الفضيلة والتقوى ومن إدمانه الاماتات الشديدة وتدقيقه الكامل في حفظ القوانين الرهبانية .

واذ كان يوحنا على جانب عظيم من الحذق في النجارة وفن الفسيفساء فقد اشتغل في كنيسة الدير الكبرى من خشب الجوز الجميل كراسي الخورص و كرسي الرئاسة العامة والدرابزون الذي يفصل الخورص عن صحن الكنيسة وهي بآثار بدائعها آية في حسن الذوق وجمال الهندسة . ثم ارسله البطريرك غريغوريوس يوسف لخدمة النفوس في قرية معرونة من ضواحي دمشق ومنها نقله الى دير القديسَين سرجيوس وباخوس في معلولا بصفة رئيس على هذا الدير[1] .

---

(١) سجلات الرهبانية المخلصية : اسم يوحنا بيطار .

اما جرجي ، فبقي مثابراً على الشغل في حانوته ، ولكن نفسه كانت تهذّ دوماً بفكرة الرهبانية وبتقديم ذاته على مثال شقيقه قرباناً على مذبح الرب . غير ان ساعة المحنة اخذت تقترب من هذا الشاب الطيب القلب والسريرة ، فتوجب عليه ان يقدم لله تعالى قرباناً غير القربان الذي كان يريده لنفسه ، بتذوّقه لاول مرة كأس الحزن الاليم .

ففي سنة ١٨٧٢ تُوفي والده جبرائيل ، تاركاً بين اسرته وفي نفوس عارفيه ، اطيب آثار التقوى والصلاح ، ولم يكد جرجي يُفرغ هذه الكأس حتى مدت اليه يد العناية الالهية كأساً ثانية لا تقل مرارةً عن الاولى . ففي سنة ١٨٧٤ قد تُوفيت والدته التقية وردة لاحقة بزوجها الى الديار السعيدة الخالدة[1] .

فكانت هذه المحنة المزدوجة قاسية على قلبه ، ولكنه صبر عليها بفرح متعزياً عن تيتّمه على الارض بالمحافظة على بنوّته لله ، تلك البنوة المقدسة التي اخذها بالعماد والتثبيت ، وزادتها النعمة والتقوى رسوخاً في نفسه . على انه من فرط محبته لوالديه ، قد ابى الا ان يكون على بعض اتصال معهما بعد مماتهما ، ليس فقط بالصلوات الحارة ، بل ايضاً بابقائه امام عينيه احسن واشرف شيء منهما . فبعد سنتين من وفاتهما فتح تابوتيهما

---

(١) من رسائل صاحب الترجمة .

واتى بجمجمتيهما وحفظهما في بيته كتُراثٍ نفيس يذكِّره بواجبه البنوي نحوهما[1] .

ولعل هذه الفرصة الاليمة كانت له داعياً جديداً ليحاول مرة ثانية ان يزهد بالدنيا ويذهب الى الدير .

وكان بين العملة المشتغلين في حانوت جرجي شاب من دمشق يدعى يوسف الشامي . فاتفق جرجي سراً مع هذا الشاب سنة ١٨٧٥ على الهرب الى دير المخلص ، ولبث يتحين الظروف لتنفيذ مقصده .

وكان وقتئذ في دمشق الاب الفاضل التقي فيلبس غرة المخلصي . فهذا الاب كان قد خدم النفوس في مصر ، حيث امتاز بفضائله الراهنة ورزانته الكهنوتية ومحبته للاختلاء في نفسه مع الله وحشمته الكاملة امام الجميع ، ولا سيما امام النساء اللواتي لم يأذن لاحداهن طيلة حياته بان تاخذ يده لتقبلها . ولذلك جميعه كان معتبراً عند رؤسائه ، وفي مقدمتهم البطريرك غريغوريوس يوسف . فنظراً الى محبته للاختلاء والعزلة والى تعلقه بالعيشة في الدير قد طلب من غبطته ان يعفيه من الخدمة في مصر . ولكن البطريرك رفض عليه ذلك فارسله الى دمشق حيث تعين رئيساً لاخوته الرهبان .

فبعد وصول الاب غرة الى دمشق ، تعرف جرجي اليه

(١) من رسائله ايضاً .

جرجي البيطار يشتغل بالنجارة مع معاونه
المرحوم يوسف الشامي الذي دخل الرهبانية

جرجي البيطار في سن الكهولة

واتخذه معرفاً خاصاً . وقبل ان ينفِّذ عزمه بالذهاب الى الدير ، عرض امره على هذا المرشد التقي ، فلقي منه معاكسة شديدة حالت دون امنيته . وقد تاكد لذلك الأب ان انتظام جرجي بيطار في سلك الرهبانية يفقد دمشق والطائفة « رجلًا اذخره الله لخير عظيم قد لا يتهيأ له القيام بجزء منه في حالة الرهبانية[1] » .

فوالحالة هذه اضطُرَّ جرجي الى العدول موقتاً عن فكرته واتفق على ان يسبقه رفيقه يوسف الشامي الى الدير ويلحقه هو فيما بعد . و كتذكار لهذا الاتفاق ولاشتراكهما في شغل النجارة قد أخذ رسمهما معاً في الحانوت ، ثم ذهب يوسف الى الدير سنة ١٨٧٥ . ولما عرفت والدته هرولت الى بيت جرجي بيطار وطلبت اليه ببكاء ونحيب ان يُرجع اليها ابنها . فطيَّب جرجي خاطرها وصرَّح لها باستعداده هو ايضاً للّحاق بابنها تنفيذاً للخطة التي كانا قد اتفقا عليها فتركته تلك الوالدة راضية متعزية .

ولبث جرجي يتحيَّن الفرصة لتتميم مقصده . بيد انَّ معرِّفه الفاضل الحادَّ الطبع ، لم يحتمل ما لحظ فيه من الاصرار على فكرته ، فبذل غاية جهده لاحباط مسعاه ، وحمل البطريرك ورئيس الرهبانية المخلصية العام ، الخوري سمعان نصر ، على إقفال باب الدير في وجه جرجي . ثم بيَّن له بكلام ابويّ أن وجوده في العالم ، بالنظر الى الخير العظيم الذي كان يفعله ، خيرٌ من انتحاله

(١) الاب نقولا ابو هنا — تأبين صاحب الترجمة

الدعوة الرهبانية ، على ما فيها من الفائدة لنفسه ، وان ارادة الله الظاهرة هي ان يبقى في السلك العالمي.

وحينذاك خضع جرجي باتم التسليم لامر الله ولكنَّه أخذ يعيش بروحه وقلبه وكل جوارح نفسه كأنَّه في الرهبانية. فمع قيامه بشغله وبواجباته كعضو في جمعيَّة مار منصور ، لم يترك العكوف على الزهد والتقشف والاماتة والصلوات الكثيرة والمثابرة على التقرُّب الى الله بالاسرار المقدسة ، غير منقطع عن حضور القداس والاشتراك بمائدة الفادي يوماً واحداً[١] . وكان يذوب حنيناً الى ما لم تفُز به نفسه ، واعتبر هذا الاخفاق برهاناً على انَّه لم يكن يستحق ان يمنَّ الله عليه بتلك النعمة كما جاء في احدى رسائله الى الرئيس العام[٢] : « ايها الاب الحبيب وسيدي الجليل ، اني ارى ذاتي نظراً لعظم خطاياي ما استحقيت ان اكون من عدد مصفكم الرهباني المقدَّس العفيف بل بقيت غارقاً في بحر هذا العالم ، نادباً ذاتي بدموع غزيرة انا الذي كنت دائماً اميل الى ترك العالم والذهاب الى الدير العامر لاشترك بجمعيتكم المقدسة ، فما استحقيت هذه الدعوة المقدسة الملائكية » .

ولشدة هيامه بالترهب وانتمائه الخاص الى الرهبانية ، كان يضيف الى توقيعه ، في كتاباته الى الرئاسة العامة ، حرفي ب م

(١) الاب نقولا ابو هنا : تأبين صاحب الترجمة .

(٢) الايكونومس استفانوس صقر سنة ١٩٠٤

اللذين هما شعار الرهبان الباسيليين المخلصيين ، دلالةً على رغبته السابقة الشديدة في ان يكون من عدادهم .

وقد بلغ جرجي السنة الاربعين من عمره ، عائشاً في العالم كانه ليس من العالم ، ولذلك لم تظهر منه اقل رغبة في الزواج . فلحظ الامر آله ، واخصهم امرأة عمه يوسف بيطار المدعوة خانم قاضي ، شقيقة جرجي قاضي .

وكانت اسرة قاضي بدمشق ، معروفة بمقامها ووجاهتها وتقواها المسيحية الراهنة . فمنها نبغ حَبْران جليلان في الكنيسة هما البطريرك المثلث الرحمات ديمتريوس قاضي والمطران نقولاوس قاضي متروبوليت بصرى وحوران .

وكان جرجي قاضي المذكور في مقدمة اسرته وجاهةً وتقوى ، وهو والد المطران نقولاوس قاضي ، والآنسة ماري قاضي . وكانت ماري هذه على جانب عظيم من التقوى الموروثة عن اسرتها ، وقد جمعت اليها اكمل الصفات الطبيعية من جمال وكمال واخلاق عالية . في سنة ١٨٨٠ بلغت ماري الخامسة عشرة من عمرها . فتقدم ليخطبها ، كثير من الشبان من كبراء دمشق واغنيائها . أما هي فكانت بطاعتها البنوية خاضعة لارادة والدها التقي ، الذي لم يغره الجاه العالمي بل فضَّل ان يؤمّن مستقبل ابنته بخطبتها لاكمل الشبان تقىً واخلاقاً مسيحية . على ان شقيقته خانم ، كانت تحدثت اليه عن جرجي بيطار ابن سلفها ،

ولم يكن شقيقها بحاجة الى برهان عن صفات ذلك الرجل الشاب، لان صيته الطيب كان ذائعاً في أوساط دمشق وأحيائها.

غير ان جرجي قاضي كان يخشى ان لا يتوفق في خطبة ابنته لجرجي بيطار، لسماعه انه يريد الانتظام في سلك الحياة الرهبانية. ولكن البطريرك غريغوريوس يوسف الذي كان منع جرجي عن الذهاب الى الدير، لم يفته أيضاً ان يسعى عند آله لزواجه. وكان قد اتضح لجرجي ان الله تعالى يريد منه ان يخدمه في حالة الزواج.

وعلمت بالامر امرأة عمه يوسف، واخبرت شقيقها فرضي بجرجي زوجاً لابنته ماري، غير ملتفت الى كبر سنه ولا معتبر ان مقامه العالمي اقل من مقام غيره شأناً، بل نظر فقط الى علوّ مقامه الادبي والروحي الحافل بالاخلاق العالية وباعمال التقوى والفضيلة. وكأن الله تعالى قد صرف فكرة الزواج عن جرجي بيطار حتى بلغ السنة الاربعين من عمره ليُعدَّ له زوجة من تلك الابنة الفاضلة التي اضحت اعظم مساعد له في رسالته على الارض اي خدمة المرضى « الفقراء اخوة يسوع المسيح. »

على ان الروح الفائق الطبيعة الذي كان المبدأ الاسمى لحياة جرجي بيطار قد بين له عظمة سر الزواج فاستعد له بذلك التهيُّب الرزين الهادىء والورَع الكامل. ولذلك[1] اختلى مع نفسه ومع الله برياضة روحية اقامها في دير الاباء اللعازريين بدمشق مدة ثلاثة ايام

(١) من ذكريات ابنته حنينة.

متوالية ، انقطع فيها عن العالم الى مناجاة الله بالصلاة والتأمل . وعلى اثر تلك الرياضة التي اشبه بها طوبيا البار تمّ الاحتفال بتكليله على الآنسة ماري قاضي سنة ١٨٨٠ .

ففرح آل الاسرتين ومعارفهم وجيرانهم ، واقبلوا يهنئون العروسين وآلهما . وفي وسط تلك الافراح العائلية الطاهرة ، كان جرجي ظاهراً امام الجميع بطلعة رزينة هادئة تُلطِّفها ابتسامة عذبة فتبعث المحبة والمهابة في النفوس . واتفق ان كان في يوم العرس عينه موعد اجتماع اخوية سيدة البشارة في الكنيسة الكاتدرائية . فاستأذن جرجي جمهور المهنئين ، ولم يثقل عليه وعليهم ان يذهب الى الكنيسة لحضور فرض الاخوية التي كان هو عضواً منها ، ولم يعجب الجمهور من هذه البادرة النادرة ، لعلمهم ان التقوى هي عند جرجي ألذ الافراح على الارض . وبعد الانتهاء من صلاة فرض الاخوية ، لبث في الكنيسة وقتاً غير وجيز راكعاً امام ايقونة سيدة البشارة ، وجاعلاً زواجه تحت حماية العذراء المجيدة شفيعته الخاصة . ثم عاد الى بيته فرحاً بانه اتم ارادة الله المقدسة .

وقد شعر هذا الزوج المبارك ، بتعزية المساعدة المسيحية المتبادلة في عمل الخير . فكانت ماري تقرن الهمة والنشاط في التدبير المنزلي بالايمان الحي ، مساعدة زوجها في خدمة المرضى والفقراء . بيد ان اتحادهما كان اشد ارتباطاً في التعبد لله تعالى

بالصلوات المشتركة فكانا يذهبان معاً الى الكنيسة لحضور القداس الالهي وتناول جسد الرب ودمه. وعلى الرغم من اتعابهما وتضحياتهما الكثيرة في خدمة القريب ففي ذلك الوقت الذي كان يخفّ فيه عند عائلات كثيرة روح الاماتة والتقشف كانا يحافظان بتدقيق مقدس على كل الصيامات والقطاعات التي تأمر بها الكنيسة على مدار السنة. وكان كثيرون من زوار دمشق يذهبون الى حانوت جرجي بيطار ليشتروا من بدائع فنه، ويتفق ان يكثر عددهم ايام الاحاد والاعياد. اما جرجي فكان يغلق في هذه الايام المقدسة ابواب حانوته مفضلاً ان يُنزل الله على بيته بركات السماء ونعمها.

على ان روح ايمانه كان يظهر بنوع اشد تأثيراً في خُفية منزله العائلي حيث كان يقيم الصلوات الحارة بالاشتراك مع زوجته ويقرأ الكتب التقوية وسِيَر القديسين الذين كان يدعوهم «اخواناً لنا بالنفس[١]».

واذ كان جرجي يتذكر الحالة الرهبانية بحنين وشوق فقد سأل الله تعالى ان يدعو اليها اول ولد يرزقه اياه. وقد بارك عز وجل هذا الزواج المقدس وانبت منه ذرية كثيرة وصالحة. ولما كان جرجي قد وضع حياته الزواجية تحت حماية العذراء مريم فكل مرة كان يمن الله عليه بمولود كان يذهب يوم ميلاده الى الكنيسة[٢] ويقف

(١) من رسائل صاحب الترجمة. (٢) من ذكريات ابنته حنينة.

امام ايقونة العذرآء سيدة البشارة فيضع في صندوقها شيئاً من الدراهم ثم يطلب منها طلباً خاصاً واحداً من امرين : إما ان تأخذ اليها الولد صغيراً قبل ان يعرف الخيرَ من الشر ان كانت مستدركة انه لن يعيش عيشة صالحة، وإما ان تبقيه في قيد الحياة ان كانت راضية عنه .

ففي سنة ١٨٨١ وُلدت ابنته الاولى فدعاها حنينة . فذهب جرجي الى الكنيسة ليشكر الله على هذه النعمة، ولعله كان ينتظر مولوداً ذكراً ليقدمه لخدمة مذابح الرب . فشمل الفرح آل الزوجين وجيرانهما فاقبلوا على تهنئتهما .

ولكن هذا الفرح لم يطُل لان محنة جديدة كانت مُعَدَّة لايمان جرجي وصبره . ففي تلك السنة عينها بلغه ان شقيقه الخوري يوحنا رئيس دير معلولا قد افتقده الله بحمى خبيثة . فذهب اليه صحبة قرينته الامينة ماري واخذا يعتنيان به ويصليان الى الله لاجل شفائه . وكان حكم الله نافذاً ففاضت نفس ذلك الكاهن الفاضل بين يدي شقيقه وقضى مأسوفاً على شبابه في السنة الحادية والثلاثين من عمره ودفن في كنيسة الدير[١] .

ورجع جرجي الى دمشق حزيناً ولكن متعزياً بخضوعه التام لارادة الله . ولم تمض السنة التالية سنة ١٨٨٢ حتى رزقه الله ابناً بكراً سماه جبران . نخصَّصه لله منذ صباهُ على ان يقدمه

(١) سجلات الرهبانية المخلصية — اسم يوحنا بيطار .

فيما بعد قرباناً لله وخادماً للهياكل المقدسة فكان له حسبما تمنى . والظاهر ان جرجي كان قد نذر ابنه هذا لدير المخلص ، وهي عادة حميدة كانت مألوفة في ذلك العهد . ولذلك ذهب جرجي بيطار الى دير المخلص سنة ١٨٨٣ صحبة امرأته وولديه الطفلين . وكان الله تعالى دبر ان يكابد جرجي مشاق السفر في تلك السنة ، ليحفظه من فتكات الهواء الاصفر الذي كان انتشر في دمشق انتشاراً هائلاً . ولا يبعد ان يكون جرجي قد سافر الى ذلك الدير بناء على دعوة خاصة من الرئيس العام ، الياس حجار ، ليشتغل الواجهة الخشبية المركبة فوق ايكونستاس الكنيسة ، مع الصلبوت ذات الحفر الجميل كجزء منه . وقد جاءت على يد جرجي بيطار آية في الاتقان والابداع وتحفة في فن التطعيم بالخشب الجوزي . واشتغل ايضاً العرش الحبري القائم خلف الهيكل الكبير ، تحيط به كراسي الكهنة ، وهي بآثار بدائعها ، آية في حسن الذوق وجمال الهندسة .

وقضى جرجي في ذلك الدير ، بضعة اشهر ظهرت في خلالها تقواه النادرة وفضيلته الراهنة . فكان هناك كأنه واحد من الرهبان ، يُبكر الى مشاركتهم في صلواتهم الفرضية ويقضي الوقت منذ ابتداء التأمل الروحي الى الفرض الى قانون الايمان في القداس ، وهو واقف بكل تهيب وخشوع ، ومن قانون الايمان الى آخر القداس يلبث راكعاً مستوياً دون ان يتكىء على شيء بتة . وما اجمل تواضعه حين كان يؤثر تناول الطعام مع

الرهبان على مائدتهم فكان الرئيس العام يدعوه ليجلس بقربه فيأبى الا ان يجلس في آخر المائدة بعد اصغر الرهبان!

ثم عاد جرجي الى دمشق بعد زوال الهوآء الاصفر وفي سنة ١٨٨٤ وُلدت له ابنة ثانية سماها روز وبعد سنتين وُلد له ابن ثانٍ سماه الياس، وعقبه سنة ١٨٨٩ ابن ثالث سماه حنين، وابنة ثالثة سنة ١٨٩١ دعيت ايلين. وكان جرجي مسروراً بهؤلاء البنين الستة معتقداً انهم سوف يكونون اعواناً له في بذل الخير والاحسان.

وفي سنة ١٨٩٥ رزق ولداً سابعاً سماه جوزف، وعقبه ولد ثامن سنة ١٨٩٨ دعاه خليل، وسنة ١٩٠١ وُلد ابنه التاسع فسماه ميشال، ولكنه لم يظهر بين ايدي والديه واخوته الا ليبتسم امامهم عن افراح الملائكة في السماء فمات طفلاً ابن سنته. ولحقه الى السماء شقيقه خليل في السنة الرابعة من عمره. وسنة ١٩٠٥ رزق ولداً عاشراً سماه ميشال وهذا ايضاً سار في طريق شقيقيه في الشهر الثامن من عمره.

وقد ظهرت قوة ايمان هذا الرجل المسيحي الكبير إبان تلك المحن التي افقدته ثلاثة من بنيه، في مسافات قصيرة. وقد كتب ابنه الياس عن سلوكه العجيب في مثل هذه الظروف المحزنة:

« اذ كان يمرض احد اولاده، كنا نراه يصوم ويصلي لاجل شفائه.

« وكان ينثر الرماد على رأسه ويضاعف اماتاته ويرخي لحيته ويتوجع

« توجعاً شديداً محتسباً ان المرض قصاص من الله في اولاده بسبب
« خطاياه هو . وكثيراً ما كنـا نشاهد في دَرْج مكتبه اوراقاً
« ملفوفة وضمنها رماد او نشاهد ذرات الرماد ، منثورة على بيت
« مخدته . ولكنه مع طلبه الشفاء لولده المريض كان خاضعاً
« الخضوع التام لامر الله وعناية العذراء مريم . فإذا اخذه الله الى
« جواره ، كما حدث لاطفاله الثلاثة ، كان يذهب توًّا ليحلق لحيته
« ثم يتزين ويسرّح شعره ويرجع الى البيت والابتسامة على وجهه
« فيعزي امرأته واولاده ويشدد عزائمهم ويقول لهم: « إنا ارسلنا
« ملائكة الى السماء ، فلا تحزنوا كما يحزن باقي الناس الذين لا رجاء
« لهم . الرب اعطى والرب اخذ فليكن اسمه مباركاً [١] »

على ان الله تعالى كان مذخراً له محنة اخرى اشد واقوى اذ مرض ابنه جوزف . فكان هذا الشاب غلاماً لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره وهو في اتم الجمال والكمال خَلقاً وخُلقاً وادباً وذكاء . وقد مرض مرضةً خطرة . فأكثر والده الحنون من الصلاة والاماتات وسكب الدموع رجاء ان يمن الله بالشفاء على فلذة كبده . ولكن الفجيعة وقعت وطارت روح الغلام من جسده الغض . فوقف جرجي ازاءها بايمانه الحي وقفة المؤمن الصبّار المسلّم لحكم الله ، يبرّد لوعة الام الثاكل ويأسو حزن اهل بيته الجازعين ، حتى لقد اغلق على غصنه الذابل غرفته المنارة بالشموع ودعا كل الاهل

(١) من مذكرات الياس بيطار

والاقرباء فذهب بهم الى الكنيسة يصلّون عن روح الراحل العزيز. فكان في موقفه هذا اشبه بداود النبي اذ اصيب في طفله فقال كلمته المشهورة: « لما كان الصبي حياً صُمْت وبكيت لاني قلت من يعلم لعل الله يرحمني ويحيا الصبي، واما الآن وقد مات فلماذا اصوم، افأستطيع ان أردَّه بعد؟ انا أصير اليه وهو لا يرجع اليَّ[1] » (٢ مل ١٢ : ٢٢ و ٢٣).

وقد اتصل الينا صدًى امين عن سلوك هذا الرجل في تلك الظروف المحزنة في ما كتبه هو نفسه بمناسبة مرض جورج ابن ابنته حنينة زوجة السيد خليل سارة، وقد استجاب الله تعالى صلواته هذه المرة وشفي جورج شفاء عجيباً. فقال في احدى رسائله سنة ١٩٢٩[2] :

« لقد حدث حادث فجائي للحبيب جورج ساره .... وصار
« يخرج دماً حتى تصفى دمه كله، وذاب جسمه. وانا كنت ادور
« بالليل واتمشى في الرواق والدموع تنسكب من عيوني واقول :
« الويل لي ان كثرة خطاياي هي سبب هذا المصاب الذي احاق بك
« ياروح جدك وحبيب قلوبنا. ما هذا الحال الفجائي الذي اصابك.
« يا الله اغفر لنا خطايانا الكثيرة، ولا تعاملنا باعمالنا، بل اشفق
« علينا كما شفقت على اهالي مدينة نينوى عندما تابوا وفردوا

(١) الاب نقولا ابو هنا : تأبين صاحب الترجمة.

(٢) رسالة الى ابنة الارشمندريت جبرائيل بيطار.

« الرماد على رؤوسهم وصاموا وصلوا . فشفقة عليهم ورحمة بهم
« اشفق علينا وعلى شيخوختي التي قضت كل هذا العمر بالباطل ...
« والآن فاني اصوم كل هذا الشهر (ايلول) واحضر كل القداديس
على نيته وافرد الرماد على رأسي كل يوم ، واصلي في الكنيسة
القوانين الثلاثة . وقد وزعت على كل الفقراء ثمانية قناطير بطاطا
وثلاثة قناطير ونصف بصلاً . وما انتهى شهر ايلول حتى رحمنا
الباري تعالى الرحيم الشفيق وتحنَّن علينا جميعاً ... ثم اتى الحكيم
يوسف عرقتنجي لنظره فسرَّ جداً من الحال . وحيث ان سمعي
قليل أتت اليَّ الحبيبة ماري وقالت لي : اريد ان اطمنك يا جدي
فان حالة جورج تحسنت كثيراً والحمد لله ، وان الحكيم قال : ان
هذا التحسين هو عجيبة ... فشكرنا الباري تعالى شكراً دائماً على
هذه النعمة العظيمة التي جاد بها علينا . » — تلك كانت نفسية
هذا الرجل المتلألئة بانوار الايمان الحي في جميع اطوار حياته .

ولما كبر ولده جبران ، فاتماماً لامنيته السابقة ارسله الى دير
المخلص لينتظم عوضاً عنه في السلك الرهباني [1] . وقد تعزى كثيراً
بفوزه بهذه الامنية التي لم ينلها هو نفسه ، حسبما يقول في احدى
رسائله الى الرئيس العام [2] : « لقد تعزيت كثيراً عند نظري ان

---

(١) كان لجرجي بيطار اخ يدعى نقولا كان ذهب الى الرهبانية ولكن الله لم يكن داعيه الى هذه الحالة فخرج من الدير وتعلم طب الاسنان وقطن في مصر حيث تعاطي هذه المهنة . (٢) الايكونومس استفانوس صقر .

ولدي البكر الحبيب جبران اراد ان يذهب الى العامر ليشترك بهذه الجمعية الرهبانية المباركة ، فيكون تمّ ما كنت انا قاصده ومشتهيه . » وقد حقّق جبران امنية ابيه فابرز نذوره الرهبانية الاحتفالية سنة ١٩٠٨ وارتسم كاهناً سنة ١٩٠٩ .

الفصل الثامن

أبو العائلة [١]

إنّ ذلك التردّد المقدس الذي اوقف جرجي بين الرهبانية والزواج ، كان منه فترةَ درس وتبصر ، شأن الرجل العاقل الذي لا يُقدِم على أمرٍ عن هوس او هوى . وقد عرف أن لا معنى ولا ثبات للحياة إلّا باستقرارها على واحد من شيئين لا وسيط بينهما : العزوبة المقدسة في الترهّب او الزواج . وبقي على تلك الحال زمناً طويلًا ، يغالب الظروف والاشخاص ، بحافز اشتياقه الى العيشة الرهبانية ، الى ان تأكد له أنّ الله تعالى يريده أبًا لعائلة كبيرة . فكان إقباله على الزواج تنفيذاً لتلك الارادة العالية التي تجلّت له باوضح المظاهر . ولذلك رأيناه ملبياً هذه الدعوة بكامل

(١) اعتمدت في هذا الفصل على ذكريات أمينة التقطتها من ابنة المترجم الكبرى السيدة حنينة زوجة السيد خليل سارة ، وعلى كتاباته الخاصة ورسائله الى اولاده .

التهيّب والاستعداد ، وقد حوّل اليها ما كان نشأ في نفسه من الصفات الجميلة المرافقة الحياة الرهبانية أعني التقوى والفضيلة والصلاة وأضاف اليها ما تشترطه حالته الجديـدة من القداسة والامانة الزواجية . فلا بدع إن تمّ فيه قول الكتاب « وترى بنيك وبني بنيك مثل غروس الزيتون حول مائدتك » . فقد نما حول هذا الاصـل الكريم والعنصر الطيب ، فروع كثيرة وصالحة ، ولم تَحُلْ دون كثرتها ما تدّعيه الانانية العصرية من أثقالٍ ومشاق .

على أنّ جرجي بيطار ، كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بان العائلة المسيحية ، هي من تأسيس الله ، فلن تقوم إلّا بالايمان والمحبة والصلة المقدسة المؤلِّفة بين القلوب ، وبروح الله الحارس الغير المنظور للفضيـلة ، مبارك العائلة ومكثّرها ومعزّيها ومقدسهـا ، كما عزّى وقدّس عرس قانا . ولعمري إنّ عدداً كبيراً من عائلاتنا المسيحية الحاضرة كادت تنفي من يقينها ذلك الاعتقاد ، ولذلك نرى بكل أسف أن الروح المسيحية عندها ذابلة إن لم تكن مائتة . فقد تطرّقت اليها الثورة الفكرية العصرية ، وثورة اللذّة الطبيعية . واذا كانت لم تقطع بعدُ آخر علاقة مع المسيح ، او كانت تنتدب المسيح احياناً لحضور تأسيسها ، فكثيراً ما يكون المسيح آخر المدعوين اليها ، ولا يعتم ان يكون أوّل الخارجين عنها .

لم تكن كذلك عائلة جرجي بيطار ، فان الله تعالى كان أول

من استشاره جرجي في تأسيسها وبنائها ، واليه وحده وكل أمر حراستها وحفظها ، فغدا مثالاً للزوج الامين ، وأبي العائلة الحقيقي الكامل .

واول ما يبدو لنا في حياته العائلية ، أن سطوته على بنيه ، كانت سطوة الفضيلة . فلم يرفع يوماً يده على واحدٍ منهم ، بل إنه كان يؤدبهم ، بكلام أبوي لطيف ، فيهابونه مهابتهم للفضيلة المتكلمة . وكذلك كانت والدتهم التقية تقول لهم : « مهما قال لكم والدكم فأطيعوه لانه قديس » . وقد رسخ في اذهانهم ان والدهم قديس وصاحب فضيلة راهنة ، فلا يذكر واحد منهم انه خالفه يوماً في امر من الامور ، وكانوا يخاطبونه في رسائلهم اليه ، بهذه المناداة العذبة : « سيدي الوالد القديس » .

وفي ذلك الوقت ، كانت مدرسة الاباء اللعازريين بدمشق ، معهداً كبيراً ، كما هي اليوم ، لاقتباس العلوم والآداب . فلم يغفل جرجي عن القيام بتثقيف اولاده ، فأرسلهم الى ذلك المعهد وفي نيته ان يحرز اولاده الذكور القسط الوافي من العلوم ، ليسلِّمهم إدارة حانوته ، على ان يتفرَّغ هو لخدمة الفقرآء .

فدخلت ابنته الكبرى حنينة المدرسة سنة ١٨٨٩ وخرجت منها سنة ١٨٩٨ بنجاح باهر . وتبعها ابنه جبران سنة ١٨٩٢ وخرج من المدرسة سنة ١٨٩٧ لادارة حانوت والده ، نظراً لميله الغريزي الى التجارة . غير انَّ صوت الله دعاه الى الدير فلبَّاه سنة

١٩٠٢ . وخلفه في ادارة الحانوت شقيقه حنين الذي ما عتم ان ذهب الى مصر حيث كان عمه الدكتور نقولا بيطار ، ومن هناك سار الى باريس حيث تخصَّص لطب الاسنان .

امَّا روز وايلين فقد قضت الاولى اربع سنوات في المدرسة ، والثانية ست سنوات وخرجتا منها لملازمة البيت الوالدي . واما الياس ، فبعد ان قضى ثلاث سنوات في مدرسة الآباء اللعازريين انتقل منها الى المدرسة البطريركية ببيروت ، حيث اكمل دروسه العالية .

بيد انَّ همَّ جرجي بيطار كان بنوع اخص تنشئة اولاده على مبادئ التقوى الراهنة والآداب المسيحية الكاملة ومحبة الفقراء على مثاله . فمع اجتهاده في تحقيق هذه النزعة المقدسة السامية ، كان يشملهم بمحبَّة ابوية شديدة ، تصدر عن قلب هو رمز اللطف والحنان . كل ذلك يتجلَّى لنا في مظاهر حياته العائلية ، تلك الحياة التي اتصلنا الى معرفة دقائقها واسرارها من الذكريات العذبة التالية التي حفظها عنه اولاده ، وقد طبعت في قلوبهم واذهانهم بصورة متألقة صافية ، ارتسمت فيها نفسية والدهم :

« لم نسمع من فم والدنا كلمة قاسية او مهينة ، فكان يؤدبنا بكلامه الابوي اللطيف ، فيؤثر فينا تأثيراً عظيماً لاعتبارنا انه كلام الفضيلة والتقوى . وكان رزيناً أمامنا في جميع حركاته وسكناته ، ويلطف رزانته بابتسامة جذابة تشفُّ عن أشدّ المحبة

والعطف. وإن دلّعنا أحياناً او لاعبنا، فلكي يسلّينا او يعلمنا الشجاعة ويدربنا على الرياضة البدنية، من ذلك أنّه كان يرفع كلّاً منّا على كفّ يده الجبارة، ويوصلنا الى نافذة في البيت عالية ومشبّكة بالحديد، فنتمسّك بها ثم يتركنا نتدلّى الى ان نتعب فينزلنا الى الارض، واحياناً كان يصعد امامنا الى شجرة مشمش عالية وينزل الينا حبلاً يكون ربط في طرفه قفّة فيجلس احدنا في القفة فيُصعدنا الى الشجرة ثم يدلّينا. وأحياناً كان يُجلسنا في طبق وسط بركة ماء ويلزمنا بحفظ الموازنة فيتركنا وشأننا في الطبق.

«وكان يشاركنا في افراح عيد البربارة إلّا أنّه لم يكن يرضى بان يُحضر الينا حلويات العيد او بان يذوقها قبل ان يكون وزّع منها الشيء الكثير على الفقراء. وكم مرّةٍ شاهدناه في وسط افراحنا هذه باكياً بدموع غزيرة، لانه يكون قد رأى في النهار أطفالاً لم يكن عندهم اكل.

«فرغم انه كان لا يبخل علينا بجميع انواع التسليات البيتية، لم نكن نحن نخلو من ان ننتقد قسوته علينا، ولا سيما ايام الآحاد، لانه لم يكن يأخذنا الى فسحةٍ او نزهة، فان تلك الايام كانت عنده فرصة ثمينة للقيام بواجباته الدينيّة وبفرض اخوية سيدة البشارة وللاهتمام باولاد المدرسة الليلية الذين كان يغار عليهم غيرة خاصة. فكل يوم احد كان يزور هؤلاء الاولاد

ويوزع عليهم الحسنات . وكان يدعوهم مرة في السنة الى نزهة (سيران) على حسابه صحبة الخوارنة ومعلمي المدرسة ، فينفق عليهم في هذه النزهة نحو عشر ليرات عثمانية . ففي احدى السنين لم تكن معه هذه القيمة ، فكان مهتماً لتدبيرها . ولما لحظنا اهتمامه وقد خلنا تصرفه هذا اسرافاً ، أظهرنا له كدرنا واستياءنا وقلنا له : « لا تتعب نفسك يا والدنا ، ولا تكن هذه النزهة » . اما هو فلم يجبنا بكلمة . في ذلك اليوم ، بعد ان حضر فرض الاخوية ، عاد مسرعاً الى البيت ، وبيده عشر ليرات عثمانية نقده اياها احد المحسنين وكان مسروراً بها سروره بكنز عظيم وقال لنا : « ان الله اكرم منكم فقد بعث الينا بهذه الكمية لخير اولاده الفقرآء » .

« وكان والدنا يُلزمنا منذ صغرنا ، ان نصوم مثله الصيام الكبير الى ما بعد الظهر . وعندما يصير وقت الأكل ويلاحظ هو شدة جوعنا ، كان يوقفنا قليلاً عن الأكل بقوله لنا : « يا اولادي « يجب ان تكونوا كرمآء مع ربنا ! اذا كانت الكنيسة تحدد لنا « وقت الظهر للاكل فلنزد نحن نصف ساعة اكراماً لله ، فانكم اذا « ذهبتم الى السوق لتشتروا اقمشة اراكم تطالبون البائع بالزيادة . « فما تطلبونه من بائع الاقمشة افعلوه انتم مع ربنا . » اما هو فكان يُكثر من الاماتات في ايام الصيام ، شأنه في غيرها من الايام ، فلا يذوق البتة زفراً وإن مباحاً . فاتفق ان مرض مرةً مرضةً شديدة

وعبثاً حاولت والدتنا ان تطعمه زفراً . فاحتالت عليه بانها شكته الى معلم اعترافه وقتئذ الاب ديمتري قزح المخلصي وطلبت منه ان يفرض عليه اكل الزفر كقانون اعتراف . فلم يأكل زفراً في مرضه إلّا بقوة هذه الحيلة المقدسة . ونحن على مثاله تعودنا الصيام الى الظهر ولم نشعر يوماً والحمد لله بضعف او ألم .

« وفي ايام الصيام هذا كان يجمعنا حوله في ساعة معينة لصلاة النوم الكبرى ، ثم يتبع هذه الصلاة بقرآءة قصة احد القديسين في كتاب الكنز الثمين ، ولا سيما قصة من اشتهر منهم بمحبة الفقرآء ، ليغرس فينا مبدأ القداسة ويعلمنا محبة الفقرآء .

« ومن مسآء خميس الاسرار المقدسة ، الى عيد الفصح ، لم يكن يأكل او يشرب شيئاً استعداداً لتناول جسد الرب . فحدث له مرةً انه لم يقدر ان يتناول في ذلك اليوم ، فلم يرد البتة ان يأكل معنا زفراً . وبقي مُضرباً عن الطعام الى اليوم التالي الذي تناول فيه جسد الرب . ثم قال لنا : لم ارد ان آكل زفراً قبل ان يدخل المسيح الى قلبي .

« على ان المناولة المتواترة ، لم تكن في تلك الايام مباحة . فكان والدنا يتناول مرة واحدة في الاسبوع يوم الاحد ، ويقضي الثلاثة الايام التالية شاكراً الله تعالى على هذه النعمة ، ويخصص الثلاثة الاخرى بالاستعداد والتهيب للتناول يوم الأحد . فلما نشر البابا بيوس العاشر رسالته المشهورة في « المناولة المتواترة » فرح

والدنا فرحاً عظيماً وبدأ يتناول جسد الرب مراراً كثيرة في كل اسبوع .

« ولكي يعلمنا محبة واجباتنا الدينية كان يأخذنا معه دوماً الى الكنيسة ويلزمنا ان نحضر الصلوات والقداسات وقوفاً نظيره ، لا نتطلع يمنةً او يسرةً ولا ننطق بكلمة مهما طالت الصلوات . وكل يعلم ان والدنا لم يُشاهَد يومـاً جالساً في الكنيسة ، إلّا في ايامه الاخيرة اذ اصبحت قدماه عاجزتين عن الوقوف . وقـد نشأت فينا هذه العادة الى حد أننا واولادنا ، كنا نتعجَّب او نتشكَّك كل مرة يتفق لنا ان نلاحظ من يخالفهـا . وكان ينقدنا بعض الدراهم لنلقيها في الصينية بأيدينا ليدرّبنا على محبة بيت الله والغيرة على تزيينه .

« اما احاديثه معنا فكان اهم مواضيعها الفقرآء ومحبة الفقرآء ليخلق فينا هذه المحبة ، حتى كأنها اصبحت تراثاً انتقل الينا والى اولادنا الذين اخذوا يوفرون من نقودهم الخاصة ليتصدقوا بها على الفقرآء ، وقد تعوَّدوا نظيره ، وهم صغار ، ان لا يتناولوا اكلهم كاملًا ، الى حد انهم يقطعون اللقمة عن افواههم ليحفظوها للفقراء . وكم مرةٍ كان يأتي بهم الى بيتنا ، فتعتني بهم والدتنا على مرأى ومشهد منّا . وبلغ يوماً والدنا ان احد الفقرآء مريض في غرفته منذ ثلاثة ايام وهو يتقلب على سرير اوجاعه واقذاره دون ان يجسر احد ان يدنو من غرفته لان رائحة كريهة كانت تنبعث

منها . فدمع والدنا دمعة الحزن والشفقة واسرع الى ذلك الفقير ولم يشمئز من حالته ، فدخل غرفته ونزع ثياب الفقير البالية ، وغسل جسمه ، وقصَّ شعر رأسه ثم البسه حلة جديدة واعتنى به اعتناءً خاصاً . ولا غرو ان تكون في نفس والدنا مثل هذه المروءة المسيحية ، فان عواطفه كانت تتحرق كل مرة يسمع بفقير معدم . وكثيراً ما كان يتركنا وقت الطعام ، ليؤاكل الفقراء في موعد معيَّن بعد ان يكون احضر لهم الاكل الكافي فيجلس معهم على الارض ويؤاسيهم في بلاياهم .

« ولما رُزقت ابنته حنينة ولدَها البكر اراد ان يسميه باسمه جورج ثم قال لابنته : « اريد ان يخلفني ابنك هذا في خدمة الفقراء . » واذ مرض والدنا منذ خمسة عشرة سنة مرضة خطرة طلب بالحاح ان يحضر اليه جورج المذكور فأوصاه بالفقراء وبطريقة مساعدتهم ثم قال : الآن استراح ضميري فلا خوف من الموت .

« وكان والدنا يكره الكذب كرهاً شديداً ، ولا يريد منا ان نتحدث عن أحدٍ إلّا بالخير والصلاح . فالصدق مع الله في حفظ الوصايا والواجبات ، كان يرسمه لنا قاعـدة مثلى لسلوكنا الاعتيادي . ولذلك لم يكن يحتمل فينا الحلف أيّاً كانت انواعه .

« وفي كل صباح ومساء ، كان يجمعنا للصلاة المشتركة . وقبل ان نذهب الى النوم ، كان ينتهز مثل هذه الساعة ليوبخنا علي ما يكون بدر منّا من النقائص في النهار .

« فعلى ما كان في تهذيب والدنا من شدة مقدّسة كنا نشعر دوماً بانّه يحبنا محبة حقيقية ، فنبادله نحن تلك المحبة عينها مقرونة باخلص شعائر الاحترام والتوقير . ولم تكن محبته لنا محبّة الوالد المغرم باولاده غراماً بشرياً محضاً ، بل كان يحبّنا ليجعلنا بنين صالحين أمام الله والناس . وقد أدهشنا منه اهتمامه بنا واطلاعه اليومي على احوالنا واحوال اولادنا . وإذ كان يمرض احدنا ، كان هو يصوم ويصلي لاجل شفائه بتضرعات حارّة . واكبر دليل على تلك المحبّة ، رسائله الكثيرة الى الغائبين من اولاده عن دمشق ، فانها تقطر عذوبة وحناناً ، وكنّا نقرأها بشوق ولهفة ونشعر بان قلوبنا تهتز في دواخلنا . فمن ذلك ما كتبه الى شقيقتنا إيلين وهي مقيمة في باريز عند شقيقها الدكتور حنين[1] :

« . . . انا والدك عندما سافرتِ ، دعوتُ الك كثيراً بقلب قد اذابه حب
« يسوع وحبكم وحب اولادكم المحبوبين مني بالرب يسوع المسيح . وانا والدكم
« ولو كنت اكبر الخطأة ، فدائماً ويومياً احضر القداس على نيتكم جميعاً طالباً
« اليه تعالى بقلب ذليل خاشع ان يحفظكم جميعاً بيمينه العلوية » .

فأجابته[2] إيلين بالرسالة التالية التي تسيل رقةً وحناناً بنوياً :

---

(١) ١٢ تموز سنة ١٩٢٩

(٢) تموز سنة ١٩٢٩

أبي العزيز القديس

من بعد تقبيل اياديك الطاهرة وطلب دعاك أكتب لك هذين السطرين لانني اتعزى نوعاً ما بانني ولو في المكتوب ، لا بالحقيقة ، أخاطبك واشعر بذاتي ان ليس الواجب الذي يدفعني بان أكتب اليك بل المحبة البنوية التي تزداد معي يوماً فيوماً من حين ما فارقتك . واتذكر دائماً بقلب منكسر وعينين مبلولتين من الدموع بذلك الفراق المؤلم وكلامك الذي ترك لي تأثيراً عظيما فانني اطلب دائماً من الله ان يجمعني فيك لكي اقبل أياديك الطاهرة واخدمك لان خدمتك هي بركة لمن يخدمك .

كتبت لي العزيزة روز بانك من بعد استماع القداس تذهب الى الشحاذة وترجع الظهر بوجه ضحكان لجمع عشرة او اثني عشرة ليرة ذهب ، وبعد الظهر تهتم بالمكاتيب لشكر المحسنين او لارسال وصولات . وهكذا تمضي النهار كله وانت تهتم بالفقراء . الله يطيل لنا عمرك لاننا على يقين بان الله لا يضيع احداً من عائلتك بوجود هكذا والد قديس لنا واب الى الفقرآء .

. . . .

أنهي مكتوبي هذا بتقبيل اياديك الطاهرة واطلب من الله ان يطيل عمرك ويعطيني النعمة ان اشاهدك

ابنتك المشتاقة اليك

ايلين

« وقد حدث يوماً لشقيقتنا روز حادث مكدِّر . فلم يشأ ان يخبر به اولاده الغائبين إلّا بعد نجاة شقيقتنا من الحادث لئلّا يزعج إخوتها . فمن الكتاب التالي الذي بعث به الى حنين وايلين ، يعلم كل احدٍ عظم المحبة التي كانت لنا في قلب والدنا :

« في كتابي الماضي لكم ما اردت ان اخبركم عن القطوع المهول والخطر
« الذي مضى من مدة بسلامة على ابنتنا الحبيبة روز وهي دائماً ما ارادت ان

«نخبركم به لئلّا ينشغل فكركم . والآن حيث صار ماضي مدة فأردت ان اخبركم
« عنها لكي نشكر الباري تعالى دائماً على انعاماته التي يفيضها علينا جميعاً لانه
« نجانا من مخاطر قوية ومهولة . وهذا الخطر الكبير الذي مضى على ابنتنا الحبيبة
« روز هو هذا : كانت نازلة الى القبو ، ولابسة قبقاب والقطة واضعة عظمة
« كبيرة في اول درجة القبو . فلما دعست على اول درجة وعلى العظمة ، زحلت
« رجلها وهوت على طولها ورأسها الى اسفل فوصل الى اسفل درج القبو وخبط
« على الارض جنب طنجرة بلا غطآء . فلو حكم رأسها على حفة الطنجرة — لا
« سمح الله — لكان انفلق قطعتين بلا شك . . . فقلوبنا احترقت بالحزن ، وانا
« الممتلىء من الخطايا لست مستحقاً هذه النعم الغزيرة . وصمت صيام الفرح
« والسرور شكراً لله على كل هذه النعم الغزيرة التي يفيضها علي انا العبد
« الخاطىء ودائماً يفيضها علينا . . . فلا ينشغل فكركم ولا تتوهموا من وقعة
« روز الحبيبة على درج القبو . وبلا شك كانت عجيبة عظيمة من حيث انه ما
« أصابها شيء ابداً فالحمد لله دائماً [1] . »

« على أنّ محبته لنا قد تجلّت بابهى مظاهرها يوم تقدّمنا على مرأى منه الى المناولة الاولى . فحسب ذلك اليوم عيداً عظيماً في بيته . وكلما تقدمنا الى الاسرار المقدسة مع اولادنا او معه هو نفسه ، كان يفرح بنا فرحاً يترجم عنه بالدموع الغزيرة ، كما تشهد بذلك احدى كتاباته [2] الى حنين وإيلين ، حيث يقول :

«اليوم الصبح توجهنا الى الكنيسة لحضور القداس الالهي ومعنا اولغا وبلانش
« وبيرو وجورج وجوزف ، بكل احترام ، وركعنا امام يسوع المسيح بالكنيسة .
«ووقت المناولة أولغا تقدمت الى المناولة وقدامها الحبيب جورج اول كل الناس ،

---

(١) ٢٣ حزيران سنة ١٩٢٨ (٢) ١٢ تموز سنة ١٩٢٩

« وانا بقيت لآخر الكل ، فعندها تأملت بمناولة هذا الملاك جورج بيطار اول
« الكل وانا الاخير جورج بيطار الخاطىء ، فطفرت الدموع من عيني كالمطر
« وبعده خرجنا من الكنيسة بكل خشوع وقلبي مملوء وطافح من السرور
« الذي استولى عليَّ في ذاك النهار البديع . »

« فلقاء تلك المحبة التي كان يخصنا بها والدنا ، نحن واولادنا ، كنا نقابله بمحبة بنوية عميقة ، وقد حسبنا وجوده بيننا بركة لنا ، وملجأً نفزع اليه إبان المحن . فذات يوم مرض ابن ابنته حنينة ، ميشال سارة ، وظهرت عليه اعراض حمى التيفوئيد حتى خشينا على حياته . وكان والدنا حينذاك في قرية المعرّة بضواحي الشام ، يتعافى من ضعفٍ ألمّ به . ولمّا اشتد الخطر على الحبيب ميشال ، ولم يكن والدنا عالماً بحالته ، استدعيناه من المعرّة رغم انه كان مريضاً ، ليصلي لاجله . فبدأ يصوم ويصلي دون انقطاع حتى ظهرت عليه امائر التعب الشديد واضطرّ ان يذهب الى بيته ليستريح . ولكنّ حالة المريض الصغير اشتدّت جداً في غياب جده حتى كدنا نقطع الامل من شفائه . فأسرع صهرنا خليل وارجعه ليصلي لاجل الصبي ، ومنذئذٍ لم يفارقه ولم يكف عن الصلوات والصيامات حتى شُفي ميشال شفاءً تاماً . وشكرنا الله على هذا الشفاء الذي حسبناه اعجوبة ظاهرة منَّ بها علينا عزَّ وجل بوساطة والدنا .

« ومن فرط محبته الابوية هذه ، كان يفرح فرحاً عظيماً كلما

رزقه الله او رزق بنيه المتزوجين ولداً. فكان يحمله بين يديهِ ويقيسه ويأخذ وزنه، ويتبادر الى ذهنه أن هذا المولود الجديد سيكون يوماً عوناً له في خدمة الفقراء وجمعية القديس منصور، كما يتبين ذلك من كتابات خاصة كان يقيد فيها تاريخ ميلاد الطفل وتاريخ عماده :

« نهار الثلاثا الواقع في ٢٣ ك٢ سنة ١٩٢٣، الصبح الساعة الثامنة، ماري الحبيبة قرينة ولدنا الحبيب الياس بيطار ولدت لنا طفلًا جميلًا وسندعو اسمه جورج ونسأل الرب الاله أن يحفظه بيمينه العلوية من جميع مخاطر هذا العالم ويمنحه دائماً الصحة الروحية والجسدية ويكون دائماً المثال الصالح لجميع الناس وسنداً عظيما لعموم جمعيات القديس منصور.

« نهار الثلاثا الواقع في ١١ اذار سنة ١٩٢٤ الساعة واحدة ونصف بعد نصف
« الليل، الحبيبة ماري قرينة ولدنا الياس بيطار ولدت لنا طفلًا جميلًا وسندعو
« اسمه يوسف او ميشال بيطار وقت عماده. وانا بقلب خاشع أطلب لديه تعالى ان
« يحفظهم مع اولاد عمتهم الحبيبة حنينة من كافة المخاطر الروحية والزمنية
« ويكون المثال الصالح لجميع الناس ويعتنوا بخدمة الفقراء اخوة يسوع المسيح،
« لاجل اكتساب الملك السماوي المعد للذين يحبون الله والقريب اي كل الناس. »

« وقد ورث عنا اولادُنا محبة جدهم الى حد انه لم يكن يهدأ بالهم الا بان يتمتعوا بنظرة اليه، او بقبلة يسترقونها او ببركة ينالونها. ومن اعذب دلائل هذه المحبة تلك الرسائل اللطيفة التي كان يبعث بها صغارنا الى جدهم وهم بعد على مقاعد المدارس. فمنها رسالة (١) من اليس سارة ابنة ابنته حنينة :

(١) ٧ حزيران سنة ١٩٢٧

« أقبل يديك واطلب دعاك . وبعد اعرض ان كسلي قد اخجلني لانه
« مضى علي وقت طويل دون ان اكاتبك . أرجوك خاصة ان لا تظن ان عدم
« مكاتبتي لك ناتجة عن النسيان . كيف يمكن أن ننسى جداً عزيزاً وطيباً
« مثلك . بل أقر لك أني كسلانة : قد وجدت فرصة لاكتب اليك من يومين
« وما استفدت منها . أما هذا المسآ ، أخذت القلم بسرور عظيم لاخابر جدي
« الحبيب . بل اتاسف فقط على الهنيهة القصيرة التي تسمح لي دروسي ان
« اكرسها لك . . .

« يوم الاثنين كان الاحتفال باول قربانة لثلاثين بنتاً من الفقرآء متزينة
« بالغطاء الابيض واكاليل الورد وخصوصاً بطهارة النفس . واحداهن كانت
« وقعت من سطح عال وانضامت كثيراً ومع ذلك كانت موجودة مع بقية
« الاولاد وتناولت مناولتها الاولى وأتت اليوم الى الكنيسة من الساعة السابعة
« لتحضر القداس وتتناول ثانية . فما اجمل هذه الفقيرة . . . .

« ارجوك ان تخبرني عن صحتك وعن حالة الفقرآء . اما الان فقد انتهى
« وقت الدرس . وبما أن الطاعة احسن شيء ، أختم تحريري طالبة من الله ان
« يطوّل لنا حياتك ، ومنك الدعاء لنفسنا وانا لم ازل ابنتك الودود . »

« وفي رسالة اخرى تخاطبه هكذا :

« لما افتكر بك اظن انك دائماً سائر في الطريق ، طالعاً من بيت وداخلاً
« الى بيت لتطلب حسنة للفقرآء او لتعطيهم الحسنة . الله يديمك لهم . »

« وبهذا العطف البنوي عينه كتبت⁽¹⁾ اليه شقيقتها اولغا سارة .

« من بعد تقبيل يديك والسؤال عن صحتك واستعذر منك لان صار لي

---

(١) ٢٤ آذار سنة ١٩٢٨

« زمان ولم اكتب لك . انا قابلة المعذرة بحيث في هذا الوقت عندنا الفحوص . . .
« انا اصلي لاجل جميع عيلتنا وخصوصاً لاجلك واقول لله ان يحفظك وقتاً طويلاً
« لنقدر ان نفرح في الدنيا . وانا دائماً احب المناولة واتناول كل يوم . واطلب
« من الله ان نصير قديسين مثلك لنلاقي بعضنا في السماء . . . . »

وفي رسالة غير هذه تخاطبه اولغا هكذا :

« اننا نهيء العاباً للفقرآء وانا اعرف انك تحبهم كثيراً واقول لك هذا حتى
« تصلي لاجلنا . . . وقد قالت لنا الراهبة : اعملوا اماتات شديدة . ويوم عيد
« الصعود عملت قربانة احتفالية . فاعمل معروفاً وصلِّ لاجلنا حتى اقدر ان اتبع
« تعليم يسوع وان احبه كثيراً . . .

« ومن ذلك ايضاً رسالة خاصة من اليس الصغيرة ابنة ابنهِ حنين عن باريس :[١]

ياجدي المحبوب

« أنا اليس الصغيرة ، أبوسك من خدك ، ومن يدك القديسة ، باركني ياجدي
« العزيز . انا مبسوطة كثيراً ان لي جد قديس مثلك . وانا آتية لعندك في هذه
« الصيفية . »

ابنتك الصغيرة
أليس بيطار

« على أن تلك المحبة المتبادلة بيننا وبين والدنا ، منذ صغرنا ، لم تكن من نصيبنا نحن فقط ، بل انها كانت ايضاً بينه وبين جميع الناس عموماً وبنوع اخص بين الاطفال ولا سيما اطفال الفقرآء . فمنذ عهد بعيد ، كان تعين والدنا وكيلاً لاوقاف البطريركية في قريتي معرّة ومعرونة بضواحي دمشق . وكان

(١) ١٥ تموز سنة ١٩١٩

يتردد الى معرونة مرات كثيرة في السنة ، ويوزع على فقرائها شيئاً كثيراً من حسناته . فتعلق به اهاليها تعلقاً شديداً وطلبوا منه ان يكون عراباً لاولادهم في المعمودية . فكان يجيبهم ببشاشة الى هذا الطلب ، حتى قل في معرونة من لا يناديه بكلمة « ياشبيني » ، كما يشهد بذلك مطلع انشودة نظموها في هذا الموضوع :

ياشبيني جرجي بيطار   نشهد لك انك نجار
وكيل على الطفرانين   وريّس على ولاد الكار

« وهو الذي هيأ وحفر بيديه جرن المعمودية في كنيسة القرية المشار اليها . « وفي كل سنة ، كنا نذهب الى قرية المعرّة للاصطياف ، فكان يأخذ اولادنا الى الكنيسة لتنظيفها وإعداد الستائر للهياكل وتزيينها ، ليخلق فينا الغيرة على الاعتناء ببيت الله .

« ففي كل هذه الشؤون والعلائق التي كانت بيننا وبين والدنا ، لم نشاهده إلا هادئاً ، ومبتسماً ابتسامة الحب والحنان . ولكنّه لما لحظ ان المُوْدَة في لبس النسآء أخذت تنتشر في دمشق ، غضب غضبةً مقدسة ، كان لها دوماً نفوذها الصالح الفعّال ، ومع ان لبس بناته كان محتشماً ، فخشية ان تتسرب المُوْدَة اليهنّ ، أخذ يحذرهنّ من شرها .

« وكان لشقيقتنا روز مَيل الى التفنُّن في الخياطة . فأحبت ان تخيط يوماً فسطاناً مزدوجاً ، دون ان تخرج فيه البتة عن حد

الحشمة . فلمّا رأى ذلك والدنا استدعاها اليه وقال لها : « يا ابنتي « الحبيبة ، اني انتقد على هذا الفسطان ، لانك استخدمت فيه « زيادة في القماش غير ضرورية ، وكان يمكنك بثمن هذه الزيادة « ان تشتري للفقير ثوباً . فيجب إذن ان تأخذي ما يكفيك ، على « ان يكون الفرق للفقير » . ثم قال لنا بنكتة ظريفة : « لماذا « تهوى السيدات المُودَة العصرية ؟ فاذا كانت اذرعهنّ بشعة ، « وجب عليهن سترها ، واذا كانت بيضاء ، وجب ايضاً سترها « لئلّا يشككن الناس » . وكذلك كان يحرضنا دوماً على اللبس المحتشم ، وهو نفسه كان لنا مثالاً في الاحتشام والابتعاد عن الزهو في لبسه كي لا يتميّز عن باقي الناس .

« وقد عثرنا في إحدى كتاباته على التنبيه التالي :

« تنبيه مهم الهمني اليه الهنا الرحوم جملة مرات لكي اعلنه : يا اخوتي « واعزآءي واولادي ، اني اتضرع اليكم باسم فادينا يسوع المسيح وشفيعتنا « مريم البتول الكلية الطهارة وملجأ الخطأة الذين انا اولهم ، وانطرح على « اقدامكم واقبل ايديكم جميعاً لكي تكون ملابس نسائنا وبناتنا محشومي « الايدي والعنق والارجل ، ولا نجعل سبباً لطبيعتنا الضعيفة ان تسقط في « الخطيئة . واتوسل اليكم يا اخوتي الرجال ان نسعى جميعنا باصلاح هذا الحال « ونتوسل اليه تعالى ان ينجينا من كافة الامراض والمصائب الروحية والزمنية « ويوفق اعمالنا آمين » .

كاتبه

الحقير جرجي بيطار

خادم الفقرآء إخوة يسوع المسيح

« وعثرنا أيضاً بين اوراقه الخاصة على كتابة حمل فيها على الازياء الخلاعيّة قائلاً :

« أنا من زمان طويل ، أحب وأقصد ان تكون كل ازياء وملابس النساء محشومة ، وانا دائماً كل ما كان وقت يصير فيه التكلم بخصوص قلة الاحتشام ، فألوم بكل لطف تظليط الايدي وتقصير الفساطين التي تسبب الشك لكل الرجال لان فادينا الالهي يسوع المسيح قال لنا جميعاً : الويـل لمن تأتي منه الشكوك . خير له ان يتعلق في عنقه حجر الجُبـلى الذي في بعلبك ويزج في البحر . . . والرجل الذي يريد ان يسلم من هذا الشك اي من النظر الى هـذا التظليط وقصر الفسطان يلزمه ان يرمد عينيه الاثنتين فيسلم من هذا الداء المعدي . ومن زمان ، كانت سيدة تأتي كل يوم الى الكنيسة ومعها ابنتها الصبية ويحضروا القداس الالهي بأيدي مظلطة وفساطين قصيرة . وبعد ذلك مرضت الصبية وكان مرضها قوياً الى ان بارحت هذه الحياة . وصارت الوالدة تأتي كل يوم الى الكنيسة لحضور القداس الالهي وهي لابسة الاسود بكل احتشام من الرأس الى القدمين . وقبلاً طبعاً سمعت جملة مرات التنبيه عن الحشمة والتظليط وقصر الفساطين وما اعتبرت هذا التنبيه بل قال البعض منهم . . . خلّوا المطران ينبحّ حلقه . وهذا الكلام الفظيع سمعته باذني من الستات وانا واقف بدار الكنيسة . فسيدنا البابا وعموم عساكر المسيح ملزومين ان ينبحّ حلقهم بهـذا التنبيه وغيره الذي هو تنبيه معلمهم الالهي يسوع المسيح ! وانا كنت ارى هذا التعرّي ، وانبه عليه والدموع تهطل من عيوني ، واوبخ عليه بلطف ، لانه اقوى فخ عند ابليس يصطاد به الانفس المشتراة بسفك دم فادينا الالهي يسوع المسيح . والاحسن لهؤلاء السيدات ان لا يأتوا الى الكنيسة لئلّا يرموا بعض الشبان والرجال حتى الشيوخ ايضاً بالشهوات اللحمية التي دائماً تحاربنا ونحن ضعفاء . ولا قوة لنا على محاربتها إلّا بالالتجاء الى ملجأ الخطأة الوحيد لكي لا يعاملنا الرب الاله باعمالنا الشريرة بل يشفق على ضعف طبيعتنا المائلة دائماً الى الشر . »

وبهذا المعنى كتب[1] الى إحدى بناته في باريس قائلًا :

« انه من واجباتنا ايتها الحبيبة ان انبهكم عندما تأتوا الى الكنائس ان تكون كسوتنا محشومة وبكل احترام لكي يقبل الله صلواتنا وينجينا من المصائب ويغفر لنا خطايانا . فكيف نظهر امامه في الكنائس بأيدي مظلطة وبدون احترام، الواجب علينا وهو تقدس اسمه نبهنا وقال لنا جميعاً : اذا اجتمع اثنان او ثلاثة بأسمي فانا اكون هناك في وسطهم . فالبنات والستات الذين يأتون الى الكنائس وهم بتلك الحالة المحزنة ، فأنا الخاطىء أشور عليهم أن لا يحضروا القداس أيام الآحاد والاعياد فيكون خطأهم اقل من ان يحضروا بتلك الحالة التي تغيظ فادينا الالهي يسوع المسيح ، الذي طرد من بيته اولئك الذين يتكلمون ويبيعون ويشترون، لان التظليط وعدم الاحترام أشر من البيع والشراء والآن صار عندنا الربيع وما كان البرد خلص ، وكنت انظر البعض من الستات يأتون الى الكنيسة مظلطين الايدي والفسطان قصير لفوق الركب . ويوم الاحد الماضي كان احد توما وانا راكع على البنك في القداس . ولما صار وقت المناولة تقدم الرجال والستات للمناولة . فتقدمت ابنة صبية وجميلة ويديها مظلّطة . فالكاهن خجل ان يناولها حيث كان تنبَّه على الكهنة ان لا يناولوا المظلطين الايادي . ولما انتهى القداس حالاً قمت واتيت اليها وقلت لها : يا ابنتي انت لست منتبهة وقد كان الافضل لك ان لا تتناولي بهذا الحال . فالابنة خجلت والستات الذين حولها لاموها . وقلت لها ايضاً : لا بأس انت الان يا ابنتي غير منتبهة فانتبهي ونبهي غيرك لكي يرضى الرب الاله علينا ولا يعاملنا باعمالنا .»

« وكان من عادة جمعية القديس منصور ان تنتقي إحدى الروايات الادبية ، لتمثَّل على مسرح ناديها ، على ان يكون ريعها لمساعدة الفقرآء . وكان والدنا حينذاك رئيساً للجمعية . فلمّا عرف

---

(١) ٢٨ نيسان سنة ١٩٢٨

ان في تلك الرواية دوراً نسائياً ، منع تمثيلها منعاً باتاً . فقال له احد أفراد الجمعية : يا أبو جبران ، ان هذا الدور ليس فيه ما يمس الآداب . فأجابه فوراً : لا أريد ان يظهر النسآء على المسرح امام الجمهور، ان الله تعالى يعرف ان يدبر لنا ريعاً من غيرهذه الطريقة . وأبى إلّا ان يبطل تمثيل الرواية . في اليوم التالي نقده احد المحسنين كمية أعظم بكثير من الريع الذي كانت ترجوه الجمعية من تمثيل الرواية .

« ولكي يزيدنا كرهاً لهذه المُوْدَة العصرية ولجميع أفراح الدنيا الزائلة ، كان يعلمنا دائماً ان لا نتعلق بالدنيا ، ويقول لنا : « يا أولادي نحن مسافرون ، وبيتنا في السماء ! » ولمّا بعنا بيتنا الذي بحارة اليهود ، وكانت والدتنا راغبة في ان نشتري بيتاً آخر كان يكرر لنا قوله : « ليس ضرورياً ان يكون لنا بيت على الارض ، لان بيتنا في السماء . »

« وما عدا هذا فلم يكن يملّ من تحريضنا ، سوآء بكلامه او بكتاباته ، على التعبُّد الدائم للعذرآء مريم والاشتراك في اخويتها المقدّسة ، مبيناً لنا ان هذه العذرآء المجيدة « هي أمّنا وهي ابونا ». وقد كتب في ذلك قائلاً :

« أنا عبد للعذرآء من زمان طويل ، ومشترك بأخويتها من قبل طوشة سنة ١٨٦٠ . وقد اشتركنا في هذه الاخوية بزمن السعيد الذكر البطريرك

مكسيموس مظلوم وهو الذي أسس هذه الاخوية المباركة التي اعرف ذاتي أني ما قطعت حضورها احداً واحداً إلّا وقت الضعف والسفر . وحينما أكون طريح الفراش اعمل الاخوية بالبيت حتى لا تنقطع اوقات صلاة الاخوية ، وانا ارجو جميع اولادي واخوتي المسيحيين ان لا يتأخروا عن الاشتراك بهذه الاخوية المقدسة ، لان العذرآء هي ملجأ الخطأة الذين انا اولهم ، وليس لنا افوكاتو غيرها ، لاني انا من زمن طويل وسنين عديدة موكلها افوكاتو عني وببلاش . لانه ما معي غرش واحد لكي ادفعه أجرة افوكاتية ، وصرت أطفر من الطنبورة حتى يكون ضميري مرتاحاً دائماً . »

فتلك كانت حياة هذا الرجل ، بين افراد عائلته ، وهي لعمري حياة يجدر بجميع آباء العائلات المسيحية ان ينسجوا على مثالها ، ليكونوا قدوة صالحة أمام الله والناس ، فانهم لم يصيروا آباء ومشاركين لله في الخلق إلّا ليعملوا عمل الله في انشآء عائلة مقدسة .

الفصل التاسع

اسطنبول سنة ١٨٩٥

اسطنبول الملقبة « دار السعادة » ، لم تكن في ذلك الوقت دار السعادة ، بل دار الخوف والهلع . فمن ذلك القصر المظلم الظالم ، قصر السلطان الطاغية ، عبد الحميد ، كانت تصدر اوامر الذبح والقتل ، ولا مبرّر لها غير الارادة الشاهانية ، والانانية القتالة .

وكان ذلك السلطان ، او « الرجل المريض » كما سماه بعض المؤرخين ، لا يذوق يوماً طعم الراحة والحياة الهانئة ، ولم يكن يجد وقايةً لحياته في سوى قتل من كان يتوهّم فيهم العدآء . وقد بلغ به خوفه على حياته الى حدّ أنّه لم يكن يقبل في قصره ، لاعداد طعامه ، غير راهبات المحبّة ، فكنّ يهيئن له الطعام ويضعنه ضمن وعآء مختومٍ بأيديهنّ الامينة ، ولا يفضُّ الختم سواه . وكفى بذلك شهادةً على صدق المحبّة المسيحيّة والوهيتها .

وقد قيل : لو استخدم السلطان عبد الحميد عُشر ذكائه في سياسة بلاده ، لكان أعظم رجلٍ في عصره .

ولذلك كان الولاة في جميع اقطار السلطنة العثمانيّة ، يخشون بوادر غضبه وصواعق نقمته بين لحظةٍ واخرى ، فكان همّهم

الاول ارضاء مولاهم بالهدايا الفاخرة ، او بالوشاية بمن يتصورونه عدوًّا لجلالته. والحمد لله أنه لم يخطر في بالهم ان يرموا جرجي بيطار بوشاية ما لدى السلطان، بل كانوا يتقدمون اليه في إعداد التحف التي يريدون اهداءها لجلالته استرضاء لخاطره الشاهاني .

وكان جرجي وقتئذٍ ذائع الصيت ببدائع صناعته ، ولا سيما بعد ان اشتغل لقنصل النمسا بدمشق ، مكتباً كاملاً كان قد طلبه ذلك القنصل لتمثيل الصناعة الدمشقيَّة في معرض فينَّا الصناعي سنة ١٨٩١ ، وقد نقده القنصل لقاء ذلك مئة ليرة عثمانية ذهباً .[١]

وكان والياً بدمشق سنة ١٨٩٥ سعيد باشا الملقَّب « بامير الحج » . فلمَّا شاهد جمال الصناعة التي اخترعها جرجي بيطار استدعاه اليه واوصاه بشأن هديَّة نفيسة من تلك الصناعة ليرسلها الى السلطان عبد الحميد بمناسبة المعرض الصناعي الذي شُكِّل وقتئذٍ في اسطنبول ، وكلّفه السفر الى اسطنبول للاشراف بنفسه على نقلها ضمانةً لوصولها سالمة .

واليك ما كتب صاحب الترجمة ، في هذا الموضوع ،

---

(١) وكان قبل هذا التاريخ قد اشتغل صندوقة ذات مدارج (جوارير) سرية هي اول شغله في صناعة التنزيل (الموزاييك) . وقد اهداها ذووه الى متحف دير المخلص حيث تحفظ كذخيرة فن وفضل .

Georges Bitar, Artiste en Mosaïque de S. M. I. le Sultan

جورج بيطار باش موزايقجي الحضرة الشاهانية

رسم للفقيد مع نماذج من شغله

بسذاجة مسيحيَّة تشفّ عن فضيلة راهنة[١] : «اني اخترعت منجور الموزاييك ، وتخلّق معنا بهذه الصناعة اشغال كثيرة وناعمة جداً . فوالي الشام سعيد باشا امير الحج ، سنة ١٨٩٥ ، لما شاهد جمال هذا الشغل ، وكان مراده ان يرسل هديَّة الى السلطان عبد الحميد ، طلبني اليه واوصاني على خمسين قطعة ، خزائن ومكاتب ، ومن جملتها طقم كراسي كامل .

« ولما انتهى الشغل ، قال لي الوالي : خذهم الى بيتي ، بعد أن تحضِّر لهم صناديق لتعبايتهم ، وعبّيهم امامي في البيت ، حتى انظرهم كلَّهم وانبسط بشوفتهم ، لاني انبسطت كثيراً بهذه الصنعة التي اخترعتها . ولاجل ذلك اريد واحب كثيراً ان تسافر الى الاستانة العليَّة ، حتى يراك السلطان عبد الحميد ، وانا اعرّفه بانك انت الذي اخترعت هذه الصنعة ، وانا اعطيك كل مصاريف سفرك ، واجرة عطلة ايامك التي تسافر فيها الى اسطنبول . وهكذا صار .

« ولما انتهت كل هذه الاشغال ، وعملنا الصناديق اللازمة لها ، نقلناها لبيت سعيد باشا ، وهناك بقينا قدر اسبوع ، ونحن نلفُّها بالورق ، ونركزها ضمن الصناديق وقد كتبوا على كل الصناديق بان ضمنها «بضاعة لجلالة السلطان المعظَّم عبد الحميد خان.» وهكذا نقلوهم الى محطة السكّت (السكة) وشحنوهم لبيروت ،

---

(١) من كتابات صاحب الترجمة .

وانا سافرت معهم الى بيروت .

« وقد اتى مركب خصوصي الى بيروت ليحمل هذه الهديّة والاشغال ، وهديّة اخرى من عبد المجيد ، شيخ العرب ، رؤوس خيل من اهم خيل العرب ، لان السلطان كان طلب من عبد المجيد ، شيخ العرب ، أن يحضر الى اسطنبول لكي يواجه السلطان .

« وهكذا نزلنا في المركب كلّنا ، ولمّا وصلنا الى اسطنبول استقبلنا الحج علي بك في سرايته ، وضافنا عنده ، لأنه كان صديقاً لسعيد باشا ، وشيخاً كبيراً عند السلطان عبد الحميد . وكان جلالة السلطان كلّ يوم يقبِّل يديه لأنه شيخٌ جليل ، وكان السلطان يعتبره كثيراً ، وابن هذا الشيخ هو ياور عند السلطان . فلمّا يصير وقت الاكل ، كان هذا الياور الشريف اللطيف ياخذني ويضعني بجانبه ويقدِّم لي الاكل بيده . وكان ياخذني الى بعض المحلّات للفسحة . »

ولم يذكر صاحب الترجمة في كتاباته هذه ، ذلك الاعجاب السامي الذي كان لصناعته في نفس جلالة السلطان ، حينما شاهد الهديّة . وقد روى عنه أحد أحفاده أنّه توارى عن العيان يوم وصول الهديّة . وكان جلالة السلطان عبد الحميد استدعى امهر النجّارين لتفكيك الصناديق وتركيب الخزائن .

وكان بين هذه الخزائن خزانة دقيقة الشغل والتركيب ، وعبثاً حاول اولئك النجارون أن يفتحوا مدارجها بعد تركيبها .

فحاروا في الامر وعجزوا عن كشف سرّ تلك المدارج . فامر السلطان باستدعاء جرجي بيطار ، فحضر وتظاهر هو أيضاً بجهله سرّ المدارج . واذ كان النجارون وكبراء القصر السلطاني واقفين ينظرون بدهشٍ واعجاب ، مدَّ جرجي يده بحركةٍ خفيفة الى مفتاح سرّي ، وضغط عليه بخفةٍ ورشاقة ، فانفتحت المدارج كلّها دفعة واحدة ، فبهت الحاضرون وانكشف امامهم سرّ الخزانة .

وقد اعجب السلطان بالهديَّة ولاسيما هذه الخزانة السرية فسأل ماذا يريد جرجي بيطار مكافأةً . واذ كان كثيرون قد أشاروا على جرجي بان يطلب امتياز الفنّ الذي اخترعه ، فقد أبى ذلك تواضعاً منه ومحبّة لوطنه وللقريب ، وقيل ان جرجي اكتفى بان يلتمس من السلطان ان يشمل جمعيَّة القديس منصور برعايته السنية .

على ان جلالة السلطان نقد جرجي مبلغاً وافراً ، وانعم عليه بوسام المجيدي الخامس ، وبمدالية الافتخار الفضيَّة ، وقد ورد في شهادة الوسام ما نصُّه :

« أحسنت الحضرة السلطانيَّة ، على قدوة الاماثل والاقران ، النجّار الفنّان ، جرجي افندي بيطار ، بالوسام المجيدي الخامس ، مكافأة لما ابداه من العاطفة الانسانيَّة ، والخدم الممدوحة ، بمناسبة المعرض الذي شُكِّل في دار السعادة ، ترويجاً للصناعة والزراعة ، في اليوم التاسع من شهر شوال سنة ١٣١٥ »

وورد في شهادة المدالية الفضّية ما نصُّه :

« أحسنت الحضرة العليَّة السلطانيَّة ، على جرجي افندي بيطار من اهالي

الشام بمدالية الافتخار الفضيَّة المنشأة لمن يمتازون في الصناعات ، مكافأة له على اتقانه فن الفسيفسآء ، وتنشيطاً للامور الزراعيَّة والصناعيَّة في الممالك المحروسة ، في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣١٥ (١) »

وانتهز جرجي فرصة وجوده في اسطنبول ، لزيارة بعض اماكن المدينة الاثرية واهمّها جامع أجيا صوفيا (٢) وكان الياور المذكور يرافقه في زياراته هذه حسبما كتب جرجي قائلاً :

---

(١) ترجمة حبيب باشا السعد عن اللغة التركية . — هذا الوسام وهـذه المدالية محفوظان في متحف دير المخلص .

(٢) في سنة ٣٢٥ شاد قسطنطين الكبير كنيسة على اسم « أجيا صوفيا » (الحكمة القدوسة) في مدينة بيزنطية التي جعلها عاصمة مملكته واطلق عليها اسمه فدعيت القسطنطينية منذ ذلك العهد ، وتعرف اليوم باسم اسطنبول . الا ان تلك الكنيسة احترقت سنة ٤٠٤ في ايام الملك اركاديوس فرممتهـا الملكة بولكاريا ، ثم بنيت بنآء جديداً شرع به وانجزه الملك يوستينيانوس . وقد قال يوماً هذا الملك الكبير عند عبوره في المضيق الذهبي (Corne d'Or) مقابل ذلك الموضع حيث كان يرتفع البنآء : « لا بد ان تصبح هذه الكنيسة اجمل الكنائس وابقاها على الزمان » . وقد اشتركت المملكة الرومانية البيزنطية كلها في بنآء هذا المعبد العظيم . فالثمانية الاعمدة التي كان اوريليانوس قد نقلها من بعلبك الى رومية أتي بها الى بيزنطية ، ومعابد أثينا ومصر ساعدت على تزيين بيت الله القائم على شاطىء البسفور . واما رسم الكنيسة فقيل ان ملاكاً قد اوحى به الى الملك يوستينيانوس وهذا قد عهد بتحقيقه الى ثلاثة من ابرع المهندسين في ذلك العصر هم انثيموس وايسيدوروس واغناطيوس . ومرات كثيرة كان الملك يقوم بنفسه بتفقد الاشغال لـكي يستحث همة العمال البالغ عددهم عشرة آلاف ومعلمي البناء الذين كان عددهم يربو على المئة .

« أخذني الياور مرّةً الى جامع أجيا صوفيا ، نهار الجمعة . فادخلني الى ذلك الجامع العظيم ، وقت صلاة الظهر . وكان الجامع

ان اجيا صوفيا ، كما ظل الاتراك ايضاً يسمونها ، لا تزال حتى في ايامنا آيةً ناطقة بعظمة وغنى الاجيال الماضية . فمصاريفها قامت على مداخيل خراج الامبراطورية كلها . وظل الشغل المتواصل فيها ست عشرة سنة . وكان الفراغ من بناء هذه الكنيسة الملكية الفخمة سنة ٥٤٨ . فدُشنت باعياد استقامت اربعة عشر يوماً وقد هبت في نفس الامبراطور نشوة الفرح العظيم فقال في احد اوقات اغتباطه هذه الكلمات المأثورة : « احمد الهي الذي اهلني ان انجز هذا العمل العظيم . لقد غلبتك يا سليمان ! »

وبعدما سقطت القسطنطينية في ايدي الاتراك ليلة ٢٩ — ٣٠ ايار من سنة ١٤٥٣ دخل محمد الثاني الفاتح كنيسة اجيا صوفيا ، ولكن لا يظهر من المؤكد انه دخلها راكباً جواده ، خلافاً لما ورد في التواريخ التقليدية . وما ان وقع نظره عليها حتى ملكته منها تلك الروعة الفائقة فأبى تعطيلها بل امر بابقائها كما هي وبتحويلها الى جامع . واول مأذنة رفعت لها قامت بامر الفاتح نفسه . واضيف اليها مأذنتان أخريان في ايام سليم الثاني والمأذنة الرابعة قامت في ايام مراد الثالث سنة ١٥٧٣ . وفي عهد هذا السلطان وُضع فوق القبة هلال عظيم من شَبَه (برونز) كلّف على ما يظهر ما يعادل قيمة ٥٠٠٠٠٠ فرنك (٥٠٠٠٠ دوكا) ويؤكدون انه يرى من اعلى قمم جبل الاولمب في بلاد اليونان .

وفي ايام السلطان عبد المجيد قد صار ترميم عام للجامع وحينذاك امر هذا السلطان النبي بان تغطى الرسوم المسيحية ، وقبل كلّ الصليب البيزنطي ، بقشرة من الكلس الاحمر . وقد عهد بهذا العمل الى مهندسين من بلاد سويسرا اسمهما غسبارو ويوسف فوسّاتي . فتم ذلك بين سنتي ١٨٤٧ — ١٨٤٩ . وهكذا حُجبت عن الانظار شارات الديانة المسيحية . ولكن ذلك كان مدعاة لحفظها في طلاوتها العجيبة وبهائها النادر المثال . فما ابعد احكام الله عن احكام البشر !

ملآن من الناس الى الابواب وكلهم راكعون ويصلون ، وهم مصفوفون مثل العساكر . وكنّا انا والياور نمشي بين هذه الصفوف ، ولا واحد من هذه الصفوف العديدة رفع نظره الى الياور والى الذي يمشي معه وقت الصلاة بين هذه الصفوف المتخشعة .

في شهر حزيران سنة ١٩٣١ قرّر مجلس وزرآء حكومة انقرة الكشف عن فسيفسآء اجيا صوفيا وأسند هذه المهمة الى المعهد الاميركي البيزنطي . ومنذ شهر كانون الاول من السنة نفسها أخذ هذا المعهد يهتم بدرس ذلك المشروع الخطير تحت اشراف مديره العالم القدير توما ويتمور . وبعد ابحاث طويلة ودقيقة من الجهة التاريخية والفنية شرع المعهد بتحقيق هذا العمل العظيم وعهد بالقيام باعمال الكشف الى المهندس ماراغوني والى بعض الاختصاصيين في فن الفسيفسآء الذين جيء بهم خصيصاً من مدينة البندقية .

ومنذ ذلك الوقت الى ايامنا لا يزال الشغل على قدم وساق تحت رعاية واشراف الحكومة الكمالية المتنورة المقدّرة اعمال الفن الحقيقي حق قدرها .

وفي سنة ١٩٣٥ ظهر قسم كبير من التصاوير ونقوش الفسيفسآء والآثار المسيحية بعد ما رفعت عنها تلك القشرة الكلسية الحمرآء ، قشرة الجهل والغباوة والتعصب ، فاصدرت الحكومة التركية قراراً خطيراً يمكن اعتباره فارق عهدين في التاريخ ودليل عقلية جديدة في الشرق ، وهو تحويل اجيا صوفيا من جامع الى متحف فني وطني .

هذه هي التطورات التي توالت على هذه البناية العظيمة المنقطعة النظير بقدميتها وفنها وجمالها الفتان . ولا نعلم ماذا يخبأ لها المستقبل والعناية الالهية من تطورات اخرى لانها لا تزال مطمح انظار المسيحيين وخصوصاً الاغريقيين منهم الذين يعتبرونها عنوان فخر ديني وقومي معاً .

«فتنهدت ، وقلت بقلبي : يا ليت المسيحيين ، حين وجودهم ضمن الكنائس يكون عندهم هذا الخشوع ، وقت صلواتهم والذبيحة الالهية . وفادينا الالهي يسوع المسيح قال لنا بفمه العزيز إذا اجتمعتم باسمي اثنين او ثلاثة فانا اكون في وسطكم . فضروري إذن وقت وجودنا في الكنائس ، ونحن موجودون ليس اثنين او ثلاثة فقط ، بل جمهور كثير من المسيحيين وجملة كهنة ، وهم تلاميذ يسوع المسيح ، الذي وقف امام عبده بيلاطس البنطي كمذنب لاجلنا ، ونحن مملوءون من الذنوب والجرائم الكثيرة ، ضروري ان نكون واقفين امامه بكل احترام وخشوع ، كالعبد المتذلِّل أمام سيده ، لكي يغفر لنا خطايانا الكثيرة التي فعلناها بكل حياتنا .»

ولم يغفل جرجي ، حتى في مدّة إقامته القصيرة باسطنبول ، عن مساعدة المحتاجين الذين كانوا يلتجئون اليه . ودونك ما كتب في هذا الشأن :

« كنت ماشياً مرّةً في احد شوارع اسطنبول ، فنظرت رجلًا فقيراً واعمى ، وهو مصري الاصل . وكان يصرخ بلجاجة ويقول كلاماً بالعربي : يا أخونا ! الله يخلي لكم نظركم ، وكان يتسوَّل ويقول : دخيلكم ، حسنة ! ثم يقول بصوتٍ عالٍ : دخيلكم دلّوني على بيت الادب . فأتيت اليه وقلت له : تعالَ يا أخي .

وحيث إنّه فقير ، اعطيته حسنة . فبقي وقتاً طويلًا وهو يدعي لنـا من كل قلبه . وبوقته لم يكن احد في كل الشوارع يفهم الكلام العربي غيري انا وهذا الكفيف المصري المسلم . وانا فيّ عادة ، كلما نظرت اعمى كفيفاً ، في اي شارع او طريق ، آتي اليه وامسكه بيده واقول له : تعال يا اخي حتى اوصلك الى المكان الذي انت ماضٍ اليه . »

وعاد جرجي الى دمشق ، فشمل الفرح آل بيته وجيش الفقرآء الذين كانوا ينتظرون قدومه متعطّشين الى حسناته . ولكنّه على اثر وصوله مرض مرضةً كادت تودي بحياته .

كان جرجي قد انتقل من منزله في الحارة الجوّانية الى بيت كان بنـاه قرب حارة اليهود . فذات يوم شعر بألم في رأسه ، ولم يزل به حتّى اقعده عن كلّ حركة ، وكاد يغيب عن وعيه ، من شدّة الالم والحمّى التي اعترته . فلماّ انتشر خبر مرضه ، تصعّدت الصلوات لاجل شفائه ، من جميع صدور الفقرآء . وكان جميع طوائف الحارة من يهود واسلام ومسيحيين ، يصرخون بصوت واحد : فليشفِ الله لنا ابا الفقرآء ! وعبثاً استُدعي الاطباء ، الواحد تلو الآخر . وإذ كان آله قلقين على حياته ارتأوا ان يؤلفوا له جمعيّة من اشهر الاطباء برئاسة الطبيب المشهور حينئذٍ المسيو بوايّه ومعاونه الطبيب توفيق جهلان . وكلّما حضر هؤلاء الاطباء

لمعالجته ، كان الفقرآء ينتظرون خروجهم من بيت المريض العزيز ، ليسألوهم بلهفة المضطرب الجازع عن حالة ابيهم المحسن اليهم .

فلمّا شعرت إحدى بناته[1] بخطورة حالته ، حملتها عاطفتها البنويّة على الاقتدآء بموسى النبي ، وكانت قرأت عن هذا النبي ، انه كان يرفع يديه وهو يصلي الى الله لاجل شعبه ، ولا ينزلهما حتى ينال منه تعالى النعمة التي يطلبها .

فليلةً ما ، اذ حضر الاطبـآء لمعالجة والدها ، ركعت هي في إحدى زوايا البيت ، متخفيةً عن اعين الجميع ، وصلّت الى الله لاجل والدها ، رافعةً يديها الى السماء ، ولم تزل على هذه الحال حتى الهم الله الاطبـآء ، ان يعالجوا المريض بان يسحبوا الدم من راسه ، بواسطة العَلَق . وكان الشفآء في هذا العلاج .

ولم تكتفِ تلك الابنة التقيّة بما فعلت ، فذهبت وهي ممتلئة ايماناً وثقةً الى معبدٍ للعذراء سيدة لورد ، فانطرحت على قدمي العذرآء ، وقالت لها بمحبة واخلاص : « استحلفك يا عذرآء ان تاخذيني انا بدلاً من ابي . انا ليس بي عازة ، اذا رحت ، واما والدي فالفقرآء يحتاجونه . خذيني مطرح ابي » .

وكانت تقرن هذه الصلاة اللطيفة ، والعاطفة الشهمة ،

---

(١) حنينة

باماتاتٍ تتناسب وحالتها ، فقد اكلت طيلة مرض والدها ، خبز الفقرآء ، ناثرةً عليه التراب ، بدل الزعتر والزيت . واخيراً زال الخطر ، واستعاد جرجي صحته وقواه شيئاً فشيئاً ، وشكر الله تعالى على هذه النعمة . وقد جاء شفاؤه بعناية الله ، نعمةً في احرج الاوقات . فان دمشق ابتُليت ، تلك السنة عينها ، بالهواء الاصفر . فقام جرجي ، هو وجمعيَّة القديس منصور ، لمساعدة المبتلَين بذلك الوباء الخبيث ، غير حافل بالخطر المحدق به ، واذ خشيت امرأته التقيَّة ان يكون سبب عدوى لاولاده ، طيَّب خاطرها وقال لها : « ان الله منَّ علينا بالصحَّة لنخدم اخوتنا المرضى . » فكافأه الله بان ابعد شرّ العدوى عنه وعن اسرته .

الفصل العاشر

رومة او الكاثوليكي الصميم

نشأ جرجي بيطار في حضن الديانة الكاثوليكية ، وتأصلت في نفسه مبادئها فكان والحق يقال ابن الكنيسة البار العامل ، وخادمها الأمين ، في حالته العلمانيّة . وقد عُرف منذ صغره بتوقيره العميق لرجال الاكليروس ، الذين كان يتمثّل فيهم شخص السيد المسيح عينه ، مثلما أنه كان يتمثل في الفقرآء إخوة يسوع المسيح . فكان يحترمهم احتراماً صادقاً ، وما التقى يوماً بكاهنٍ إلّا انحنى امامه بتواضع واحتشام ليقبِّل يده ويأخذ بركته .

اذكر انني صادفته يوماً ، في طريقه إلى الكاتدرائيّة ، ونظراً لصغر سنِّي تفرّس فيَّ ، ولماّ عرفني مدَّ يده إلى يدي ليقبّلها ، وهو ساكتٌ لا ينطق بكلمة . ولكني احتراماً لشيخوخته المهيبة ، سحبت يدي ، لاني كنت أقوى منه ، وتركته وفي نفسي ابلغ الشعور والتأثر من تواضع ذلك الشيخ الجليل ، ولم يخطر ببالي وقتئذٍ أني سأتشرّف يوماً بدرس حياته و كتابتها .

ولم يكن احترامه لرجال الاكليروس مقتصراً على المظاهر الخارجيّة ، بل كان يذهب إليهم لاستشارتهم في شؤونه الروحيّة

الخـاصة ، او يعترف امامهم ، راكعاً بتذلُّلِ الخاطئ المتخشع ، يسمع نصائحهم وارشادهم ويخضع لهم . ونظراً لاعتقاده الراسخ بأن الكهنة والاساقفة هم قادة جيش المسيح على الارض ، وبأن رسالتهم صعبة ودقيقة ، كان يصلّي لاجلهم صلواتٍ خصوصيَّة ، ويلتجئ إلى صلواتهم . وكم مرة بكى امامهم بكاءً شديداً وهو يقول عن نفسه : « الويـل لي انا المسكين الشقي إني خطئت كثيراً ، واهنت الله تعالى ، ولم اخدمه كما يجب . »

وكان البطاركة الذين تعاقبوا على زمانه يعتبرونه اعتباراً عظيماً ، ويتعزّون بأن الله تعالى أوجد نظيره في الطائفة ، ليكون المثل الجذاب الى التقوى والى فعل الخير . وهذا كان سرُّ تلك الدالّة الصادقة التي ربطته بهم وجعلته يتقرَّب إليهم تقرُّب الابن إلى ابيه .

غير انَّ امنيته الكبرى[١] ، كانت ان يفوز يومـاً برؤية الحبر الاعظَم ، رأس الكنيسة الاعلى ، وهذه الامنيَّة المقدَّسة جعلته يشتـاق الى الحظوى بالمثول امام قداسة البابا ، لأخذ بركته الخصوصيَّة ، غير ناظرٍ في ذلك إلى ما يحرزه من شرفٍ ومجدٍ يفاخر به ، بل معتبراً تلك البركة نعمةً عظيمة وعطفاً كبيراً من قلب أبي المؤمنين ، ليثبت على البرِّ والتقوى ، ويبقى إلى النَفَس الأخير من حياته ابناً للكنيسة الكاثوليكيَّة .

(١) من رسائله

وقد تحقَّقت امنيته¹ هذه لأول مرَّة في سنة ١٨٩٨ ، إذ سافر إلى رومة صحبة المطران نقولاوس قاضي ، متروبوليت بصرى وحوران . فحظي بمقابلة قداسة البابا لاون الثالث عشر ، ذلك الحبر الكبير في قداسته ، العظيم في حبريّته ، والذي لم تردّه عظمته الأدبيَّة ، في نحول جسمه المادّي ، إلَّا دعةً وتواضعاً يقرّبان إليه جميع القلوب . ولم يكن يحفل كثيراً بمراسيم المقابلات الرسميَّة ، فكان يبيح ببشاشته الابويَّة ، لبعض زائريه من أمثال جرجي بيطار ، أن يتكلموا امامه بصراحةٍ بنويَّةٍ حرَّة .

في تلك المقابلة العائلية المحضة ، التي ظهر فيها قداسة البابا بوداعته الابويَّة أكثر ممَّا بعظمته الحبريَّة ، شعر جرجي بيطار بثقةٍ بنويَّةٍ عذبة . وبعينين دامعتين فرحاً وتعزيةً ، ركع امام قداسته ، والتمس منه « بركة خاصة لنفسه ولاسرته ، وللفقراء اخوة يسوع المسيح » . ثم فتح امام قداسته كتاب صلاةٍ ، لاستعماله الخاص ، والتمس منه ان « يبارك هذا الكتاب بأن يضع عليه يديه المقدستين . » فتأثر الحبر الاعظم من تقواه المسيحيَّة الحقَّة ، وباركه هو واسرته والفقراء ، وبارك ذلك الكتاب الذي حفظه جرجي بيطار إلى آخر حياته ، تذكاراً نفيساً لتلك الزيارة ، وتذكاراً لالتزامه بأن يصلّي دوماً لاجل ابي المؤمنين .

---

(١) ذكريات المطران نقولاوس قاضي متروبوليت بصرى وحوران .

وكان يودُّ لو أتيح له العود إلى مثل هذه المقابلة ، ليتقوّى بها ، حسب قوله ، « في الايمان والتقوى ومحبّة الفقرآء » .

ولم تطل إقامته في رومة بل ذهب من هناك إلى باريس ليلقي نظرة على الايقونسطاس الجميل الذي كان صنعه من الخشب المطعم بالفسيفسآء ووضعه في كنيسة القديس يوليانس الفقير (St.- Julien le-Pauvre) الملكية التاريخية ، اثنآء زيارته الاولى لعاصمة فرنسا سنة ١٨٩٢ . وفي هذه الزيارة الثانية قد اهتم كثيراً بفقرائه الذين في دمشق ، فزار جمعيات مار منصور الرئيسية وسعى في ضرب عملة من النحاس ، على الوجه الواحد منها صورة القديس منصور وعلى الوجه الآخر صورة جمعية القديس منصور التي في دمشق . وبعد عودته استأذن الوالي في استعمالها فتناقلتها الايدي وراجت كثيراً جداً حتى صار يتعذر على اعضآء الجمعية استرجاعها . اخيراً اضطُرَّت الحكومة الى منعها .

غير ان جمال باريس وعظمتها لم يلهياه عن ذكرى زيارته لرومة ، ومقابلته لابي المؤمنين ، لأنه لم يكن رجل دنيا بل رجل دين وتقوى . ولذلك لم يكن يزور في باريس غير المعاهد الدينيَّة الكاثوليكيَّة . وقد تاه فيها مرَّةً ، ولم يعرف ان يعود إلى كنيسة القديس يوليانس الفقير إلاّ بارشاد البوليس [1] .

بعد رجوعه إلى دمشق ، لم ترل نفسه شيّقة الى رومة ، والى

---

(١) من احدى رسائله الى ابنته ايلين في باريس

حبر الكنيسة الاعظم . ولكنّه بقوّة هذا الشوق ، وتلك البركة البابويّة المقدسة ، ازداد غيرةً على عمل الخير ، متصوراً أنّه يشتغل في حقل رسالته الخاصّة ، تحت نظر ورعاية ابي المؤمنين .

على أنّ صيته كفنّان في صناعته قد ذاع في كل الاقطار الشرقيّة ، ولاسيّما بعد أن أتحف السلطان عبد الحميد ببدائع فنِه ، وبعد أن نال من « لجنة الجمعيّة الزراعيّة الخديويّة » بمصر في معرض سنة ١٩٠٤ « بناءً على حكم حضرات المحكمين الجائزة الأولى في المصنوعات الخشبيّة[١] » . وكان فنّه هذا مدعاةً لأن يذهب مرّة ثانية الى رومة سنة ١٩٠٨ .

في سنة ١٩٠٧ أمر قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس العاشر خليفة البابا لاون الثالث عشر[٢] ، باقامة أبهى الحفلات الدينيّة ، احتفاءً بالذكرى المئوية الخامسة عشرة لوفاة القديس يوحنّا فم الذهب ، معلِّم المسكونة ، وكوكب الكنيسة ، ورمز الوحدة الوثيقة بين الكنيستين الشرقيّة والغربيّة . ولمّا كان شعار هذا

---

(١) شهادة منحه الجائزة الاولى .

(٢) انتخب البابا لاون الثالث عشر السعيد الذكر ، خليفة للبابا بيوس التاسع في ٢٠ شباط سنة ١٨٧٨ وتوفي في ٢٠ تموز سنة ١٩٠٣ بعد ان دبر الكنيسة بحكمة نادرة مدة ٢٥ سنة وخمسة اشهر . وفي ٤ آب انتخب خليفة له المثلث الرحمة البابا بيوس العاشر الذي توفي في ٢٠ آب سنة ١٩١٤ متأثراً لرؤية بنيه يتطاحنون في الحرب العظمى .

البابا القديس ، «اصلاح كل شيء في المسيح » « instaurare omnia in Christo » دعا الشرقيين اجمع الى الاشتراك في تلك الاحتفالات ، الأمر الذي كان له أحسن النتائج للعمل الكاثوليكي في الشرق . فوردت دعوةٌ خصيصة الى بطريرك طائفتنا كيرلس الثامن جحا ، والى أساقفتها ورؤساء رهبانياتنا العامين . فسافر البطريرك الى رومة ، يصحبه من الاساقفة السادة اغناطيوس حمصي النائب البطريركي العام ، واثناسيوس صوايا متروبوليت بيروت وجبيل ، وغريغوريوس حجّار متروبوليت عكا وحيفا والناصرة والجليل . وسافر من الرؤساء العامين ، الارشمندريت جبرائيل نبعة الرئيس العام للرهبانية المخلِّصية يصحبه امين سره الارشمندريت يوسف سابا .

وأخذ كلٌّ من المذكورين هديَّة شرقيَّة ثمينة ، لتقدَّم الى قداسة الحبر الأعظم ، بمناسبة تلك الذكرى التاريخيَّة . وارتأى الرئيس العام جبرائيل نبعة أن يقدِّم لقداسته ، باسم الرهبانيَّة المخلِّصية ، تحفةً من فنّ جرجي بيطار ، فطلب منه خزانة تليق بقداسة البابا ، وكلَّفه ان يسافر الى رومة ليركِّب بيده تلك الخزانة في غرفة قداسته .

فتهلَّلت نفس جرجي بنيله هذه النعمة التي كان يتوق اليها . فاشتغل الخزانة بدقةٍ ونشاط واستعدَّ للسفر الى رومة في اواسط كانون الثاني سنة ١٩٠٨ . ولئلا نقصِّر في تصوير نفسيَّة هذا الرجل

الكاثوليكي الصميم ، وفي تبيان العواطف المسيحيّة التي شعر بها في مثوله للمرّة الثانية امام الحبر الاعظم ، رأينا ان ندعه يحدثنا هو نفسه ، باسلوبه الشائق ، عن رحلته هذه الى رومة .

واليك ما كتب عن رومة في ١٢ شباط سنة ١٩٠٨ الى امرأته وصهره خليل ساره واولاده :

« ... قضينا يومين في الاسكندريّة ، ثم اخذنا محلّنا في البابور الذي هو جميل جدًّا ، وكان لنا فيه غرفةٌ لوحدنا . ونهار الاحد ، وصلنا الى مدينة مسّينا ، مع الليل ، بكل رواقٍ . وهي مدينة جميلة جدًّا ، وخصوصاً كنائسها التي حضرنا فيها قداسين . ومنها ارسلنا تلغرافاً لسيادة سيدي الأب العام ، لرومية العظمى .

« وصباح الثلاثاء ، وصلنا إلى ناپولي ، وكان فيها ، على الپور ، قدس الاب يوسف ساباب م الذي حضر من رومية قبل يومٍ لاستقبالنا ، ومعه ثلاثة أشخاص من ناپولي ، وقد سلّمهم ورقة شحن صناديق الخزانة ، لكي يعتنوا بارسالها لرومية .

« فاخذ الاب المذكور عربيّة بالساعة ، وسار بنا في كل شوارع المدينة ، وارانا المحلاّت المشهورة فيها ، وزرنا كنائسها البديعة . ثم رجعنا ، وتغذّينا غذآءً ما كنّا ، وبعده توجهنا إلى المحطّة « محطّة البرامكة بعيد الشبه (١) » . وركبنا القطار السريع جدًّا جدًّا

(١) هي محطة صغيرة للسكة الحديدية بدمشق .

وكلّه مخمل حرير بديع ، وكل عربة فيها « كبينة » من اجمل الكبينات ، ضمنها مراية ومغسلة ، ومياه للشرب أيضاً ، كي لا يتشقّل احدٌ بالنزول .

« ووصلنا الى رومة ، مساء الثلثاء بكل راحةٍ ، وهناك استقبلنا سيادة سيدي الأب العام ، مع بقيَّة الخوارنة ، وانسروا بنا جدًّا ، خصوصاً لوصولنا ليلة الاحتفال بعيد القديس يوحنا . وقد سعوا لنا حالاً بتحضير بدلةٍ رسميَّة ، كبدلات الرومانيين ، وبعده اعتمدوا أن نبقى ببدلتنا الشرقيَّة ، وقالوا هذا اوفق ، حيث ضروري ان نبقى بالطربوش لانّي آتٍ من الشرق . ونهضنا اليوم صباحاً ولبسنا وتوجّهنا معهم إلى الفاتيكان المملوء من العساكر والضبَّاط البابوي ، ودخلنا نحن بكل سهولة ، وكان الدخول صعباً ، لان ورق الدخول وصل ثمنه الى الثلاثين ليرة[1] . ومن هنا تفهمون أهميَّة الدخول الى الفاتيكان . وكل الشعب البليغ الذي دخل ، والاكليروس الكثير المختلف ، كان بيدهم اوراق ، وما كان ابن عربٍ غيري ، لاني كنت بالطربوش .

« وقبل دخولنا الى كنيسة الفاتيكان ، المعدّة للقداس السماوي ، دخلنا الى الصالات المهولة ، فوجدناها مملوءة من الكرادلة والاساقفة ، منهم يونان ونمساويون وروسيون من

---

(١) فرنك ايطالي .

طقسنا يلبسون البدلات الرسميّة مع غبطته[1] الذين شاهدناه مهموماً جدًّا لهـذا المشهد البديع وسيادات المطارنة حجار وصوايا وحمصي . فتعجبوا مع غبطتهِ من حضورنا أمامهم وانسروا وقالوا : كيف وصلت الى هنا . فقلت لهم : الملاك الحارس اوصلنا الى هذا الاحتفال الذي ما صار ولا عاد يصير نظيره . و كثيرون من اولاد المدارس الذين عرفوني[2] وهم بادلون اتوا وسلموا علي ، ومنهم ابن سليم المعري وهو بكل صحة ، طمنوا اهله .

« ثم دخلنا من عدّة صالات بديعة ، الى ان وصلنا الى الكنيسة البديعة ، التي ما كنت قبلًا افتكر أن ضمن الفاتيكان كنيسة مثلها .

« وكانت العساكر والموسيقى في كل الصالات لحدّ الكنيسة ، ومن مدخل الكنيسة الى الهيكل ، عساكر بابدع الملابس واجمل القامات ، وهم عاملون طريق من صفين لاجل دخول غبطته مع كل الاكليروس . ثم دخل الاب الاقدس ، محمولًا على العرش الذهبي ومحاطاً من الكرادلة والضباط البابويين .

---

(١) كيرلس الثامن جحا .

(٢) ومنهم فيلبس خرياطي وهو المثلث الرحمات المطران اثناسيوس خرياطي واستفانوس يواكيم ونقولا سابا واكامنضوس بردويل وبرنابا معري ، من الرهبانية المخلصية وتلاميذ مدرسة القديس اثناسيوس في رومة .

وكان يبارك بكل هدوء يميناً وشمالاً. وحال وصولهم الى الهيكل ابتدأت التراتيل البديعة ، من اولاد المدارس والمعلمين اليونان الكثيرين ، فكانت الكنيسة ترعد من تراتيلهم باليوناني . فقلت : يالطيف ! ما هذا الفرق بين هذا الخورص وخورصنا بالشام ! وكل الذين حولي من الاكليروس الروماني عرفوني وصاروا يسألوني ، وانا افهِّمهم عن كل وقتٍ ، وعن وقت الرسائل والانجيل ، وقانون الايمان والكلام الجوهري ، والصلاة الربيَّة والكينونيكون ، وكانوا صاغين ومبهوتين ، حيث انَّهم ما نظروا ولا سمعوا طقسنا الذي انسروا به وتخشعوا منه جداً ، وخصوصاً لنظرهم الاب الاقدس مشتركاً معهم ، وكان يركع وقت اللزوم ، وفي كل وقت بركة كانوا يعلنونه فيقول « ايريني باسي » اي السلام لجميعكم . وكل الحفلة كانت باليوناني لاغير .

« فمهما وصفت لكم اكون مقصراً ولساني عاجزاً . وكانت جوارحي وقلبي تتحرك بشدَّة ، لان تكونوا معي في هذا المنظَر السماوي البهج ! ومع ازدحام كثرة الشعوب الممتازة ، وجيوش الاكليروس المختلف الاجناس والطبقات ، وكثرة الراهبات والبنات والسيدات ! واذا رميتم الابرة ترنّ . وفي هذا النهار امتلأَ نظري جيداً وشبعت نفسي من تفرُّسي بقداسته وهو محمول على العرش ، وهذا ضروري جداً أن يكون قداسته مرتفعاً بهذا النوع حتى تنظره جميع الشعوب . واذ كان غبطته داخلاً بين

صفين من العساكر الطويلي القامات والمنتخبين ، صارت الناس تنهض لتراه .

« وبعد خروجنا من الكنيسة نظرنا ساحة الكنيسة السماوية غاصة بالعربيات الممتازة للشعوب ، والسيدات الغنيات ، وبدأت تجري في تلك السهلة الواسعة للرجوع وكنت واقفاً امام الكنيسة اتأمل هذا المنظر الجميل .

« وحيث مضى وقت الظهر ، ركبنا بالعربية مع سيدي الاب العام ، وكان لابساً اللبس الرسمي والعساكر تأخذ له السلام ، ورجعنا الى بيت الرهبانية المخلصية للغذآء . »

والظاهر انجرجي بيطار لم تبرح من فكره واهتمامه ذكرى الفقرآء ، فألمع اليهم في رسالته هذه حيث قال : « ان الغذآء كان مُعَدّاً من الاشكال الطيبة . وكنت اتصور ان البرد في رومة شديد ، وقد رأيته كبرد الشام المتوسط . فأرجوك يا ولدنا الحبيب الياس اذا نظرتم البرد شديداً وتوزيع الفحم على الفقرآء ضرورياً للمرة الثانية قبل رجوعنا ، فافتحوا الخزانة ووزعوا ورق التوزيع لكل الجمعيات ، مع البطاطا فقط بسبب الصيام المقدس . ولاحظوا ابن اختنا حبيب بشغل الصناديق لكي يحضرهم دائماً خالصين ، لان منهم تكون مساعدة عظيمة للفقرآء . واذكروا اننا في هذه الايام كنا نعمل اللمة السنوية لاجل الفقرآء . فان شاء الرب عند رجوعنا سنعملها بأول الصيام ، من الذين يحبون ان يكنزوا لهم

كنوزاً في السمآء . وقد افتكرت ان احرر لحضرة عزيزنا الوجيه الماجد داود النبكي لكي يطلب لنا من بيروت خمسة قناطير بطاطا ، كما فعلت بالعام الماضي . وانا تكلمت مع كاتبه قبل سفري فاسألوه واذا وجدتم موافقاً ان تحرروا له عن لساني مكتوباً يكون لطيفاً به نظهر له مرغوبنا وعظم سخائه للفقرآء ، وكثرة الاحسانات التي يدفعها لنا بكل لطف وطيبة خاطر ، فافعلوا . واننا نسأل الله تعالى ان يوفق كل اعماله ليكون دائماً سنداً للمساكين ، ولكل المحسنين ايضاً ، ولجميع اخوتنا اعضآء كل الجمعيات الذين يتعبون ويسعون ويحسنون ، وهذا كله سيرونه ذخيرة لهم في الحياة الابدية . نرجو ان تهدوا جميعهم سلامنا واشواقنا ، وان يصلوا لاجلنا لكي يرزقنا الرب الاله مساعدة للفقرآء والمساكين والارامل . من عندنا سيدنا البابا الاب الاقدس يبارك عليكم جميعاً ودمتم » .

ولما وصلت صناديق الخزانة البابوية المشحونة من بيروت الى الوكالة المخلصية في رومة ، بادر جرجي بيطار الى فتحها ليتطمن عن سلامة الخزانة . فوجد فيها عطلاً كبيراً طرأ عليها (١) . فتأسف جداً ، ولكنه اصلحه في الحال بذكآء وهمة مدهشين .

ثم حضر كثيرون من كهنة وأساقفة وعلمانيين لمشاهدة الخزانة . فدهشوا من فن تركيبها ودقة صنعتها ، ومن منظرها

(١) رسالة المترجم ٢٨ شباط سنة ١٩٠٨

الخلَّاب اللامع فكأنها المرآة الصقيلة . وقال سيادة الاب العام لجرجي بيطار : في استطاعة الاب الاقدس ان يستعيض بها عن مرآة . فاجابه جرجي : ان شآء الله سينسر منها قداسته لانها اعجبتكم .

وكان غبطة البطريرك كيرلس جحا في مقدمة المعجبين بهذه الخزانة ، حتى انه طلب وتمنى ان تكون هدية مقدمة الى قداسة البابا باسمه . واشار المطران اغناطيوس حمصي ان يوضع السجاد الفاخر ، هديةُ البطريرك الى قداسته ، ضمن هذه الخزانة ، لتكون الهدية واحدة . فقال جرجي : يا سيدنا هذه هدية الرهبانية وقد حُفر عليها اسمها واسمي انا ايضاً . فقال سيادة مطران بيروت : اني اريد ان اعمل في كنيستي الكاتدرائية قبّة للهيكل الكبير من نوع هذه الخزانة ، ومن الضروري جداً اتحاف جميع كنائسنا بشغل ولدنا جرجي بيطار لاننا لم نرَ بعد مثل هذا الشغل . وقال الخوري الياس بطارخ امين سرّ البطريرك : هذه اعظم واجمل هدية تكون في الفاتيكان .

ثم حضر تلاميذ مدرسة القديس اثناسيوس في رومة مع معلميهم ، ولما رأوا الخزانة دهشوا وتمنوا ان تكون كنيستهم مزينة بامثال هذه الصناعة . وفي يوم وصول الخزانة الى رومة ، ورد الى جرجي بيطار كتاب من الارشمندريت بوليكربوس خياطة كاهن كنيسة القديس نقولاوس في مرسيليا ، يطلب اليه فيه ان

يمر به لانه عزم على ان ينصِب في الكنيسة منبراً عالياً من شغله هذا ، فوعده بالسفر اليه .

واخيراً حضر وفد من الفاتيكان ، فاعجب بالخزانة وقرر وضعها « باعظم محل فيه وهو اعظم واقدس محل في العالم كله لانه محل الاب الاقدس[1] . »

بيد ان هذه المدائح التي رافقت اسم جرجي بيطار لم تكن لتؤثر في نفسه ، لان همه الاوحد والاعظم كان في ان يتأهب للمثول امام قداسته . فلما فرغ من اعداد خزانته الثمينة ، خرج صحبة الآباء المخلصيين ليبتاع من اسواق رومة امتعة كنسية من صور ومسابح وصلبان ، واشترى بنوع اخص صورة « للبتول المجيدة » يضعها بعد رجوعه من رومة في هيكل جمعية القديس منصور . وقد هيَّأ كل ذلك في رزمة واحدة ليباركها الاب الاقدس يوم المقابلة .

ونهار الاحد ٢٣ شباط نهض جرجي بيطار من نومه باكراً جداً . فوجد الاب العام جبرائيل نبعه في رواق الدار مصلياً . فقال له : « اريد يا ابانا العام ان تأذن لي بالتناول في كنيسة القديس بطرس » . فأجابه « اذهب بسلام والرب معك » . فتوجه الى الكنيسة وهي قريبة الى الوكالة المخلصية وحضر كل القداديس

---

(١) رسالته تاريخ ٢٨ شباط سنة ١٩٠٨

التي تمت فيها ، وتناول القربان المقدس بين عدد كبير من الشعب .

واليك ما كتب(١) عن تأثيراته الخاصة في ذلك اليوم : « لقد شعرت بخشوع لا يوصف ، وبعد التناول سمعت تراتيل جميلة وارغناً مهولاً عن بعد عظيم . فنهضت من امام الهيكل الذي تناولت فيه جسد الرب وتوجهت نحو الهيكل العظيم ، واذ وصلت اليه بعد حصة وجدت اكثر الكرادلة جالسين في كراسيهم البديعة ورأيت المرتلين مع الارغن وكانت اصواتهم كالرعد يرتج منه الهيكل ، وهذا كان القداس الكبير . ولما نظرت ذاتي امام الكرادلة وسمعت التراتيل الجميلة في تلك الكنيسة السماوية التي هي ابدع كنائس العالم ، شعرت بلذة سماوية وصرت اتفوه من اقصى فؤادي واقول : آه لو كنتم معي لكان سروري لا يوصف ! وصارت الدموع تهطل من عينيَّ وهذه هي دموع المسرات الروحية . »

فبعد أن سمع القداس الكبير ، همَّ بالخروج وكان قد حان وقت الظهر ولم تزل القداديس متوالية في تلك الكنيسة الفريدة ، وفيما هو متجه الى ابوابها ، لحظ جرن المعمودية الثمين وحوله جموع غفيرة حضروا لتعميد اولادٍ كثيرين فراقه هذا المنظر ، وتوقَّف عنده قليلًا وشعر بأعذب بواعث التعزية والفرح . ثم

---

(١) رسالته تاريخ ٢٨ شباط سنة ١٩٠٨

تابع مسيره الى الوكالة المخلّصية ، واعرب للأب العام عما اختلج في نفسه من العواطف في ذلك النهار البديع .

وبعد الظهر ذهب صحبة الآباء المخلصيين لزيارة كنيسة القديس بولس . فقال عن هذه الكنيسة : « انها أعظم كنائس رومة بعد كنيسة القديس بطرس ، وهي لائقة بالقديس بولس الرسول . وهنالك قضينا نصف النهار الآخر ، فقست الكنيسة فوجدت أنها، في فسحة هيكلها ، تسع كنيستين من كنيستنا في الشام . . . والناس تتوهم ولا تصدق ما نقول ، اذ لم ينظروا بأعينهم[١] . »

وقَرُب ميعاد نقل الخزانة الى الفاتيكان ومقابلة الاب الاقدس . فحدّث ولا حرج عن فرح جرجي بيطار بهذه الساعة التي طالما كان يتوق اليها . وها نحن ندعه يروي لنا ذلك جميعه .

« اليوم السبت صباحاً بعد ان حضرنا قداس سيدي الاب العام وبقية الكهنة ، اتانا كارّو اي كميون من كميونات سيدنا الحبر الاعظم وحالاً فككنا الخزانة ووضعناها على هذا الكميون الذي يجره بغلان من اجمل واعلى البغال ، ثم ركبنا عربية مع قدس الابوين يوسف سابا الوديع اللطيف وبشاره غفري الوكيل المملوء من الانس واللطف والمهارة في تدبير الامور ، وتوجهنا الى

---

(١) رسالة ٢٨ شباط سنة ١٩٠٨

صورة السعيد الذكر البابا بيوس العاشر التي اهداها للفقيد
المذكورة في صفحة ١٤٦

الفاتيكان فاجتمع رجاله ونقلوا الخزانة الى فوق، فركَّبناها بالمحل القريب من الصالون الكبير والمؤدي الى محل قداسته. وبعده حضر وكيل القصر البابوي مع احد كرادلة سيدنا البابا، فنظروها وانسرّوا منها جداً ثم دخلوا لعند قداسته وبعده قالوا لنا سنرسل لكم خبراً كي تحضروا مع الأب العام لمقابلة قداسته. وإن شاء الله سينسرُّ منها قداسته بعد أن يكون نظرها، ونحن نظهر لقداسته الشكر والممنونيَّة التي بها تعطَّف علينا[١].

« ويوم الخميس ٥ اذار بعد الظهر[٢]، هو يوم مقابلة الحبر الروماني الطوباوي. فتوجهنا صحبة سيادة سيدي الاب العام والاب يوسف صابونجي، والاب الوكيل بشارة غفري والاب يوسف سابا المحترمين، ولمّا وصلنا الى الفاتيكان ونحن لابسون البدلة الرسميَّة التي احضروها لنا، فحالاً ادخلونا الى غرفة « القنصاصير » — المصاعد — فرفعونا الى قبالة قصورة الاب الاقدس، وحرسة القصر البابوي ادخلونا حالاً من صالون مهول الى صالون مهول، حتى وصلنا لقصر الاب الاقدس، وحالاً حضر قداسته، وقد استقبلنا بكل بشاشة وانسرَّ وأظهر لجميعنا اعتباراً

(١) رسالة ٢٨ شباط سنة ١٩٠٨

(٢) رسالة ٥ آذار مساء سنة ١٩٠٨

زائداً . وصار يقول : « جورج بيطار ، كثير انا مسرور منك . الله يبارك عليك وعلى عائلتك . ما هذا الشغل الجميل ! كم هو بالك طويل حتى اشتغلت هذا الشغل الدقيق الجميل ! »

« وكنت احضرت معي صرّة كبيرة فيها مسابح وصلبان وصور ولفّة صور كبار وبينهم ثلاثة صور كبار من صور قداسته . فطلبت من قداسته ان يكتب على واحدةٍ اسمه الكريم لتكون ذكراً دائماً في جمعيَّة القديس منصور . فانسرّ كثيراً قداسته من هذا الطلب مع انّه ممنوع في هذه الظروف . فحالاً قال قداسته : « ضع هذه البضاعة على الطاولة امامي . » وامر بفتح حزمة الصور وكتب على صورهِ الثلاث بيده المقدسة ، مانحاً البركات الغزيرة للجمعيات ومضى اسمه . ولكي يظهر لنا عظم حبه الابوي وزيادة انشراحه منّا نهض من على كرسيه واحضر لنا صورته ، ورجع وجلس على كرسيه امامنا حيث كان أمرنا كلّنا ان نقعد امامه بالتمام ، وسيادة سيدي الاب العام على جانبه . ثم اخذ القلم وبدأ يكتب على هذه الصورة التي سترونها ، وهي من اعذب والطف الكلام ، بقوله :

« الى الابن الحبيب جورج بيطار اخلص تهانينا لمهارته التامة في فن التنزيل ، واظهاراً لشكرنا وعطفنا نهديه من صميم الفؤاد البركة الرسولية . »

عن الفاتيكان في ٥ آذار سنة ١٩٠٨ — البابا بيوس العاشر

« فانا لما نظرته يحرّر بيده المقدسة كل هذه الكتابة وطال الوقت ، فحالاً صارت الدموع تهطل من عينيّ ونهضت من على الكرسي وركعت امامه وقلت له : « أنا أرى ذاتي رجلاً خاطئاً ، فلا اعلم كيف استحقيت ان امتثل امام قداستكم » ثم أخذت يده وصرت اقبّلها وهو يبارك عليّ . ثم احضر بيده نيشان مدالية الصنائع موضوعة ضمن علبة واعطاني اياها .

« وبعد ان تكلم حصّة مع سيدي الاب العام مظهراً له عظم انعطافه وحبه الابوي له ولهذه الرهبانية المخلصية العزيزة ، نهضنا وقبّلنا كلنا يدهُ المقدسة وودعناه راجعين الى الورآء ونحن منحني الرؤوس لنائب المسيح الى ان خرجنا من الباب ، وبدأت كل العساكر الموجودة في كل الصالات والمحلّات تأخذ السلام لسيادة سيدي الاب العام حيث لابس اللبس الرسمي ، وخرجنا من الفاتيكان بكل سرور وانشراح ، وسيادة سيدي الاب العام قال لي لا بد ان آخذ لك نيشان آخر وأحضره لك معي حيث ان اراد الرب ، نهار الغد الصبح ، سنرجع لعند قداسته الى الفاتيكان لاجل ان نفك الخزانة ونركّبها في المحل الذي اعتمدوا ان تكون موجودة فيه . وبعد الظهر بساعة نسافر بسكة الحديد الى مرسيليا وننظر الاشغال التي طلبها الاب بوليكربوس خيّاطة ونأخذ القياسات . »

وقد ختم رسالته هذه بقوله : « نرجو إهدآء سلامنا واشواقنا للجميع ولكل جمعيات القديس منصور ، ومن عندنا اولاً قداسة سيدنا البابا نائب يسوع المسيح هو بغاية الصحّة والانشراح ، ويمنحكم البركة والسلام انتم وعموم متوظفي جمعيات القديس منصور وجميع اعضائها العاملين واعضآء الشرف ، ومثله ايضاً سيادة سيدي الاب العام يبارك عليكم ويهديكم السلام والدعآء ودمتم احبآئي » لكاتبه

جرجي بيطار
خادم الفقرآء إخوة يسوع المسيح

وفي المقابلة التي تشرّف بها رئيسنا العام الارشمندريت جبرائيل نبعه فمثل امام الاب الاقدس، بعد ان تحدّث مع قداسته في شؤون الرهبانية الخاصة، قد كلمه كثيراً عن جرجي بيطار وعن اعمال تقواه وغيرته على الفقرآء . ثم التمس له من قداسته نيشاناً ، فتعطّف قداسته واجابه الى ملتمسه ومنح جرجي بيطار النيشان الذهبي من فرسان القديس سلفسترس البابا ، مع الشهادة الآتي نصّها :

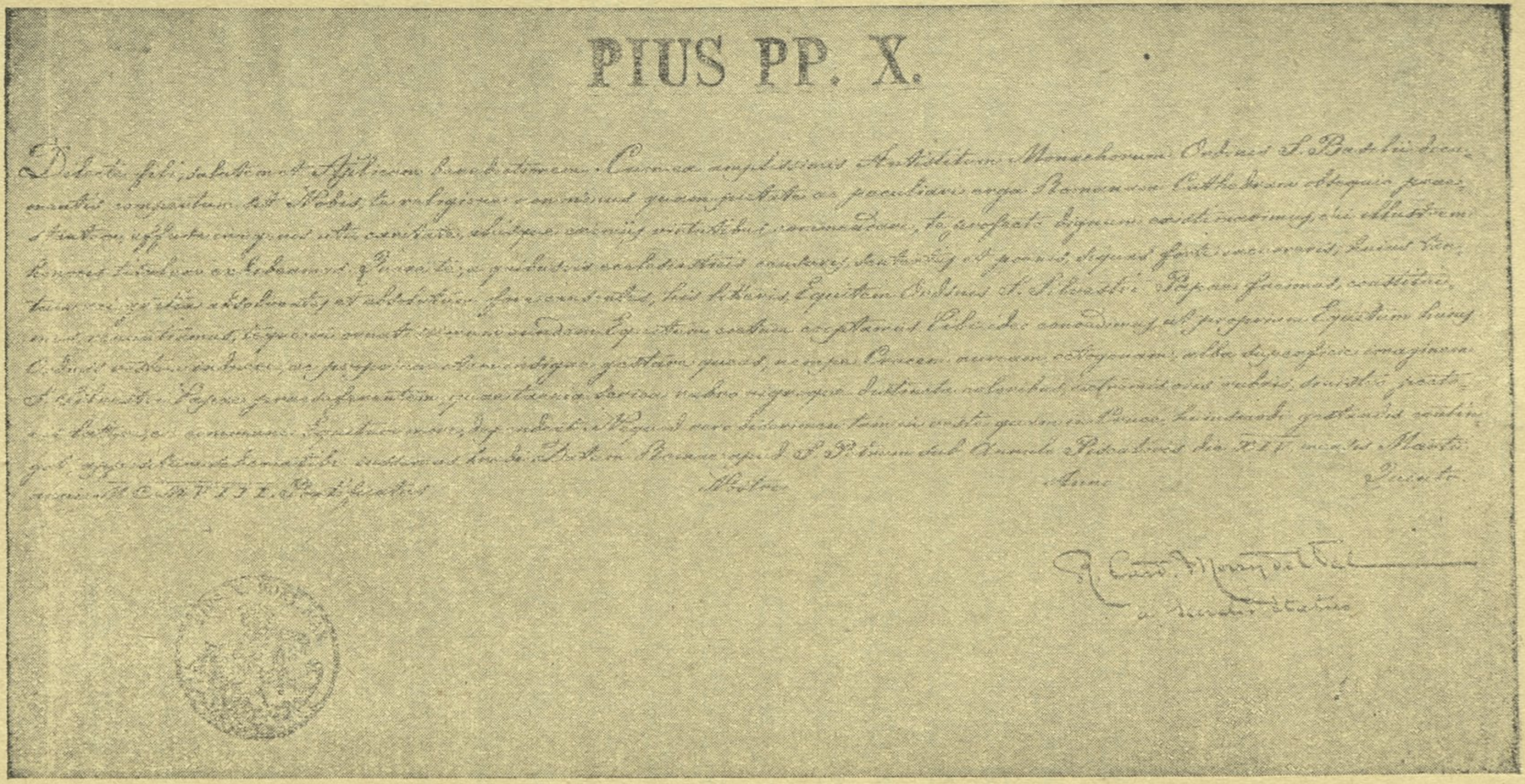
PIUS PP. X.

وهذه ترجمتها :

البابا بيوس العاشر

الى الابن الحبيب جورج بيطار

« اليك ايها الابن الحبيب السلام والبركة الرسولية . بما أنه ثبت لدينا من
« الوثائق الجميلة التي قدمها بك رؤساء رهبانية القديس باسيليوس ، اذ نعتوك
« بالتدين والتقوى والاحترام الخاص للسدة الرومانية وبفيض محبتك للفقرآء
« وبسائر الفضائل السامية ، قد اعتبرناك اهلاً بلا شك لان نمنحك لقباً شرفياً
« عالياً . وعليه من اجل هذا الانعام فقط قد حللناك ونعتبرك في المستقبل محلولا
« من كل التأديبات الكنسية ومن كل الاحكام والعقابات التي قد تكون
« وقعت فيها . وجعلناك ونجعلك ونعلنك بقوة هذه الكتابة فارس جمعية
« القديس سلفستروس البابا ونحصيك في جمعية الفرسان هذه الكلية الشرف .
« ولهذا نمنحك ان تلبس الثوب المختص بجمعية الفرسان هذه وفي استطاعتك ان
« تحمل شاراتها الخصوصية اعني الصليب الذهبي المثمَّن الزوايا وايقونة بيضاء
« تمثل القديس سلفستروس البابا وتتعلَّق بشريطة حريرية من اللونين الاحمر
« والاسود ذات اطراف حمرآء على شمال الصدر بحسب العادة المرعية عندالفرسان .
« ولكي لا يحدث فرق في لبس الثوب او في الصليب المذكور أمرنا ان يعطى
« لك بهما المرسوم الخاص .

« أعطي في مدينة رومة قرب القديس بطرس في ١٤ آذار سنة ١٩٠٨
« وهي الخامسة من حبريتنا » .

الختم البابوي توقيع الكردينال ماري دلفال

سكرتير الدولة

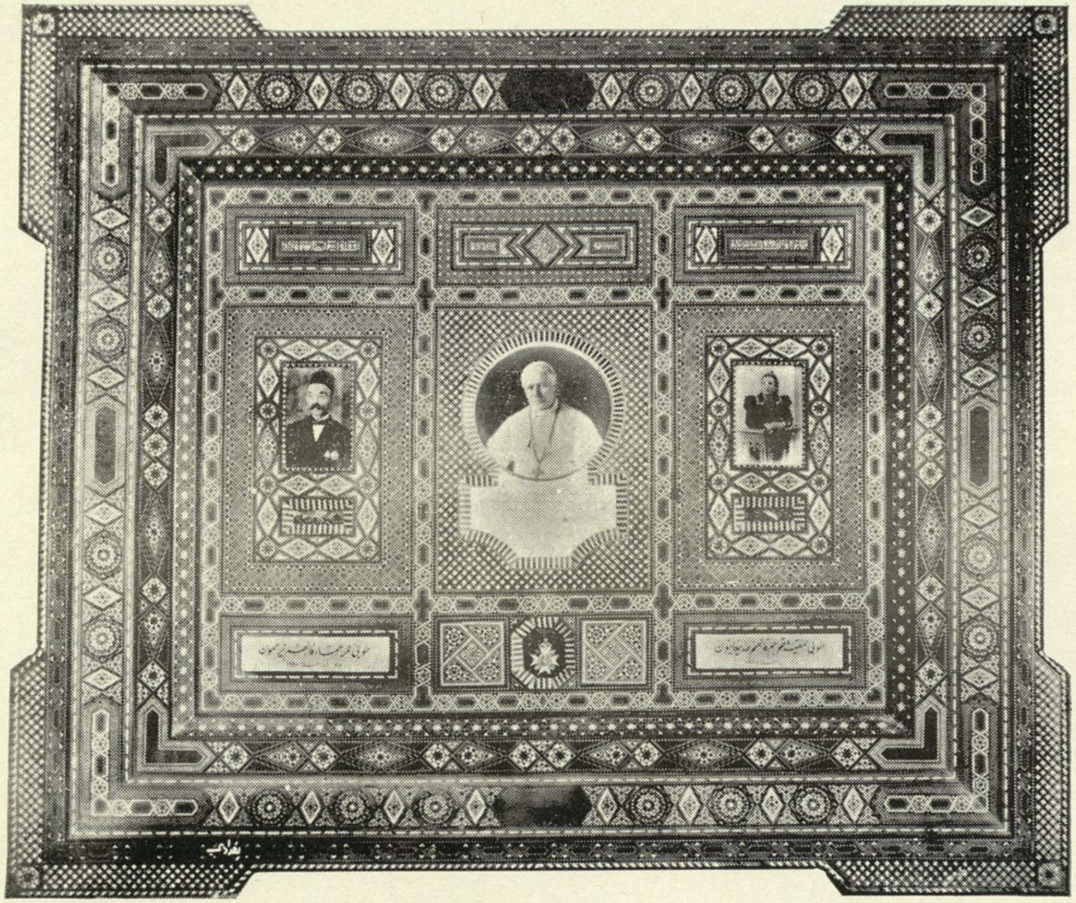

اطار الموزايك المذكور في صفحة ١٥١

وكفى بهذه الشهادة العالية دليلاً على المقام العظيم الذي احرزه جرجي بيطار لدى قداسة الحبر الاعظم ، والذي لم يقابله هو إلاَّ بتواضعه العميق ، فانَّه طوى مرسوم هذه الشهادة واخفاه . بيد انَّه بعد رجوعه من رومة ومرسيليا الى دمشق في اواسط اذار ، اراد أن يخلِّد ذكرى مقابلته للاب الاقدس ، فاشتغل إطاراً جميلاً من صناعته الفنّية وضع في وسطه صورة قداسة البابا ، وتحتها نيشان القديس سلفستروس البابا ، والى اليمين والشمال رسمه ورسم امرأته الفاضلة وكتب تحت كلٍّ من الرسمين الآيتين التاليتين :

« طوبى للرحماء فانهم يرحمون » ٢٨ تموز سنة ١٩٣٥

« طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله » ٥ حزيران سنة ١٩١٨

وقد وضع ذلك الاطار في بيته على مرأى من الجميع ، يتزود من النظر اليه قوةً اوفر وغيرة اعظم في فعل الخير وبذل الاحسان ، واراد بهذه البادرة التقويّة ، أن يكرّس اسرته كلَّها لخدمة السيد المسيح ونائبه على الارض في شخص الفقرآء والمساكين .

الفصل الحادي عشر

جرجي يطار «مار منصور دمشق»

كذا لقَّبه الشعب بعد موته، ويوم الاحتفال بجنازته، فكان ذلك اللقب موجزاً بليغاً لما امتاز به هذا الرجل طيلة حياته، التي تبدو كأنَّها سلسلة متصلة لاعمالٍ، خُلق هو لها، ولم ينقطع عنها. ولا غروَ فان الموت مظهر لسرّ حياة الرجال، بما يبدو فيها من دقائق ومميزات.

من المقرَّر الثابت أنَّ لجمعيات القديس منصور دي پول، على اختلاف فروعها وتفرقها في مختلف البلاد الغربيَّة والشرقيَّة، اعمالًا جليلة، ترتكز الى أسمى مبادىء المحبة والتديُّن، وتحييها الروح المسيحيَّة العالية. على أن اول مؤسِّسٍ لهذه الجمعيَّة الخيريَّة، هو فريديريك اوزانام [1] الشهير، أنشأها سنة ١٨٣٣ في باريس،

(١) ولد فريدريك اوزانام في ٢٣ نيسان من سنة ١٨١٣ في مدينة ميلانو احدى مدن ايطالية مدة احتلال الافرنسيين لهذه المدينة. وقد رجع اهل اوزانام سنة ١٨١٦ الى مدينة ليون وطنهم الاصلي حيث قضى فردريك زمان طفولته وحداثته وتلقن مبادىء العلوم اولًا عن يد والده المثقف في علم الطب، ثم في مدرسة تلك المدينة. وبعدئذٍ قصد مدينة باريس سنة ١٨٣١ لدرس الحقوق فنال شهادة الملفنة فيها سنة ١٨٣٦

واثناء وجوده في باريس اسس سنة ١٨٣٣ مع مساعدة ستة شبان من اصدقائه جمعية القديس منصور دي پول لتكون رابطة محبة تجمع كل الشبان

ووضع لهـا قانوناً وغاية ترمي بهما الى ممارسة الدين المسيحي

المسيحين لاجل غاية مزدوجة ، اولاً كي يحفظوا روح الايمان في نفوسهم ، ثانياً كي يُظهروا امـام رفاقهم اللاهين عن الدين ما في الدين المسيحي من الحيوية الدائمة والمتفجرة .

وزيادة لتعريف جوهر وغاية هذه الجمعية نورد هذه الكلمات من اوزانام نفسه وقد بعث بها الى احد اصدقائه بعد سنة ونصف من تأسيسها : « نحن في باريس كطيور عابرة، بعيدة عن الوكر الوالدي الى حين . والكفر كنسر كاسر يحوم حولنا ليفترسنا . نحن عقول غضة تغذت في حضن الكثلكة ثم تشتتت بين جموع غبية ومادية . نحن اولاد امهات مسيحيات نصل واحداً فواحداً الى ما بين جدران غريبة حيث الزندقة تجتهد في ضمنا الى صفوفها . فمهمتنا هي اذن ان تجتمع هذه الطيور العابرة الضعيفة في مأوى يحميها ، وان تجد هذه العقول الغضة نقطة محالفة لمدة زمن منفاها ، وان يتسنى لهؤلاء الامهات المسيحيات ان يقللن من ذرف الدموع ، وان يرجع اولادهن اليهن كما قد ارسلنهم . والحال ان اقوى وأوثق رابطة واسمى مبدأ للصداقة الحقة هي المحبة : وليس بممكن ان تتأصل المحبة في قلب اناس دون ان تتدفق الى الخارج ، لانها كالنار تنطفىء بلا وقود ، ووقود المحبة هي الاعمال الصالحة . »

لذلك عملاً بهذا المبدأ كان اوزانام ورفاقه يعقدون اجتماعات علمية لدرس الديانة ، وخيرية للتفاوض في حاجات الفقرآء وفي طرق جمع الحسنات وتوزيعها عليهم . فنمت تلك الجمعية واصبحت دوحة عظيمة تفرعت منها جمعيات كثيرة اولاً في باريس ثم في سائر مدن فرنسا ، وما عتمت ان تجاوزت حدودها وشملت العالم كله حتى في حياة مؤسسها . ولم يزل اوزانام ان في باريس وان في ليون، ان في سكناته وان في رحلاته ، رغم اشغاله الكثيرة والشاقة، روحَ هذه الجمعيات وحياتها وجذوتها الملتهبة بحب الله والفقرآء اخوة يسوع المسيح ، الى ان توفاه الله في مدينة مرسيليا سنة ١٨٥٣ .

الكاثوليكي في ميدان العمل ، وتسعى الى تقديس النفس بصنيع الخير مع القريب . وما لبثت ان انتشرت هذه الجمعيَّة المقدَّسة في أنحاء فرنسا، وفي اقلَّ من ١٥ سنة انتشرت في ايطاليا، وانكلترا، والمكسيك، واميركا ، وسويسرا، والمانيا، وهولاندا ، وكندا ، والجزائر، واسبانيا، ومصر، وفلسطين، والبرتغال، والمجر، والدانمرك، وبولونيا، والهند . وكل هذه الفروع منتظمة اكمل انتظام في سلك قانونٍ واحد، «فتبدو كأنها جيش الرحمة على الارض، وجيش السلام والمحبة الاخوية» كما سمَّاها قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الحادي عشر .

أما روح هذه الشركة التقوية فهو الانصراف عن حبّ الذات الى محبة القريب والفقير ، وروح الإخاء والوداعة والتواضع ، عملًا بقول السيد المسيح «تعلموا مني إني وديع ومتواضع القلب» وتتميماً لوصيته القائلة «إن كل ما فعلتموه بأحد اخوتي هولاء الصغار في فعلتموه» . فهي تزور الفقراء في منازلهم ، وتؤاسيهم في أحزانهم ، وتوزّع عليهم من حسناتها ما يخفِّف عنهم أثقال الحياة ، وتنشىء المستشفيات للمرضى ، والمدارس المجانيَّة لتعليم الاحداث الفقراء ، والمآوي للاطفال اللقطاء ، والملاجىء للشيوخ العاجزين ، والجمعيات لتزويج البنات الفقيرات ، ولدفن الموتى ، والاخويات للتعليم المسيحي ، ونوعاً من النقابات للمدافعة عن الفقراء في دعاويهم ، ولمساعدة المحكوم عليه منهم بالاعدام او بالسجن .

فما أن انتقل فريديريك اوزانام من هذه الحياة سنة ١٨٥٣ في الاربعين من عمره الحافل بالاعمال المجيدة ، حتى كانت جمعيات القديس منصور منتشرةً انتشاراً عجيباً في اقطار العالم الخمسة ، وقد بلغ عددها اليوم نحو ١٣،٦٠٠ جمعية ، مؤلفة من ١٨٥،٠٠٠ عضو .

أما دمشق الفيحاء ، فأول جمعية عُرفت فيها كانت قد تأسست سنة ١٨٦٣ حسبما ذكر جرجي بيطار في إحدى كتاباته . وأول من انتظم في سلكها كجمعية معروفة عبد الله بولاد ، وانطون غرّة ، وجورج مرزا ، ويوسف ورده ، وحبيب مقمط ، ومتري شلهوب ، وجورج شلهوب . وكان جرجي بيطار عضواً فيها عاملاً حسبما يقول في احدى رسائله الى سليم وسلمى بولاد في ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٩ : « إنكم تعرفون يا أعزائي ، اني منذ صغري لاحق ومتتبع كار خدمة الفقرآء ، ومن حينما تأسست جمعية مار منصور بدمشق ، من بعد الحادثة ، تمسكت بها ، ولن أتركها ابداً الى ان ابارح هذه الحياة ، لان هذه الجمعية هي ألذ عملٍ لي فانها تغفر الخطايا » . على ان ما تجلى فيه منذ صباه من بوادر محبة القريب والفقير كان بعناية الهية خير تمهيد لتأسيس تلك الجمعية بدمشق .

ولا نغالي إذا قلنا عنه إنه كان اشدّ الاعضآء غيرةً واقدرهم عملاً في الخدمة والمساعدة . فقد قيل عنه أيضاً ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية المئوية لتأسيس جمعيات القديس منصور ،

سنة ١٩٣٣ : « إنه لم يكن أكثر همّةً في شبابه وهو في الرابعة والعشرين ممّا هو عليه في الرابعة والتسعين من عمره » .

ولئلّا يتسرّب روح الفتور الى الجمعية الحديثة المؤسّسة في دمشق ، قد وُضعت سنة ١٨٦٥ تحت رعاية البطريرك غريغوريوس يوسف(١) الاول ، فنمت وازدهرت ، وتألّفت لها هيئة جديدة كان رئيسها انطون سكاكيني . وما عتمت ان انتشرت في جميع أحياء دمشق فصار لها ستة فروع .

وفي سنة ١٨٩٥ ، استعفى من الرئاسة العليا على هذه الجمعيات ، مخائيل فضل الله سيوفي الشهير ، بعد أن قام بأعباء وظيفته مدّة سبع عشرة سنة ، كان في أثنائها مثال الجدّ والنشاط ، والروحَ القويَّ الفعّال لكل عملٍ مجيد . ويجدر بنا في هذا العُرض أن نذكر ما كتب جرجي بيطار في مديح هذا الرجل الشهير :

---

(١) ولد البطريرك غريغوريوس يوسف في مدينة رشيد بالقطر المصري سنة ١٨٢٣ ، الا انه ربي وترعرع في الاسكندرية حيث انتقل والداه . دخل في صباه في خدمة الحكومة المصرية ثم انقطع الى دير المخلص في السابعة عشرة من عمره قصد الترهب . وقد أُرسل الى رومة حيث تخرّج في مدارسها . وسيم كاهناً سنة ١٨٥٢ . وبعد اربع سنين انتُخب اسقفاً على ابرشية عكا . وعلى اثر استقالة البطريرك اكليمنضوس بحوث سنة ١٨٦٤ وقع اختيار الاساقفة عليه فصعد الى السدة البطريركية في ٢٩ كانون الاول من تلك السنة عينها . وقد توفاه الله في ١٢ من شهر تموز سنة ١٨٩٧ في مدينة دمشق الشام .

« في ١ ك ٢ سنة ١٩١٣ صار توزيع خام على عموم الفقرآء هنا (دمشق) وفي الميدانين وأيضا على المحابيس، وذلك عن نفس البار المرحوم مخائيل فضل الله سيوفي الذي قضى حياته كلها حافظاً واجبات ايمانه المسيحي الكاثوليكي المقدس، والاقوال الالهية الانجلية القائلة : فليكن كلامكم النعم نعم واللّا لا . فانا الخاطئ، بزمن حياتي، ما سمعته قط تكلم كلام زايد، لان قلبه كان كقلب الاولاد الذين قلبهم نقي وطاهر، وكان ممتلئاً من الغيرة الرسولية، والتقوى التي دفعته الى إحياء ذكر القديس يوحنا الدمشقي، ابن الوطن، حتى بنى على اسمه هيكلًا جميلًا، في كنيستنا الكاتدرائية، وما اكتفى بهذا، بل افرغ جهده حتى استحصل على منشور من قداسة سيدنا البابا، وبه مُنح غفران كامل لمن يعترف ويتناول يوم عيده، والذي بهمّة الفقيد (مخائيل سيوفي) صار يحتفل فيه احتفالاً لائقاً فبلا شك ان هذا القديس العظيم، الذي كرَّمه المثلث الرحمة في هذه الديار الفانية كل هذا الاكرام، سيكرمه هو في المساكن السماوية الى الابد . فلتكن هذه الحياة المسيحية الفاضلة هي التعزية العظمى لاولاده الاعزآء، الذين اكمل فيهم واجباته المسيحية بتربيتهم التربية المسيحية المباركة، فانه بعنايته بهم اعطاهم المثال الصالح لكافة الشبان المسيحيين بتقواهم ونشاطهم المسيحي . فنسأله تعالى بقلب خاشع ان يجعل حياتهم مديدة الايام، غزيرةً بنعمه السماوية، مخصبة بالخيرات الروحيـة والزمنية بشفاعة والدته المجيدة وجميع القديسين آمين . »

فبعد استعفاء مخائيل فضل الله سيوفي من الرئاسة على جمعيات القديس منصور، انتخب الاخوة نقولا بك سيوفي الشهير . ولكنه اعتذر، بتواضعه العميق وتقواه الراهنة، فأُرغم جرجي بيطار على قبول الرئاسة . وكان من همة الرئيس الجديد أنه حقَّق بجده ونشاطه فكرة بناء محلّ لائق بالجمعية، فاشتغل بالبناء مجاناً

اياماً طوالاً ، مع جميع صنّاع مخزنه ، وبهمته قام الطابق العلوي من صرح الجمعية الحالي ، في حارة الزيتون ، وعُقد فيه اول اجتماع في ٢٢ ت١ سنة ١٨٩٩ برئاسة البطريرك بطرس الرابع الجريجيري[1] بعد أن كانت تلتئم الجمعيات سابقاً في البيوت ، ثم في غرف ملاصقة لكاتدرائية الروم الكاثوليك حيث يسكن اليوم بوّابها . وفي سنة ١٩٠٠ أسّس الرئيس جرجي بيطار فرعاً سابعاً للجمعية في باب المصلّى . وكان له على جميع الفروع سطوة ونفوذ عظيمان ، يعزّزهما مثال غيرته ونزاهته وتقواه وفضيلته . ولكن نفسه الوضيعة لم تكن لتستطيب الرئاسة ، فآثر أن يكون جندياً في الخدمة . وعلى الرغم من الحاح الجميع تنازل عن تلك الوظيفة ، بدافع تواضعه العميق . الّا أنه قَبِل ان يكون مستشاراً عاماً . فانتُخِب للرئاسة العامة سليم شكور ، الذي لم يزل فيها الى التاريخ

---

(١) ولد البطريرك بطرس الجريجيري في مدينة زحلة في ٦ آب سنة ١٨٤١ . ولما شبَّ مال الى الدعوة الكهنوتية فهذبه المطران باسيليوس شاهيات راعي تلك الابرشية واعده لهذه الدعوة . وفي ١٦ آذار سنة ١٨٦٢ رقاه الى درجة الكهنوت . ورغبةً في اتمام درس العلوم العالية سافر سنة ١٨٧٤ الى مدينة بلوا (Blois) في فرنسا فدخل مدرستها الاكليركية الكبرى وتابع صفوف العلوم العالية فاتقنها ورجع الى البلاد . وقد اختاره سلفه البطريرك غريغوريوس يوسف اسقفاً على ابرشية بانياس وسامه في ٢١ شباط سنة ١٨٨٦ . ولما فجعت الملة بفقد بطريركها رقي هذا الحبر الى الكرسي البطريركي في ٢٤ شباط سنة ١٨٩٨ . وقد انتقل من هذه الفانية في ٢٤ نيسان سنة ١٩٠٢ في مدينة بيروت .

الحاضر ، وهو الشيخ الجليل الهمام ، وبقي جرجي مستشاراً وعضواً عاملاً . بيد أن نفوذه على الجمعيات لم يزل قوياً ، فكان رأيه الشخصي هو الدليل الى ما تقرّره هذه الجمعيات ممّا يعود عليها بالفائدة والنموّ .

إننا من استقرائنا المنهاج الاساسيّ لجمعيات القديس منصور دي پول ، نرى أنه تطبيق عملي لقول السيد المسيح : « تعالَوا يا مباركي أبي رِثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشآء العالم ، لاني كنت جائعاً فأطعمتموني ، وعطشاناً فسقيتموني ، وعرياناً فكسوتموني ، ومريضاً فعدتموني ، ومحبوساً فأتيتم إليّ . » وان هو الّا تعداد مجمل لمختلف الاحوال التي يجب ان تظهر فيها فضيلة المحبة المسيحية الساهرة .

ولعمري إن مَن يتأمّل حياة جرجي بيطار ، منذ صباه الى آخر أيام شيخوخته الجليلة ، يجزم فوراً بأن العناية الالهية أوجدت هذا الرجل في دمشق ، لتكون حياته وقفاً لاعمال المحبة المفصّلة في آية السيد المسيح المشار اليها . ومصداق قولنا هذا ، ذلك الشعارُ النبيل الذي كتبهُ تحت رسمه القائم الى جانب رسم قداسة البابا بيوس العاشر : « طوبى للرحمآء فانهم يُرحمون . » فلقد فطر قلبه على الرحمة ، فكانت هي سرّ خُلقه الوديع اللطيف ومبعث تلك الابتسامة الرقيقة المشرقة في محياه ، والمسفرة عن اعذب أمائر الشفقة والحنان ، وما كان ألطفها فيه ، إذ تجلّلها

أحياناً غضبة مقدّسة على الاثم والخطيئة ، لا تلبث ان تتحوّل الى رأفةٍ ابويّة بالخاطيء عينه .

« كنت جائعاً فأطعمتموني » — إن تلك اللهفة المسيحية التي نشأت في نفس جرجي وحبّبت اليه البذل والتضحية في سبيل مساعدة الفقير المُعدم ، قد ربيت فيه ونمت حتى بلغت به أسمى ما يكون من اكتمالها . ولقد قدّر له أن يكون مثرياً ، غير انه انفق ثروته في سبيل القريب ، ليكون مثرياً بالمحبة على اختلاف احوالها وتنوعها وشمولها في عمل الخير .

على ان تأسيس جمعية القديس منصور في دمشق ، وانتظام جرجي في سلكها الى آخر حياته ، كان له منشطاً قوياً لإذكاء نار غيرته ، ومفزعاً مقدساً يتحجّب فيه عن مديح الناس ، بينا ينزل الى ميدان العمل باسم تلك الجمعيّة .

ولئلا نخرج عن الخطة التي رسمناها في وضع هذه الترجمة قد آثرنا ان ندعه هو يتكلم مفصلاً تلك الحوادث التي هي لغة المحبة العملية الناطقة بالاعمال .

« نظرت مرة أحد الفقرآء ، من اخوتنا الاسلام ، وهو رجل جليل ماشي بالدرب وحده ، ومن الوجهآء ، وأتيت اليه وسلمت عليه ، ومسكت يده ، وقلت له : يا أخي أنا أحب أن اوصلك الى المحل الذي انت قاصده ، فقال لي : ان بيتنا بعيد ، بحارة العمارة ، فقلت له : لو كان بالصالحية ، يجب علينا ان نوديك ، هكذا قوانين جمعيتنا . فقال لي : أُحب أن تفهمني ما هي هذه الجمعية ، وما هو اسمها ، ومن الذي أسسها . فقلت له : تأسست في مدينة

باريس ، من واحد قسيس [١] ، وديره مملوء من الراهبات ، ودير آخر مملوء من راهبات المحبة ، نظير الذين عندنا بالشام ، لاجل تطبيب المرضى ، ومدارس للبنات ، والذي اسَّس هذه الجمعية التي امتدت في كل ممالك العالم ، اسمه مار منصور ، ومن جملة اعماله الخيرية كان يجمع الاطفال اللقطآء من الشوارع ، ويحملهم على ساعديه ، ويأخذهم لعند الراهبات لكي يربوهم ويخدموهم . »

فلم يفرغ من هذا الحديث حتى كان اوصله الى بيته ، وهو مسرور بأن أتاحت له هذه الفرصة نشر اسم الجمعية أمام غير المسيحيين .

واقتدآء بالقديس منصور ، كان جرجي شديد العطف على الاولاد اللقطآء ، فقد كتب قائلًا :

« الناس اعطوني خبر عن بعض اللقطآء المرميّين في الطريق ، فحالاً ركضت وحملتهم قبل ان يموتوا ، واخذتهم لراهبات المحبة ، فيأخذوهم مني بكل قلوب مملوءة رحمة وشفقة على هؤلآء الاطفال المخلوقين من الله الرحوم الشفوق وانا اتفقت مع الداية مريم نديم المشهورة بأن كل ما صادفها اولاد ، واهل الولد يريدون يرموا الولد ، يعطوني خبر حتى آجي وآخذ الولد واعطيه الى راهبات المحبة . فيوم من الايام ، اعطوني خبر عن ولد ولدته امه بالليل ، فوجدناهم انهم أخذوه ورموه بالنهر ، وولد آخر ذهبنا لنجيبه ، وجدنا أنهم واضعينه بأرض الدار ، بالبرد أيام الشتاء ، ومغطينه بالطبق لئلّا تأكله القطط . فيارب ارحم جميع عبيدك ولا تعاملنا بحسب أعمالنا الشريرة . »

---

(١) القديس منصور الذي يتكلم عنه المرحوم هنا هو مؤسس الجمعيات الرهبانية التي تحمل اسمه . وليس هو مؤسس الجمعيات العلمانية التي تكنى باسمه ، بل مؤسسها انما هو فريدريك اوزانام .

وكان يعتبر نفسه خادماً للفقراء بكل ما في الخدمة من معنى وواجبات . وبهذه الصفة الوضيعة ، إذ كان يجول في احيآء دمشق لجمع الاحسانات كان يظهر على ابواب المنازل بهيئة المستعطي المتسوّل ، وبتلك الصفة عينها كان يتمّم وظيفة الخادم الامين على القليل والكثير ، فيهتم لاقل الاشيآء العائدة بالخير والمساعدة على الفقرآء ، ويقيّد في دفاتر خاصة دخل الحسنات واثمان ما كان يشتري ، من كسوة وموادغذائية ووقود . ولما كان يتحقق غلآء السمن كان يتنهد بحسرة وتتحدر الدموع من عينيه رأفةً بالفقرآء البائسين . وكثيراً ما كان يكتب في ذيل دفتر الحساب : « الله يساعد جميع الفقرآء على عيشتهم الغالية التي كلها عذاب بعذاب ! »

وبهذا المعنى كتب في احدى رسائله ، بتاريخ ٢٨ ايار سنة ١٩٢٨ :

« البارح زرنا احدى العيال الفقرآء التي لها سبعة اولاد وليس فيهم واحد يشتغل ابداً ، وكلهم صغار وقاصرين . فلما نظرناهم بهذا الحال الذي يفتت الاكباد حزناً ، وهم جوعانين ، وليس عندهم فُتات من الخبز ، فحالاً هطلت الدموع من عيوننا ، وذهبنا الى السوق وجبنا لهم الخبز والجبن ، وكلهم صاروا يخطفوا الخبز وهو على يدنا ، فتركنا لهم الخبز والجبن وخرجنا من بيتهم والدموع لم تزل تنسكب من اعيننا بغزارة ، وقلوبنا تتألم لاجلهم . واي قلب ينظر هولاء الصبيان والاطفال يبكوا من هذا الجوع الشديد ولا يتمزق قلبه حزناً عليهم ؟ يا رب ارحم جميع عبيدك الفقرآء والمعوزين والمستورين ! يا حسرتي عليهم ! الله يساعدهم ويرزقنا لاجلهم من غامض علمه . »

وفي اليوم التالي ، لقيه أحد المارّة الاغنياء ، ولما عرفه نقده مبلغاً من المال باسم الفقراء . على ان هذه الشفقة الابوية التي كان يشعر بها نحوهم ، كانت له مدعاة لان يضاعف الهمَّة والنشاط في السعي الى إعانتهم بشتى الوسائل ، ولا سيما الكتابات التي كان يستندي بها أكف المحسنين، واخصَّهم المحسن الكبير بشارة خوري الذي كان رئيساً لجمعيات القديس منصور في بيروت، وسليم وسلمى بولاد ، والارشمندريت ارسانيوس عطيه الذي كان وكيلاً بطريركياً في باريس ، وعبد الله ورزق الله انطون شلهوب في باريس ، وتوفيق صبَّاغ وغيرهم كثيرون. فمن كتاب بعث به الى صديقه وشريكه الارشمندريت ارسانيوس الذي كان يُمدّه بنوع متواصل بحسنات كثيرة :

« أيها الاب العزيز والشريك القديم ، صار لنا زمان ما سعينا بلمّة لاجل ان توزَّع على الفقراء اخوة يسوع المسيح واخوتنا ، الذين حاصلين الآن بضيق شديد من عطل الوقت والاشغال التي أضامت جميع الفقراء . والآن لما رأيت ذاتي قد صحَّيت وما عاد فيَّ أدنى وجع ، بمعونة ملجأ الخطأة وشفاعاتها . . . وحيث بعد هذا الشهر يصير صيام العذراء وبعده عيد انتقالها الى السماء ، ولكي نوزع في عيد العذراء ، ملجأ الخطأة ، لحم ورز وطحين على عموم الفقراء الذين يقولون لي لا نقدر نذوق اللحم الّا وقت أنت تفرقه علينا ، لان اللحم صاير غالي وقيمته بسبعة وثمانية غروش ، الله يساعدهم ويرزقهم على عيشتهم التعيسة ، وهم اخوتنا واخوة يسوع المسيح فادينا الالهي ، فنرجوكم أيها الشريك والاب العزيز ان تسعوا لنا بلمّة من المحسنين لكي نوزع على عموم الفقراء لحم ورز وخبز بعيد ملجأ الخطأة حتى ينسرّ قلب عموم الفقراء ونسرّ قلب

ملجأ الخطأة ، وتكون البوكاتية عنا يوم الدينونة ...»

وكان بطاركة الطائفة وبعض اساقفتها الذين قدّروا فضيلة هذا الرسول الخيري يبعثون اليه بحسناتهم المألوفة . فقد كتب اليه يوماً غبطة البطريرك كيرلس التاسع المغبغب بتاريخ ٢١ ابريل سنة ١٩٢٨ :

«... انا نعلم ان لكم اسرة كبيرة وهي اسرة الفقرآء التي تبذلون في سبيلها نفسكم واعمالكم . فإنا نرسل اليكم مئة ليرة سورية لكي توزعوها على ابنآء الطائفة الكاثوليكية المحتاجين ، ويذكروا ان لهم اباً عطوفاً يحمل لهم اينما كان حباً واهتماماً خاصين ...»

فأجاب جرجي على هذا الكتاب :

« لما تلوت تحريركم العزيز الذي اوعب قلبي فرحاً وسروراً ، حالاً نهضت وركعت على الارض امام صورة مخلصنا يسوع ، ورافعاً نظري الى العلآء سائلاً الآب السماوي ان يحفظ غبطتكم بيمينه العلوية من كافة المخاطر الروحية والزمنية ، وايضاً ان يمطر على غبطتكم الخيرات والبركات الروحية والزمنية ، من غامض علمه الالهي ، ليمكنكم أن تقوموا بكثرة الاعمال المتراكمة على غبطتكم . ومع هذا كله قد تكرمتم على ولدكم بمئة ليرة لمساعدة احبائي اخوة يسوع المسيح ، التي قد ملأت قلبي فرحاً وسروراً وقد شبّت عظامي التي قد ارتخت من كثرة السنين ...»

وزاره يوماً صهره زوج ابنته حنينة ، السيد خليل ساره ، وبصحبته قنصل العجم بدمشق وشيخ جليل من العجَم . وكان ابنه الياس حينذاك في العجَم بطهران . فانتهز جرجي فرصة هذه

الزيارة ، التي تعرّف فيها على ذلك الشيخ ، ودفعته غيرته على الفقرآء الى ان ينتفع منها لطلب الاحسان . فكتب الى ولده الياس :

« . . . من مدة حضر لبيتنا الصهر الحبيب ، ومعه قنصل العجم والشيخ الكبير الذي هو نظير البطرك عندنا ، وسلموا علينا ، واراهم الشغل . . . ثم قال لي الحبيب ميشال ساره : ما دام رايح تكتب مكتوب لولدكم الحبيب الياس للعجم بطهران ، وحيث شيخ العجم الكبير زاركم في بيتكم ، والآن هو عندكم بطهران ، فسلموا لنا عليه وقبلوا لنا يديه ، لانه رجل جليل ومحترم ومحسن للفقرآء . فيمكن اذا طلبتم منه عن لساننا احساناً للفقرآء كم غرش ، لا يتأخر عن دفع احسان مهما كان لاجل الفقرآء . . . واذا صار لكم مواجهة مع ملك العجم ، بواسطة هذا الشيخ الجليل ، فيمكن يرسل لنا احساناً لاجل الفقرآء . . »

لم نجد في دفاتر الاحسانات التي كان يحفظها عنده باهتمام وعناية ما يدل على توفّقه في هذا المسعى . ولكنه على كل حال ، دليل غيرته الشديدة التي جعلته لا يترك فرصة إلا تحيّنها ، ولا باباً إلا طرقه ، في سبيل الفقرآء . وكان من عادته ان يعيّن بعض ايام لاقامة صلوات خصوصيّة لاجل المحسنين كما كتب في احدى رسائله :

٣٠
٦٠
« لكي يعوض الرب الاله عليهم ، من الخيرات السماوية والارضية ، الواحد ١٠٠
١٩٠

(كذا على هذه الصورة) ، وفوق هذا الفايظ البليغ ، الذي ما سمعت به اذن ، الملكوت السماوي المعد للمحسنين وللاتقياء الخائفين الله ، الذين يعبدونه بكل قلوبهم . . . »

ولكي يزيد المحسنين سخاءً في العطاء، ويستنزل عليهم وعلى سواهم نعم الله، كان يضيف دائماً في رسائله، نظراً لاعتقاده الراسخ بنفوذ أدعية الفقرآء:

« يشترك معي بالدعاء لكم الفقرآء العديدين الذين أوقفت لخدمتهم كل حياتي، فانهم اصحاب نفوذ لديه تعالى، وبلا شك سيكون لدعائهم مفعول ثابت . . . »

وقد ظهر من دفاتر الحسابات التي كان يقيّدها باسم جمعية القديس منصور أن عدد الفقرآء الذين كان يعولهم في دمشق، من مختلف الطوائف كثير جداً، وان الحسنات التي كان يُنفقها عليهم ضئيلة بالنسبة الى ذلك العدد من الفقرآء، ما عدا المرضى والمحبوسين والعراة. فكان حسب قول الرسول ينفق نفسه ويريق حياته سكيباً، ليحصِل لهم المساعدات الكافية فلا يذوق طعم الراحة لا ليلًا ولا نهاراً.

واتفق انه سافر الى مصر سنة ١٩١٣ لزيارة شقيقه الدكتور نقولا بيطار، فانتهز هذه الفرصة، ليجمع شيئاً من الحسنات، ولكن لم يتجمع معه سوى القليل، حسبما يقول في إحدى رسائله بتاريخ آذار سنة ١٩١٣. واذ كان من عادته في كل سنة « أن يجمع دراهم من عموم الناس للفقرآء بمدة الصوم » قد غادر مصر الى دمشق لاجل هذه الغاية.

الحرب الكونية . — ولمّا اشتعلت نار الحرب الكونية في اوائل آب سنة ١٩١٤ ، وتفاقمت ويلاتها بتفاقم مداها ، كان يذرف الدموع السخينة على حالة الفقرآء الذين تكاثر عديدهم وتناقصت موارد اسعافهم . فكان يخدمهم بنفسه ويخفف آلامهم جُهدَ استطاعته ، تساعده في ذلك امرأته الفاضلة ماري بكل تُؤَدة وصبر . وما عدا الفقرآء الذين كانا يعولانهم ، لم تأنف تلك الامرأة الشريفة ، من أن تقبل في بيتها بعض المومسات الفقيرات او المبتليات بالامراض الوبائية . وحين كان جرجي يعلم بأمرهنّ ، كان يأتي بهنّ الى منزله لمعالجتهنّ وإرشادهنّ الى الاقلاع عن سيرتهنّ الذميمة ، التي تصب على العالم غضب الله . وقد بلغت الغيرة بهذين الزوجين الفاضلين ، الى تدبير ازواج على حسابهما لاولئك البنات الشاردات .

وقد ذهب جرجي يوماً الى معرونة حسب عادته ، فأُخبر ان رجلًا اسمه مخائيل المارديني قد أصيب برصاصة بندقية في ظهره فهرع اليه ، وأتى به الى دمشق ، ثم حمله على ظهره ، وجآء به الى منزله ، فقبلته ماري ببشاشة وترحاب ، ولم تزل تعتني به وتعالجه حتى شفي الرجل ، مع ان الرصاصة بقيت ناشبة في سلسلة ظهره . وخرج من عند جرجي شاكراً الله على هذه النعمة ، وداعياً اليه تعالى بحفظ من كان سبب شفائه . وقد قيل لنا ان هذا الرجل ، لا يزال حياً يرزق .

وكان يبلغه احياناً ، وهو خالي الكف من كل مساعدة ، خبر بعض العائلات البائسة ، فيتفطر قلبه أسًى لشقائها . فاتفق يوماً ان زار عائلة فقيرة ولم يكن معه ما يساعدها به على عجل فدخل بيته وقصد المطبخ واخذ الطعام وقال لامرأته عند كم خبز فدبري الطعام من حواضر البيت واتى بالقدر الى تلك العائلة المسكينة .

فتلك المساعدات المتبادلة بين هذين الزوجين الكريمين ، بروح المحبّة والتعاون المسيحيين ، كانت سبب تعزية لهما ، ومبعث فرح للفقرآء والمرضى .

وكأنَّ العناية الالهية ، ارادت ان يبلغ جرجي الى أشد ما تكون التضحية على هذه الارض ، فامتحنته بفقد تلك التي كانت ذراعه اليمنى في بذل الخير والخدمة ، في ٥ حزيران سنة ١٩١٦ رقدت بالرب تلك الامرأة الفاضلة ، بعد ان نفي اخوها سيادة المطران نقولاوس قاضي الى مدينة حلب في شهر كانون الثاني من تلك السنة . فقد نالها من شدة التأثر والخوف على حياته ما سبب لها نزيف دم متأتياً عن قرحة في معدتها . وعلى اثر عملية اجريت لها انتقلت الى رحمة ربها في الحادية والخمسين عن حياة ملأى بالاعمال الصالحة تفوح منها رائحة التقوى الممتازة والفضيلة الراهنة والاستسلام المطلق لارادة الله ، الذي خدمته على الارض بايمان ومحبّة طول ايام حياتها .

على ان ذكرها الصالح لم يزل حياً في بنيها الذين ربتهم التربية المسيحية الحقّة ، وفي قلوب الفقرآء الذين كانت تحنّ عليهم حنان الام الرؤوم ، وفي الجمعيّات الخيرية للسيدات ، اذ كانت هي رئيستهنّ العامّة وخادمتهنّ المتواضعة . وافصح دليل على تقوى وفضيلة هذه الامرأة البارة ما كتبه جرجي نفسه تحت رسمها : « طوبى للانقيآء القلوب فانهم يعاينون الله . »

وكانت ويلات الحرب تتفاقم وجرجي يستبسل بغيرته على الفقرآء وقد زاد عددهم بازدحام المنكوبين اللاجئين الى دمشق ، من حوران وفلسطين ولبنان . وانى له ان يجد القوت الضروري لحفظ حياتهم ، ودرهم الاحسان نادر ، والحنطة محتكرة ، والارغفة التي يستعطيها كانت خليطاً اسود اشبه بخليط من تبن وحص ، ولم يكن للفقرآء غير هذا الغذاء الكريه المنظر المر الطعم . وقد حفظ جرجي في خزانته نماذج من تلك الارغفة ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته قبل ان ينام ، فيذرف الدموع الغزيرة ويستنزل بصلواته رحمات الله على الانسانية البائسة .

فلما وضعت الحرب اوزارها ، واحتلت الجيوش الفرنساوية سوريا ولبنان ودخلت مدينة دمشق ، تهللت نفس جرجي بيطار اذ فُتح امام غيرته سبيل الاستعطاء ، وشعر في نفسه أنه وهو ابن ثمانين سنة لايزال شاباً في الهمة والحمية . وقد شكر الله كثيراً

على نعمة انتهاء تلك الحرب الطاحنة ، واشاد بفرنسا الظافرة وبمحبته لها. واليك ما ورد في احدى رسائله بهذا الموضوع :

« كم نحن ممنونون كثير كثير كثير لفرنسا ... لو اردنا أن نظهر عظم وقوة محبتنا لها ، وقصر لساننا عن تقديم تشكراتنا واحتراماتنا لها، فلساننا قاصر عن ذلك . فقط واجب علينا جميعاً ، وخصوصاً نحن ابناء الكنيسة الكاثوليكية ، أن نحبها دائماً محبة فائقة الحد ، وخصوصاً لانها هي البنت البكر للكنيسة المقدسة الرومانية . فنسأل الباري تعالى أن يحفظها دائماً بيمينه العلويَّة ، وينصرها على جميع اعدائها ، ويسكب عليها الخيرات والبركات السماوية و الارضية ، وخصوصاً لانها ما أخذت من اولادنا عسكر ولا عسكري واحد . أما أننا عارفين وكنا ناظرين كيف انها كانت الدولة العثمانية العتيقة ، وقت الحرب ، تكمش الشباب اولادنا وتربطهم كل اربعين خمسين واحد برسة وتسحبهم نظير الكلاب ، ولا أحد يقدر يتكلم ولا كلمة واحدة ويقول : أنا لي اولاد واطفال فكيف بدّي اتركهم ? حتى وصلت الى أن شنقت عدة رجال من الشعب المعتبر الممتاز نظير رشدي بك الشمعا صاحبنا وامثاله ... فلتحيا فرنسا حبيبتنا ومخلصتنا آمين .

جمع الحسنات في مصر — وبعد ان استتب الامن والسلام بقيت البلاد تتخبَّط في مجاعة كبرى . فدبّت في صدر جريي نار الحماسة المسيحية ، فعزم ان يتجشم وهو شيخ ابن ثمانين سنة مشاق السفر الى القطر المصري ، الذي لم يذق شيئاً من مرار الحرب الكونية ، ليستندي اكف المحسنين . فسافر الى مصر في اوائل اذار سنة ١٩٢٠ ونزل في دار شقيقه الدكتور نقولا بطار . وقد كتب في وصف السبب الذي استعجل سفرته الى مصر فقال :

« في أيام سنة ١٩٢٠ بعد الحرب الكبير ، صار غلا وضيق شديد على العموم ، وخصوصاً على الفقرآء والعيل المستورة ، والبعض بالكاد حتى يحصلوا على الخبز الذي ننظره نظير طبابيع الزبل الذي يعملونه بقرية المعرا . وجملة مرات اشتريت من هذا الخبز لابقيه عندي كتذكار ، وأخذت منهُ قدر رغيفين ثلاثة ، وسافرت لعند أخي المرحوم نقولا بيطار حكيم الاسنان وصرت ادور على عموم المسيحيين ، واطلب منهم احساناً الى فقرائنا بالشام ، واريهم الخبز ومنظره الاسمر ، وبقيت مدة وانا ادور واشحد من الناس واريهم ذلك الخبز ، حتى البعض ما كانوا صدقوا ان الناس تأكل من هذا الخبز الذي هو نظير التراب . وكنت كل يوم بدري ، أعني الصبح ، أحضر القداس بكنيسة الشارع الذي أدور أشحد فيه . »

على انه كان منتدَباً لتلك المهمة من قبَل جمعية القديس منصور ، لم يرد ان يبتدىء بأقل عمل في طلب الاحسان ، قبل ان يواجه الرئيس العام لهذه الجمعيات في مصر ، فذهب اليه ، وقبَّل يديه[1] ، واخذ بركته .

وبعد وصوله الى مصر ، كتب الى ولده اليـاس بيطار بدمشق ، في ٢٠ آذار :

« . . . اليوم نظرنا في « المقطَّم » كاتبين عن حضورنا لمصر وعن الغلا والضيق في الشام ، واننا مستعدين ان نجمع بعض دراهم من الاحسان ، لاجل مساعدة الفقرآء بالشام ، والبعض سألوني : لمن جمعيتكم تعطي الاحسانات ؟ فقلت لهم ان جمعيتنا لمار منصور الآن تعطي على قدر امكانها لكل الطوائف الكاثوليكية ، واذا كان عندها ايراد دراهم كافية فواجب ان نساعد الاسلام

---

(١) من إحدى كتاباته .

واليهود أيضاً وعموم الناس ، لان الجميع هم اخوتنا، وبهذا نكون تممنا قول فادينا الالهي يسوع المسيح ان نحن للجميع حتى الى اعدآئنا ايضاً . وهذه الوصية ليست هي من الملوك الواجب ان نخضع لهم ، بل وصيَّة الهيَّة من ملك الملوك ورب الارباب . فما ألذ وأجمل هذه الوصية البديعة ، التي هي شرف وعمل الدين المسيحي . والآن أخينا الحبيب مهتم بهذا واعلن اصحابه اي جريدة « المقطَّم » ليكتبوا شيئاً عن هذا الاحسان ، فهم كتبوا الذي افتكروا فيه ، وعلى كل الاحوال ، ان شآء الله ، يجمعوا لنا شيء لاجل مساعدة المساكين اخوة يسوع المسيح : فادعوا لنا بالتوفيق وان الله يلهم الناس ليساعدوا الفقرآء الذين هم دائماً قلوبهم تتألم من عظم الغلا والضيق المتراكم عليهم ، الرب الاله يساعدهم ! الذين كنت اراهم في بيوتهم ، بعض الليالي ، ينامون بلا اكل ، وليس لهم خبز فقط يقتاتون به ، حاف ، ونحن ما أمكننا ان نضبط ذاتنا بأيام الصيام أقله بدون لحم ، وهم لا يحصلون ولا على أكلة « مجدَّرة » . . .

وقد عثرنا بين اوراقه المحفوظة على مجموعة نفيسة ، من تذاكر الترامواي في القاهرة ، كان يقيِّد على ظهرها وهو في الترامواي ذكريات خصوصية، ولعل تدقيقه المعهود في حسابات مار منصور هو ما حدا به الى حفظ تلك الاوراق . وهي على كل حال دليل تواضعه وبرهان التزامه الاقتصادَ الشديد في سبيل الفقرآء ، لان كل التذاكر هي من فئة الدرجة الثانية في الترامواي وليس بينها ، وعددها نحو مئتين وخمسين، تذكرة واحدة من الدرجة الاولى .

فمن هذه التذاكر عرفنا أنه لم يكن يبدأ نهاره في لمّ الاحسنات، الا بعد حضور القداس والتناول والصلاة ، وتقديم اتعابة لاجل مجد الله لكي يوفقه تعالى في مهمته . وعند المسآء كان

يذهب مراراً كثيرة الى كنيسة السجود في شبرا ، ويسميها «الكنيسة السماوية ، وفيها راهبات من حالة الملائكة السماويين الساجدين على الدوام للقربان المقدس .» فكان يسجد هناك امام القربان المقدس ويحضر الزياح . وقد كتب على احدى تلك التذاكر :

« ونحن ضمن كنيسة السجود بشبرا امام القربان المقدس ، ابتدأ الزياح الساعة السابعة ، وحررت هذا تذكاراً لهذه الزيارة المملوءة من الخشوع واللذة السماوية ، ٢٢ نيسان سنة ١٩٢٠ » . وكتب على تذكرة غيرها :

« الى شبرا، ٢٣ نيسان، أنا وميشال الحبيب ابن أخي ، الى كنيسة السجود، وبعده لكي نشحد من الناس لاجل الفقرآء ، ونعلّم ابن اخي هذه الشحادة المقدسة لاخوة يسوع المسيح . »

وكان يرافقه في جمع الاحسان ، الى بعض الاسر الكبيرة من الطائفة وسواها ، شقيقه الدكتور نقولا بيطار ، وخليل مطران ، وحبيب سيور ، وسمعان بك صيدناوي ، وخليل صوايا ، وبشاره جاويش ، والاب يوسف بخاش ، وكامل مدور .

فقضى في القطر المصري ، بين القاهرة والاسكندرية ، اربعة أشهر ، وهو يجمع الاحسانات بالتعب الكثير والعرق الغزير ، راضياً « بالنشوفة والاهانة أحياناً لاجل محبة المسيح والفقرآء » ، حسبما كتب على إحدى التذاكر في ٧ ايار :

انا عرقنا كثيراً لمجد يسوع واكراماً لله لاجل الفقرآء . »

وكان يطرق ابواب جميع الناس ، من كل الطوائف الملكية الكاثوليكية واللاتينية والمارونية والسريانية والارمنية والكلدانية والقبطية ، وجميع الاسر المحبّة الخير ، والجمعيات الدينية ، والبنوكة . ولم يكن يثني عزيمته وغيرته شيء : لا تعب ولا حرّ ولا معاكسة ولا إهانة ولا كبر سنّه ، بل انه كان دوماً معتصماً برحمة الله وعنايته ، ومتقوياً بإيمانه ورجائه ومحبته للقريب . فقد كتب بهذا المعنى على احدى التذاكر :

« يظهر ان اللمّة اليوم ناشفة ، وانشف من القرّيص ، الله يبلّها برحمته الالهية آمين . »

ولكنه ، في اليوم التالي ، جمع كمّية كبيرة كانت ثمرة اعتصامه بعنايته تعالى ، وحيث لم يكن يتيسر له جمع الدراهم ، كان يرضى عنها بديلًا بالاثواب والاقمشة .

وذهب يوماً الى احد الاغنياء في القاهرة وطلب منه احساناً ، فأجابه هذا : « ان مصر بالجهد تكفي حالها » ولم يعطه شيئاً ، فكتب جرجي على تذكرة الترامواي :

« ان هذا الرجل منحني الظهر ومستوي وذائب نظير المشمشة الحموية ، وقريب أن يصل الى القبر . الله يعطيه خلاص نفسه . »

وكتب على تذكرة أخرى :

« توجهنا اليوم ، ٢٣ ايار ، الى كنيستنا الكبيرة بالفجاله لنقدس ، وبعده نجمع الفلوس من الاغنياء . فما صار نتيجة من أحد سوى أحد الصناع المستورين

الحال اعطانا ثمانية عشر مجيدي ، وواحد فقط من الاغنيآء اعطانا خمسين غرشاً . الله يعطي الجميع الخيرات والبركات . »

وروى ايضاً في بعض اوراقه الحادث التالي :

« يوم من الايام توجهت الى كنيستنا بالفجالة لنصلّي . وجدت شاب امام باب الكنيسة ينتظرني ، ولما نظرني تقدم اليَّ وكان مراراً يقبّل يدي ، وانا بكل امكاني حتى منعتهُ عن تقبيل يدي ، واخرج من جيبه ثلاث ليرات مصرية واعطاني اياهم . فانا بالاول ما رضيت اخذهم . فقال لي : أنا فهمت انك داير تجمع احسانات لفقرآء مدينتنا الشام . فقلت له انا داير اشحد من الاغنيآء ، وانت يا اخي صانع يلزم تصرفهم على عيلتك . فقال انا كان مرادي اعطيك اكثر ، وانا مخجول منك لانه قليل هذا العطاء . واخذت واحدة فقط ، وهو بالغصب اعطاني ثلاثة ، وقال لي أنت سبب تحسين احوالي لانك كنت تدور على بيوتنا بكل الحارات ، وتأخذنا الى المدرسة ، وهنالك كنت تعلمنا وتنصحنا نصائح ثمينة ، وخصوصاً لاجل عموم المشروبات ، والقهوة والدخان ، وكنت تقول لنا اعملوا مثلي انا بكل حياتي ما دخل لفمي ولا نقطة واحدة سوى الاكل الضروري لحياتي . فانا من الذين حفظوا كل هذه النصائح بافكارهم بالتمام ولاجل ذلك دائماً اشكر الله الذي منَّ عليَّ بتحسين حالي ، وفرح قلبي كثيراً بهذا الاحسان الذي اعطيك اياه ، وانا كنت اريد ان اعطيك اكثر . وبعض الاولاد الذين كانوا رفاقي في المدرسة وما حفظوا نصائحك يقولون لي بأنهم ندمانين ندم أليم من كل قلوبهم ، لانهم ما حفظوا هذه النصائح الثمينة ، والآن احاق بهم هذا الندم المحزن الذي لا يزول عنهم الا بالموت . »

ولا تسل عن التعب الشديد الذي كان يعانيه في تجواله ، اذ كان « يدور — كما يقول — سائراً من بيت الى بيت ، ومن شارع الى شارع ، ومن مخزن الى مخزن ، شاحداً للفقرآء ، ودائراً

دورة « حشاشيَّة » لاجل الله والفقرآء .» وقد كتب في هذا المعنى :

« اليوم ، ٧ أيار ، قبل الظهر ، درنا كثير وكان العرق ينبع من كل الجسم ، لانه كان حر شديد جداً . فليتمجد اسم الرب . »

وكتب في ١١ ايار :

« ونحن في الكنيسة ، شعرنا بوجع أليم جداً وبعده ونحن دائرون اشتد الوجع كثيراً وحالًا ركبنا الترامواي راجعين الى بيت أخي واعطونا شربتين ، وما نعلم ماذا يجد . يا حسرتي على الفقرآء كم انهم يتعذبون ! »

فلحظ الدكتور نقولا أن شقيقه جرجي بحاجة الى الراحة ، فمنعه عن التجوال ريثما تتحسن صحته ، ثم اخذه بصحبته للتنزه ، فأذعن جرجي مرغماً ، ولكنه لم يكن يجد لذة في سوى تجواله لاجل الفقرآء . ففي أثنآء تنزهه كان يفتكر فيهم دائماً ويقول : « الله يساعد المحتاجين الى الاكل وبقية المطاليب الضرورية ! » وكان يختار لتنزُّهه الاماكن البعيدة عن المدينة ، بعد أن يكون تمم في الصباح جميع فروضه الدينية . وبهذا المعنى كتب :

« اليوم الصبح ٨ نيسان ، صلينا في كنيسة القديس يوسف البديعة [١] ، وبعده توجهنا أنا وابن اخي ، الحبيب ميشال الى الهرم المهول ، وتغذينا ضمنه . وكان وقت جميل ، ومن هناك توجهنا الى المقابر الموجودة جديداً والى ابو الهول المحروم المقطوشة اذنه ومناخره الشمال . »

وكتب على تذكرة أخرى :

---

(١) هي كنيسة القديس يوسف للآبآء الفرنسيسكان في حي الاسماعيلية بالقاهرة .

كتاب من صاحب الترجمة الى اولاده يخبرهم بما حل به من الالم وبنجاته منه بدون عملية بل بمجرد توسله الى الام البتول .

الاريها فى ١ اذار ٩٢٩

ولدنا الحبيب الدكتور حنين بيطار وبناتنا الين وماري حفظهم حفظهم المولى امين

بعد اشواقنا اليكم جميع والتوسل الي المرام الالهيه ان تحفظكم بيمنه العلويه من كافت المخاطر الروحيه والجسديه وينجح جميع اعمالكم واشغالكم الروحيه والزمنيه امين لقد مضي مدة من الزمان ونحن مقصرين بالتحارير لكم وقد وصلني من زمان تحريرين من ابنتي الحبيبه رقم ١١ شباط و ١٤ شباط ومنهم قد تطمنا عليكم جميع والان بما انه قادم علينا عيد الفصح المجيد بقيامة فادينا الالهي ومخلصنا يسوع المسيح علينا جميع فوجب ان نقدم تهاني المعايدة لجميعكم باولادي ومهجت قلبي وابلا لكل عام وجميعكم بأوفر الانعام تعيدون لامثاله سنين عديده وايام مديده مقرونة بالصحه والعافيه الروحيه والجسديه ويوفق اشغالكم واعمالكم المرضيه لعزته الالهيه امين ثم نخبركم عن الحادثه التى صارت لنا من اكم يوم وهي انه بعد ان رجعنا من الصلاة الصبح اشعرت بوجع قوي بحالبي وقد نزل في الفتاق الذي من زمان طول حاملي وما اذيت الحكيم وعمل كل جهده وما قدر ان يرجعه فقال يلزم حالا الان بصير العمليه حتى يرجع وانا حالا ولدنا انيلسر دركب الاتوبييل وطار الي الصالحيه وجاب الحكيم التان وقالو تلزم الان العمليه ولما عرفت بالعمليه وكان من زمان اخو حبيب الصباغ ابو يوسف صار له هذه الحاله ذاتها وبوقته قد عملوا له العمليه وكان شاب وانا صار عمري تسعه وثمانون سنه وحالا ارسلت وطلبت الخوري حيث افتكرت اننا قربنا ان نبارح هذه الحياة المملوه مخاطر روحيه وجسديه وقد توسلت الي ملجا الخطاه ابنتها البتول ملجا عبيدك الخطاه انا عبدك ومشتري باخوية منتصبا وحاملي خمسة وسبعون سنه ما قطعة ولا يوم احد واحد سوى وقت الضعف والسفر واحب ان ابقي ايضا لاجل خدمة الفقرا بذراعي لاجل غفران خطاياي بذراعي ولما رجعوا الحكما من البيت حالا زال الوجع ورجع الفتاق لحاله من دون ان امسه فشكرت مراحم البتول على هذه النعمه والعجيبه التي حصلت عليها بدون استحقاق وجسمي قد تقوا بكل تاكيد عن الاول لاني كنت قبلا اتوجع مرات كثيرة من هذا المحل والان ما عاد صار ولا اشاره من هذا الوجع فالشكر لله دايما ورجعت اشتغل بالجمعيات اكثر من الاول والان صاير كل الجمعيات الثمانيه تتكاثر عن الاول وقد فرضت على كل الجمعيات على كل عضو يجب عضو يكون تقي ليتمجد الله على ساير الاحوال ودمتم لوالدكم

جرجي
بيطار خادم
الفقرا

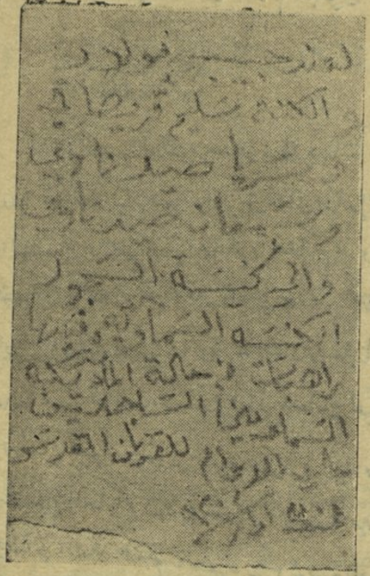

احدى تذاكر الترامواي التي كان يكتب على ظاهرها بعض ذكرياته كما ترى وهي كثيرة ، وهذا ما كتب على التذكرة الحاضرة :

لعند حبيب بولاد والكنة سليم قريصاتي وسريا صيدناوي وسمعان صيدناوي والى كنيسة السجود الكنيسة سماوية وفيها راهبات من حالة الملايكة السماويين الساجدين على الدوام للقربان المقدس

في ٣٠ اذار سنة ٩٢٠

« الثلاثاء، ثالث العنصرة، في ٢٥ ايار، بعد ان درنا في البلدة، والظهر رجعنا لعند اخي الحبيب ، وبعد ان تغذينا وقعدنا واذا بالتلفون يضرب بشدة من بورسعيد لجاوب أخي : مَن هذا ؟ فقالوا : حالاً تعالوا خذوا جثة قريبكم، أمين بهيت، الذي البارح أتى من مصر لعندنا الى اللوكندة والآن الظهر مات . فادهشنا من هذا الخبر . امرأة اخي صارت تلطم حالها، وحالا توجه صهرنا غنطوس مصوبع ومعه الخوري، واتوا به الينا لمصر ليلاً . والمرحوم كان سافر البارح اثنين العنصرة فمات في بورسعيد . الله ينجي الجميع من كذا موتة سريعة وبدون استعداد ، ولا هو متمم واجباته ولا وفا الوصية الفصحية من زمان طويل، الله يرحمه ويعفي عنه . »

ثم ذهب جرجي الى احدى الكنائس فصلى كثيراً لاجل ذلك المسكين .

وقد تعزى كثيراً باقبال ابناء مصر على مساعدته في جمع الحسنات . ولاجل هذه الغاية وبناء على طلبه كانت تقام احتفالات دينية ومدنية تُجمع الحسنات في اثنائها، ومراراً كثيرة كان الرئيس العام لجمعيات القديس منصور في القاهرة يدعو جرجي خصيصاً لحضور اجتماعات عامة مؤلفة من اعضاء تلك الجمعيات، وعلى مرأى من الجميع كان جرجي يقبّل يدي ذلك « الرئيس الجليل المسيو بريفا وياخذ بركته » فتأثر جميع الحاضرين من ذلك المشهد التقوي ومن ذلك الشيخ الجليل الذي تجلّله الفضيلة والتواضع العميق :

ومن الغريب المدهش انه رغم تجواله المتواصل في احياء القاهرة والاسكندرية لم يفُته شيء من فروضه الدينية ، وفوق هذا لم يفُته يوماً حضور صلوات واحتفالات الشهر المريمي (ايار)

وشهر حزيران المخصص لعبادة قلب يسوع الاقدس، فكان بطلاً في الغيرة على الفقرآء وبطلاً في الفضيلة والتقوى . وكان من عادة البطريركية في مصر ان تحلّل لابنائها اكل الزفر مدة الصيام الكبير وعلى مدار السنة ماخلا اياماً معدودة . اما جرجي فلم يكن يُبيح لنفسه ان يتمتع بهذا الانعام على تقدُّمه في السن ولم يتناول أكلاً زفرياً الا مرغماً، حسبما ورد في كتابه الى ولده الياس بيطار، بتاريخ ٢١ اذار سنة ١٩٢٠ :

« . . . انكم كنتم تريدون دائماً ان آكل اللحم بهذا الصوم وبالجهد كنت اتخلص منكم . فقط هربنا من الدلف فصرنا تحت المزراب، حيث ما امكني ان اكمل الصوم بدون اكل اللحوم لان العزيزة ماري مدام اخينا ما امكني ان اتخلص منها بل بالزور كانت تطعمنا اللحوم والسمك وكل شي . وما اكتفت بهذا بل حوّلت علي الحبيب ميشال والحبيبة مرغريت لكي يطعموني المواكيل بالغصب . فعند ذلك سلمت الارادة لله وقلت لمجدك ياربي على هذه العيشة التي نحن الآن عايشينها — الله لا يحرمها لمخلوق — فما العمل ؟ ما لنا الآن سوى الصبر وطولة البال . »

وكان يقصد بهذه الاماتات وامثالها ليس فقط تتميم واجباته الدينية بل ايضاً وبنوع اخص توفّقه في جمع الاحسانات للفقرآء . وقد حقق الله نيته النبيلة اذ انه في الاربعة الاشهر التي قضاها بين القاهرة والاسكندرية قد جمع ما فوق الخمسماية ليرة مصرية باسم فقرآء دمشق . ولم يكن حسب قوله « يشبع كما يجب من هذه القيمة لان الانسان لايشبعه شيء الا الله وحده » لو لم يحمله شوقه

الشديد الى مساعدة ابنائه فقرآء دمشق على الرجوع اليهم بتلك الحسنات التي جمعها باسمهم .

عودته الى دمشق . — في آخر حزيران رجع الى دمشق مسروراً بغنيمته ، فاستقبله فقراؤها بأوجه تطفح بشرا ، واخذ يوزع عليهم مما جمع نظير اب يعطف على بنيه . وتلك دفاتر حساباته المحفوظة شاهدة بان هذا الرجل لم يكن يترك زاوية من زوايا دمشق او كوخاً من اكواخها إلا ويقصده ليوزع الحسنات على من ينساهم المجتمع ، المختبئين في تلك المآوي .

ولما كان من عادته أن يصنع « لمتين عموميتين في السنة » واحدة قبل عيد الميلاد ، واخرى في زمن الصيام قبل عيد الفصح ، فكان في هذه الفترة عند اشتداد الشتآء يشتري لهم مؤونة ويُعدُّ لهم وقوداً . وقد كتب في هذا الموضوع :

« كم اني شكرت الله ، لاني قبل هجوم الشتآء موَّنا عشرين قنطار فحم وكان ثمن القنطار ٦٨٧ غرشاً (سورياً) والآن ١١٥٠ غرشاً نظراً لقلته . وبأول الشتآء وزَّعنا عليهم الفحم . »

وكتب في محل آخر :

« كنت مشغول كثير لاجل التوزيع الذي بعيد حلول الروح القدس يصير على عموم الفقرآء . فقد استحضرنا الدراهم لاجل اثمان الرز والطحين ، وخمسة وعشرين خروف ، وصباح اول البارح الاحد كانوا مذبوحين ، معلّقين ، ولحد الظهر نفقنا كل هذه البضاعة ، واللحامة كل واحد يذبح راس ولا ينفقه كل النهار ويبقى منه لثاني يوم حيث ما عندهم زبونات كثير ، واما نحن فعندنا زبونات ثمانماية زبون .

وهذا التوزيع ايضاً صائر كل مرة بمعرونة على كل الفقرآء روم كاثوليك والآن صار فيما بينهم اتفاق ومحبة قومية . »

وفي محلٍ آخر يقول :

« في هذه الايام قد تكاثرت التوزيعات وفي العيد وزعنا لهم خمسة وعشرين راس، وخمسة كياس رز وقنطار ونصف خبز . وبعد العيد، بأحد يوسف، وزعنا خمسة وستين ثوب خام ، من احسن جنس ، وخمسة قناطير ونصف بطاطا ببرودية . . . وقبل العيد ، توجهت لمعرونة والمعرًا ووزعت على العموم دراهم ايضاً . . . وبايام الشتآء والبرد وزعنا على المحابيس العريانين ثمانين ثوب خام . »

على انه لم يكن ليكتفي بالتوزيع الضروري لان محبته للفقرآء كانت محبة ابوية ممزوجة بارقِّ شواعر اللطف ، ولذلك كان يهتم لان يوزع عليهم اطباق الحلوى ايضاً . واليك ما كتب في هذا المعنى :

. . . ثم التوزيع الثاني وبعده المعجنات ان اراد الرب . الله يساعدهم ! يسوع المسيح قال لنا الذي تفعلوه بالفقرآء تفعلوه بي ايضاً . والبعض يتفكرون لا لزوم للمعجنات . أما يلزم ان نحلّي تِمّ يسوع المسيح فادينا ، الذي شرب الخل والمرارة لاجلنا ؟ فاذ قد حلّينا فمه القدوس فيغفر لنا خطايانا الكثيرة وينجينا من المصايب التي تداهمنا في هذا العالم المملوء من المصايب والضيقات والمخاطر الروحية والجسدية . وان شآء الله سنعمل للفقرآء غرّيبه كما عملنا السنة الماضية ، وكانت غرّيبه طيبة ، اطيب بكثير من القطايف بقشطة . »

وكانت العناية الالهية تهيئ لجرجي أناساً يرسلون اليه الحسنات من مختلف الاقطار السورية واللبنانية والاوروبية والاميركية لمجرد سماعهم ان في دمشق رجلًا من جمعية القديس

منصور يدعى جورج بيطار ، قد وقف حياته على خدمة الفقرآء . فكانت نفسه تفرح فرحاً عظيماً ويشكر الله باسم الفقرآء على الاحسانات التي يوردها اليه . وقد كتب في هذا المعنى قائلاً :

« اني سمنت من الاحسانات . . . وكل مرة يأتيني احسان من احدى المدن اشعر بذاتي باني سمنت من الفرح . »

وكان باهتمامه الحكيم البالغ يستدرك امور فقرائه قبل ان يحلّ الغلآء او القحط ، فيشتري لهم في ايام الرخص ما يتعذر شراؤه في ايام الغلآء ويخزنه لئلا يتوجع عند رؤيته فقيراً يتألم دون ان يتمكن هو من مساعدته . غير أنه كان يعتبر الغلآء ضربة من الله لتأديب البشر والاقتصاص من الخطيئة ، فيحضّ جميع الناس على التوبة والرجوع اليه تعالى بنفس منكسرة وعلى محبته عز وجل بالاحسان الى الفقرآء .

<u>الثورة السورية</u> ولما اشتعلت نيران الثورة السورية سنة ١٩٢٥ وغصّت دمشق بجحافل المنكوبين ، ظهر جرجي بيطار رسول غيرة يحمل لوآء الرحمة والشفقة ، واخذ يسعى وهو ابن خمس وثمانين سنة لجمع الاحسانات . وكتب في هذا الشأن الى السيدين سليم وسلمى بولاد بتاريخ ٢١ ك ١ سنة ١٩٢٥ :

« . . . اعزائي ، اذا اردت ان اوضح لكم شدة وتعاسة المنكوبين من جبل الدروز وحوران فيطول الشرح ، ولابد عرفتم من توضيح الجرائد عن تعاسة وطننا الشام ووقوف الاحوال وتعطيل كل الاشغال التي سببتها العصابات السافكة

دمآء الابريآء في جملة جهات دمشق ، حتى اتصل الضيق الشديد بفقرانا التعيسين الحال ، وليس هذا فقط ، بل هـذا الفقر والضيق المهول احاق بجملة عِيَل من متوسطين الحال والمستورين الذين يأتوا الينا سراً والدموع تهطل من عيونهم فيصير قلبي يتوجع عليهم كثيراً . وحضرتكم طمّعتوني من زمان حيث قلتم لي عندما تكون الاحوال عاطلة بالشام عرّفني لاساعدك . فالاحوال صارت مشهورة كثيراً واظن ما نظرت مثلها بزمن حياتي الطويلة التي انا صرت قريب الدخـول بسنة السادسة والثامنين منها . فنسأل الله ان يرفع غضبه عنا ولا يعاملنا بحسب خطايانا ويشفق على جميع عبيده وخصوصاً الاطفال والاولاد الابريآء من الخطأ . . . ايها الاخ العزيز الكريم ، صرتم مفضلين مفضلين علينا كثيراً واخجل كثير . . . حررت لحضرتكم هذا وانا الان ما لي كار غير الشحادة والمثل يقول : لا تعوّد شحاد على باب دارك ، فلا تؤاخذوني . »

وكتب ايضاً بهذا المعنى الى اصدقائه المحسنين في بيروت ومصر وباريس وغيرها ، ونظراً لثقة الجميع بجرجي بيطار ، تدفقت عليه المساعدات ، كما ان الفقرآء ومنكوبي الثورة أقبلوا عليه يتنادون بأصدق الدعآء : « الله يخلي لنا ابو جبران » . والتقى يوماً بفقير اعمى فاسرع اليه إسراع اب حنون فحمله على ظهره ولما اوصله الى بيته نقده دراهم ، ثم قبّل يده وانصرف .

وفي تلك الثورة المشؤومة ، سنة ١٩٢٥ ، اضطُرَّ رئيس جمعيات القديس منصور بدمشق ، الخواجا سليم شكور ، وكان رئيساً منذ سنة ١٩٠٢ ، الى السفر الى فرنسا حيث قضى اربع سنوات . فكان لا بد في هذه الفترة من تعيين رئيس يقوم مقامه الى حين عودته . وكتب جرجي في هذا الموضوع :

«عملنا جمعيات مشورة وانتخبنا ثلاث اشخاص وقدمناهم لينتخبوا منهم رئيس عام ، وهم ابراهيم صباغ وانطون سيوفي وصهرنا الحبيب خليل ساره . فالجمعيات السبعة بصوت واحد طلبوا خليل ساره وقد تكلمنا مع صهرنا فقال لنا ان اشغاله كثيرة، لا يقدر أن يقوم بهذه الرئاسة . ومتوقف هذا الانتخاب الى الان . وكم مرة تكلمت مع الحبيب جورج ساره فقال انا اتكلم مع ابي لعله يقبل . . . وانا قلت لصهري لا تهكل هم احد من الفقراء ، اذا شخص اتى اليك فحوّله الي فانا ادبره، حيث ما لي كار غير هذا الكار وهو الذ واحب عمل عندي . . . »

فيتضح من هذا غيرة جرجي على ان تسير جمعيات القديس منصور في نظامها المعتاد بادارة رئيس عام يتولى شؤونها ليتفرغ هو للخدمة . وقد انتُخب حينئذ الخواجا ابراهيم صباغ رئيساً وبقي في وظيفته الى حين رجوع الخواجا سليم شكور، وبقي جرجي رسول الفقراء يتسول لهم على الابواب وكان لا يريد ان يدخل الى البيوت عن تواضع وإماتة ليتم كمال التشبه بينهم وبينه، فكان المحسنون يبذلون له عن أيدٍ سخية . واتضح لادارة الجمعيات أن ما كان يجمعه جرجي يفوق كثيراً ما تجمعه هي . وخلاصة القول ان هذا الشيخ الغيور قد احب الفقراء حباً فاق محبته لاهله وذويه وبلغ به الى حد انه كان يأخذ ما يخص اهله ليوزعه على الفقراء[١] .

عطفه على اولاد المدرسة الليلية — وكانت جمعيات القديس منصور في دمشق قد أسست سنة ١٨٨٠ مدرسة ليلية لاولاد الفقراء وقد

---

(١) من ذكريات اولاد ابنته حنينة .

تطوّع للتعليم فيها نخبة من الشبيبة المحبة الخير والاحسان . فلم يكن جرجي يغفل عن ان يشمل بعنايته وغيرته هؤلاء الاولاد ، وكان يبذل لهم مع المساعدات تسليات خاصة لترويح نفوسهم وتخفيف اثقال مذلّتهم بما يبعث فيهم الفرح والسرور ، وكان هو يدبر نفقات هذه التسليات . واليك ما كتب في هذا الموضوع :

« إني كل سنة اعمل « سيران » كبير لاولاد المدرسة الليلية الفقرآء واعزم معهم كل طغمة الاكليرس وكل شبان وكلاء هذه المدرسة وهم ١٢ شاب مهذبين ومنوَّرين ، ونعمل لهم من الذ المواكيل والذ المحالي ، الصبح وبعد الظهر . . . »

وكان البعض من مُدمِني الخمرة ومحبي اللهو والاغاني العالميّة ، ومن جملتهم فئة من اصحاب الصنائع ، ينتهزون فرصة هذه التسليات لينضموا الى اولاد المدرسة الليليّة . بيد انّ عين جرجي اليَقِظة والساهرة على مستقبل هؤلاء الاولاد قد تصوّرت الشر الكثير الذي يتهددهم بانضمام اولئك اليهم . فمنع بشدة وحزم اشتراك بعض اصحاب الصنائع في هذا « السيران » السنوي ، دفعاً للشرور التي قد يحدثونها ، واستصدر امراً رسمياً بذلك من السلطة الكنسية ومن رئاسة جمعيّة القديس منصور ، موضحاً السبب في احدى كتاباته :

« . . . لانه بهذا السيران يصير الاغاني العالميَة ، ودق العود وغيره من الآلات ، وشرب بكثرة من « حليب السباع » الذي هو العرق ، حتى الذين منهم يشربوا بزيادة يسكروا ليس سكرة انكليزية فقط بل سكرة كلبونية .

والنهار كله ما قدروا يأكلوا ولا لقمة من الاطعمة الطيبة ، وآخر النهار حملوهم بالعربيات كالموتى الى الشام ، حيث كانوا عملوا السيران قرب دمّر . . . واكثرهم صنايعيّة وفقرآء . والذين يحبون هذا العرق المهجور ، ويعبدوه كإله ، مُسمّينه « حليب السباع » وانا مُسمّيه « حليب الكلاب » ، أجلّ السامعين ، لانه سبّب لكثيرين الضعف والامراض والفقر والهلاك الابدي . . . »

واذ كان بعض اعضاء جمعية القديس منصور ممّن يحضرون « سيران » اولاد المدرسة الليليّة ، قد تمنّوا امام جرجي أن يأخذوا معهم شيئاً من العرق ، أجابهم :

ان « القيمو » ألذ واطيب من العرق والاراكيل التي تنزع الصحة . أما تنظروا كيف أني انا بلغت من السن ثمان وثمانون سنة ، وكل هذه السنين عمري ما سعلت ولا سعلة واحدة ؟ وهذه الامثولة دائماً اتلوها على اولاد المدارس ، خوفاً من أن تصادفهم هذه الفخاخ ، اي المشروبات وشرب الدخان . ومرات كثيرة اوزع على كل اولاد المدرسة الليلية بعض مواكيل لكي انبه عليهم قبل ان يعلقوا بهذه الفخاخ المضرة بالصحة والمال[1] . . . »

لكن أحد أعضاء الجمعيات[2] غافل جرجي ذات يوم ، فأخذ معه شيئاً من العرَق . ولما حان وقت الغذآء ، مُلئت الاقداح ، على مرأى من جرجي ، الذي كظم غيظه احتراماً للحاضرين . ثم قام واحـد منهم وقدّم له كأساً فرفض . فألحّ عليه فقبل اخيراً ، ولكنه عمد الى حيلة لطيفة قصد بها ان يلقي على الحاضرين

---

(١) من رسائله .

(٢) من رسائله ومن ذكريات ابنته حنينة .

امثولة أدبيّة ، وان يبين لهم عدم رضاه بان تتسرب عادة الشرب الى أعضآء الجمعيات . فتظاهر امامهم بشرب الكأس الاولى ، ولكنه بخفة ولباقة أفرغها على الارض ، فقدموا له الكأس الثانية فكانت نصيب الارض ايضاً ، ومثلها الثالثة . ولكي يتوصل الى اراقة كل ما امامه على طاولة الطعام من العرَق ، قبل ان يفرّق الاكل ، لم يخشَ من ان يظهر مظهر السكران . فقام عن كرسيه واخذ يبدي حركات السكّير ، وقلب الطاولة وما عليها ، واتلف العرق . ثم قال لهم :

« تغذوا الآن ، ولا اريد أن احداً يفتكر بالعرق المهجور أبداً ، خوفاً من ان ينظركم الاولاد تشربوا المهجور ، فتسبيو لهم ضرر كبير[1] . »

---

(١) من رسائله . نذكر هنا على سبيل النكتة الظريفة ما كتب جرجي بخصوص احد مدمني الخمرة وقد قضى صريعها : « نظرت اناس يتركون عيلتهم واولادهم بلا أكل حتى يشربون المهجور، ولا يبالون بعذاب وضيق اولادهم وقصف عمرهم قبل اوانه . وانا اعرفهم ، وواحد منهم أتاني خبر بأنه مات حالاً بسرعة ولما نظرته طوبته لانه مات شهيد العرق وألفت له طروبارية الشهدآء قائلًا : « اياك نمدح ايها الشهيد اندراوس المحب الاماتات لانك بشربك العرق اضمرت جسدك واحرقت جوفك ، لاجل ذلك ، فوضعك مع مصاف السكيرين « في حارة العبارة » فيا رب ارحمه واعفِ عنه ولا تعاملنا كحسب اعمالنا . » وهذا المذكور كان ساكن بحارة العبارة واسمه اندراوس . وكان كل من شاف وقرأ هذه الطروبارية يتخشع قلبه ويراها موافقة لسيرة وحياة هذا الشهيد . وحيث هو من الشهدآء الممتازين عملنا له ايضاً قنداق لان القديسين الممتازين لهم في الكنيسة طروبارية وقنداق ونحن عملنا ايضاً له قنداق وهو هذا : « أيها الشهيد الكبير والمحب العاشق شرب العرق ، ان اعضآءك التي احرقتها على الارض بواسطة شرب العرق كل ايام حياتك قد صيرتك ان تموت شهيداً بين ايدي اخوتك اقرانك السكيرين لاجل ذلك نقيم تذكارك السنوي طالبين من الله ان يعفي عنك ويمنحنا عظيم الرحمة . »

مساعيه في ازالة الشكوك — ان هذا الرجل، الذي لم تنفتح نفسه لشيء من التسليات او الطيبات الجائزة والذي كان دأبه مساعدة الغير في ما يعود عليه بالخير والتعزية، كان ايضاً ذا قسوة مقدسة في كل الامور التي يتصور ان فيها منفذاً الى اهانة الله. وكذلك كانت غضبته على السكّيرين شديدة في معناها ولطيفة في مبناها، لانه كان يوبّخ بحزم ولطف، دون ان يهاب احداً او يوفر أحداً. ولقد نتساءل من أين ياترى كانت له تلك السطوة النافذة؟ هي سطوة فضيلته وتقواه، وسطوة محبته الشاملة. وهذا كان شأنه كل مرة يتقاطر الناس الى قرية المعرّة، بمناسبة عيد شفيعها القديس النبي الياس، وكثيرون منهم لم يكن لهم من غاية سوى الاستسلام للافراح العالميّة. فكان جرجي يقوم عليهم قومةَ ايليّا ويعظ ويوبّخ غير هيّاب، كما ورد في احدى رسائله حيث يقول:

« يوم السبت القادم (٢٠ تموز) واقع فيه عيد القديس والنبي ايلياس الغيور الذي من هذا النهار بدأ يستعد ان يهرب من مقامه المقدس، اذ نظر بعض الجهال الذين هم بالاسم مسيحيين ولا يذهبوا لزيارته الا لكي يشربوا « حليب الكلاب » ولا يحضرون القداس، نهار عيده. وقد تكلمت معهم، والدموع تهطل من عيوني، لاني وبختهم بلطف وحب، لكي لا ينفروا من التوبيخ لانهم جهال. ونظيرهم البنات الذين يأتوا لهذه الزيارة المقدسة وايديهم وصدورهم مظلّطة، وكان الاحسن لهم ان لا يأتوا لهذه الزيارة من ان يرموا بعض الشبان والرجال، حتى والشيوخ ايضاً، بالشهوات اللحمية التي دائماً تحاربنا، ونحن ضعفاء

ولا قوة لنا على محاربتها الا بالتجاء الى ملجأ الخطأة الوحيد ، لكي الرب الاله لا يعاملنا باعمالنا الشريرة ، بل يشفق على ضعف طبيعتنا المائلة دائماً الى الشر . »

على انه في نفس هذه الرسالة التي بعث بها الى ولديه حنين وايلين في باريس ، ينتقل بعد ذلك الكلام مخاطباً ابنته ايلين قائلاً :

« ايتها الحبيبة ايلين ، كم يجب علينا جميعاً ان نقدم الشكر للعزة الالهية ، لانكِ ما وقعتِ في فخاخ هذا العالم المملوء من المخاطر الروحية والجسدية ، بل أبقيتِ ذاتك مكرسة ليسوع المسيح ، ختنك السماوي[١] . »

وقد تحققت كلماته هذه التي تكاد تكون نبوية ، فان ايلين مع شقيقتها روز قد انتظمتا ، بعد موت والدهما ، في سلك راهبات أم المعونة الدائمة التي تأسست حديثاً في طائفتنا كفرع من جمعية الآباء المرسلين البولسيين في حريصا .

وقد ظهرت غيرته المقدسة على الفتيات اللواتي ألقين عن وجوههن بُرقع الحياء في الحادثَين التاليَين اللذين كتبهما جرجي بخط يده[٢] :

« ان واحدةً منهم كانت راحت للرقص وسلمت ذاتها للزنى وبعد مرضت واتت الي ، وانا حالاً اخذتها ووبختها ووضعتها عند امراةٍ حكيمة وحكّمتها وشُفيت واتيت بها الى بيتنا وبقيت عندنا مدة حتى صحت بالتمام . وايضاً اثنتين بنات كانو سلموا ذاتهم لتلك المحلات العاطلة ، وبعض الشبان المسيحيين اخبرونا عنهم واخذوني اليهم ووبختهم ووعدوني ان بآخر الجمعة ارجع وآخذهم حتى يكونوا جمعوا حوائجهم . ولما رجعتُ اليهم الواحدة قبلت ان ترجع معنا ، والثانية

---

(١) من رسائله .   (٢) من كتاباته .

ما قبلت ان ترجع . فقالوا لها البنات امثالها : يامجنونة ! كيف لا تريدي ان ترجعي مع هذا العم الذي يتكلم معك كلام احسن من كلام ابوك ! آه نحن الاسلام لو اتانا احد وقال لنا نظير ما قالوا لك لكنا ذهبنا معه ونخدمه كل ايام حياتنا . اما انك عارفة ان هذه المحلات التي نحن كلنا قاعدين فيها هي جهنم ؟ وهذا الكلام الذي قالوه لها صار وانا بينهم . وكان معي اثنين من اعضاء جمعية القديس منصور، وبوقته كان موجود بوليس الحكومة ، لتلك الحارة ، وكان يسمع كل كلامي الذي كلمتها به، فقال لي: اتريد ان آخذها لك بالقوة ؟ فقلت : لا يا اخي، انا لا اريد ان آخذها بالقوة ، بل انصحها لخيرها . فقالت هي : اذا رجعت ، فاهلي يقتلوني من كل بد . فقلت لها : لا تخافي ، اني اوعدك ان اضعك في البيت الذي تريديه او في بيتنا . واتينا بها الى بيتنا ، وهي كانت من عيلة مليحة من لبنان وكل اهلها كان فرحهم لا يوصف من رجوعها . وقد أَمّنت على روحها ، وخصوصاً على نفسها وآخرتها . »

كنت مريضاً فعدتموني — ان مقياس محبتنا لله هو مقدار العمل بها، فعلى قدر ما نعمل اعمال المحبة على الارض تكون محبتنا لله عظيمة . وقد رأينا دلائل تلك المحبة في التضحية التي كان جرجي يبذل بها نفسه وقواه في سبيل الفقرآء . فما عدا ان قوانين جمعية القديس منصور تجزم بان تكون المحبة شاملة مختلف الاحوال والعاهات البشرية ، كان هو يشعر شعوراً قوياً بجواذب محبته التي حملته على ان يكون كلًّا للكل ، بغير وزن ولا حساب . وكان في مقدوره ان يهتمّ لان يخلِّف من صناعته المشهورة ثروة لذويه فلم يفعل ، ليغني القريب باعمال محبته . على ان هذه الاعمال لم تكن منه مجرّد مؤاساة طبيعية او محبة بشرية ، بل انه كان يُقدم عليها مدفوعاً

بمبدإ مقدس ، هو مساعدة النفوس على تخفيف أثقالها وعاهاتها المادية ، ليتسنى لها ان تهتم لامر خلاصها الابدي . ولذلك نراه يمزج اعمال المحبة المادية باعمال المحبة الروحية ، محرضاً النفوس بالارشاد والتنبيه والموعظة الى الرجوع الى الله تعالى بالتوبة الصادقة . فلا غرو ان تكون محبته هذه للقريب قد ملكت عليه قياد نفسه وقلبه وجميع قواه . ولا غرو ايضاً ان يكون ممثلًا في شخصيته قانون جمعية القديس منصور وروحها وغايتها ، وان يرى اخوة للمسيح في كل الاشخاص الذين كان يخدمهم ، والذين شملهم السيد بشخصه الالهي في آيته الكريمة حيث قال : « لأني جعت فأطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني ، وكنت غريباً فآويتموني وعرياناً فكسوتموني ، ومريضاً ومحبوساً فأتيتم إليَّ . »

لقد أحب جرجي الفقراء ، واحب فيهم المرضى والعراة والمسجونين . وكانت محبته هذه ممزوجة بوداعة جذّابة ، تترقرق على محيّاه الجميل ، الذي لم يظهر عليه برغم الايام تجعُّد الارتباك او الغضب ، لان نفسه كانت صافية كالماء النقي والزجاج الخالص ، تشع منها انوار الايمان والرجاء والمحبة . وها هو يروي لنا باسلوبه الظريف كيف أحب المرضى والعراة والمسجونين :

« وفي تلك الايام كانت امرأة ارملة وعائلتها كبيرة ومن المستورين ولها كم ولد ، ومن جملتهم ولد عمره ١٢ سنة وصايبه مرض البحصة ، والحكيم المشهور المعروف مني لكي يعمل له عملية جراحية ويخرج له البحصة قال لازم يبقى الولد وامه

عنده في الاوسبيتال، ويلزم ان تعطوني اقلة خمس ليرات ذهب لاجل هذه العملية الكبيرة . وهم حالتهم فقرية ولا يمكنهم ان يدفعوا هذا المبلغ ووالدته كان قلبها يتألم عليه . ولكون لهم بيت ملك ، فالجمعيات ما قبلت ان تساعدها ، والولد كان يتوجع كثيراً وانا لما فهمت حالتهم حالاً جبت عربية واخذت الصبي وامه لعند الحكيم بالصالحية ، وقد ترجيته لاجل جمعية مار منصور ودفعت له ليرتين فقط ، وقبل ان يعمل له العملية فعملها ، ولما كانت سليمة خرجوا من الاوسبيتال فرحين ، ومن الاوجاع خالصين ، فيا حسرتي على الفقراء المظلومين ! »

وقبل انشاء المستشفيات بدمشق كان جرجي بلهفة مسيحية وعطف ابوي يأتي بالمرضى الفقراء وينزلهم في غرفة خاصة معروفة عنده « بغرفة المرضى » ، فيعالجهم بذاته وبمساعدة امرأته الفاضلة ، وينفق عليهم ويطعمهم او يطلب الاطباء لمعالجتهم ، ولا يتركهم الا بعد ان يتأكد له شفاؤهم . اما المسلولون من هؤلاء المرضى فكان احياناً كثيرة يحملهم على ظهره ويصعد بهم الى السطح حيث يكون نصب لهم خيمة . وقصارى الكلام ان جرجي كان يكفر بذاته ويضحّي بصحته في سبيلهم ، ويظهر لهم اعذب دلائل المحبة لاعتقاده ان المحبة تلطِّف العذاب .

كنت عرياناً فكسوتموني

وكم مرة كان يصادف اثناء تجواله في احياء دمشق عراة ترتجف اعصابهم من شدة البرد ، فكان يعطف عليهم ، ويدبّر لهم الاقمشة حسبما فعل في مصر ، اذ كان يرضى بالاقمشة بديلاً عن الدراهم . وفوق هذا كان يشتري لهم الوقود للتدفئة حسبما كتب في احدى رسائله حيث يقول :

« وزعنا الفحم لاجل البرد لان الفقرآء يرتجفون هم واولادهم من شدة البرد، وخصوصاً ما عندهم كسوة كافية تدفيهم من البرد . وزرنا عيلة تسعة انفار والامرأة كانت ولدانه، البركة من الله، والرجـل مريض والمربَّع كالقبر، بعمره ما شاف الشمس . وخرجنا من عندهم والدموع باعيننا، وجبنا لهم كسوة، ولحاف للمولود الجديد، ورز وبطاطا وصابون ودراهم . »

كنت محبوساً فاتيتم الي — وقبل ان تُنشئ جمعيات القديس منصور في دمشق سنة ١٨٨٧ لجنةً خاصةً لزيارة المسجونين ، كان جرجي يزورهم ويؤاسيهم ويساعـدهم . فبعد ان تأسست تلك اللجنة انضم الى اعضائها وفتح امام غيرتـه باب واسع للمساعدة . وكان همـه الاول ارشادهم الى التوبة والى احتمال سجنهم بصبر تكفيراً عن خطاياهم . اما غير المسيحيين من المسجونين ، فاذ لم يكن في مقدوره ان يشملهم كلهم بمساعداته قد اقتصر منهم على الاكثر فقراً واحتياجاً . وها هو يروي لنا اعماله هـذه بسذاجته المعهودة :

« ونحن في الحبوس نزورهم ، وجدت تسعة شبان من المسيحيين ما لهم فرشات يناموا عليها، فقلت لمدير الحبس : ان هؤلاء الشبان ينامون على الارض ، وانا أحب أعمل لهم فرشات ، وحيث هؤلاء مسيحيين وهم قلال ، أحب ان اعمل لاخوتنا الاسلام ، ولكونهم كثار فلا اقدر ان اعمل للكل ، لكن اترجاك ان ترينا واحد من الاكثر احتياجاً من الاسلام لاعمل له فرشة مع فرشات المسيحيين . فدخل لاحد الحبوس وجاب لي رجل وله ابن عمره نحو ستة عشر سنة ، وينامون على الارض وعريانين . ووقفوا أمامي وسلمت عليهم ، ونظرت القمل ماشي على صدره . فقال لي المدير وهو متأثر ، ان هؤلاء ، هو وابنه، مظلومين كثير، وكان

المدير صاحبنا كتير ، واسمه صفوحي بك ، من عِيَل الاسلام الممتازة ومتعلم بدير العازرية ، والمدير أخبرني عن ظلم هذا الرجل وابنه ، وكان بلده من آخر قرى غوطة دمشق ، وكان اللصوص وقطاع الطرق يضيفهم في بيته ويطعمهم خوفاً من اللصوص . فالحكومة ما قدرت تمسك اللصوص ، فمسكوا هذا الرجل وابنه وقالوا له انت مشارك الحرامية لانك تضيفهم . فاعتذر وقال للحكومة : ان لم اضيفهم واطعمهم فانهم ينهبون طروشي ورزقي . فما سمعوا له بل أخذوه وحبسوه هو وابنه . والمدير متكدر لاجلهم كتير . وانا لما نظرتهم قلبي توجع لهم وبكيت . وبعد ذلك توجهت ونبهت على الخياطين ان يجمعوا لنا من قصاصات الجوخ ويرسلوها لنا لمحل الجمعية . واشتريت خام مميك وصبغته واتيت بمنجِّد واشتغل لنا عشرة فرشات ، ولما خلصوا اخذناهم للحبس . وأتى المدير ، واعطينا التسع فرشات للذين يناموا على الارض ، وقلت للمدير حتى نأخذ الفرشة للرجل وابنه . فقال لي : ان الرجل وابنه ماتوا . فبكيت لظلمهم لان سبب موتهم كان قلة الكسوة ، والقمل الذي رعا بدنهم ، والبرد القوي الذي كان بتلك الشتوية . فقلت للمدير : اعمل معروف وانظر لنا من اخوتنا الاسلام واحد من افقر الجميع لنعطيه الفرشة والكسوة .

آه ! يا حسرتي عليهم وخصوصاً على المحبوسين ظلماً نظير جرجي الحلبي ، لانه انحبس اربع سنين وليس له أدنى اشارة لسبب من الاسباب ، ودائماً كل ما زرت المحابيس وزرته كنت اتكلم معه واصبّره وهو يبكي ويبكيني ، ويشكر الله ويقول : أطلب من الله ان تكون هذه التهمة والظلم لمجد يسوع وغفران خطاياي الكثيرة . فهذا الشاب هو من حلب ومن عيلة مليحة ، وحالتهم متوسطة . ولما صار وقت عمادته ، فوالده أحب ان البطريرك كيرلس جحا يعمده فعمده . ولما صار شاب أشغاله تعطلت ، فقد افتكر ان يسافر الى الشام . ولما أتى للشام ، صار

له شغل بواسطة البطرك في لوكندة هولو باشا الكبيرة . وفيما هو يشتغل ذات يوم اتى واحد عَجَمي من بيروت ونزل باللوكندة . وبآخر الممشى يوجد شباك افتكر انه باب ففتحه ودخل فيه ، ولما دخل بالشباك سقط على الطريق قدام النهر وحالاً مات . فأتت الحكومة وأخذت كل مستخدمين اللوكندة ، وبقيوا مدة يستنطقوهم وكلهم قد بُرّروا ، وما بقي غير جرجي الحلبي ، وقد اتهموه بهذه الحادثة وحكموا عليه بخمسة عشر سنة بالحبس . وانا كلما زرت الحبوس كان يكلمني بقلب محروق من هذا الظلم المهول الذي ذوَّب كل عافيته وصحته . وكانت الدموع تنسكب من عيونه كالمطر ويبكيني معه ، وانا اصبره وأكتر عليه واقول له : ما عليك الا ان تطلب من الله دايماً ان يفرجك من ظلمك الواقع فيه، وانا والبطرك عملنا كل الوسائط وما صار افادة .

وبعده أتى لعندي رجل وقال لي : ان جرجي الحلبي المحبوس الذي عملتم لاجله كل الوسائط وما استفدتو شيء . والعَجَمي الذي قُتل وانحبس الحلبي لاجله كان معه مرض الجنان (الجنون) ووضعوه بالمارستان بمحل العصفورية فوق بيروت ، وكان يعذبهم كتير وأواقيت يصح ، وتارة يعاوده الجنان فيعذبهم . فانتم لكي تخلصوا جرجي الحلبي المتهوم ظلماً ، جيبوا شهادة من العصفورية عن حالة العَجَمي كيف كان يصح ويرجع يجن . فانا حالاً كتبت مكتوب طويل لبيروت لجمعية القديس منصور واوضحت لهم عن كل احوال جرجي الحلبي ، وقد ترجيتهم رجاء بليغ بأن حالاً وسريعاً يذهب احد اعضاء جمعية القديس منصور الى العصفورية ويروه مكتوبي ، لكي يجيب لنا شهادة عن الرجل العَجَمي الذي كان عندهم وعن كل احواله وكيف يجن ويعاود يصح ، ومهما كلفتكم من المصاريف لا تتأخروا عن شيء ، مهما كان فانا ادفعه لكم وحبة مسك ، وفوق حبة المسك لكم اجر عظيم في السعادة الابدية . ولما

وصل مكتوبي لجمعية القديس منصور في بيروت حالاً اخذوا مكتوبي وتوجه احد أعضآء الجمعية ومعه مكتوبنا . ولما نظروا مكتوبنا حالاً مدير العصفورية وكل موظفينها قد قرروا بان العَجَمي في تلك الليلة التي فيها دخل اللوكندة كان عاود عليه مرض الجنان الذي كان سبب سقوطه من الشباك . وهذه الشهادة ارسلوها لنا ، وانا حالاً اخذت هذه الشهادة للحكومة ، التي لما نظروها حالاً اخرجوه من الحبس . ولما طلع من الحبس ، كان يفتكر انه منام ، حيث كان بهذا الحبس اربع سنين . ولما طلع كان منظرة كالذي خارج من القبر ، وما كان يصدق على حاله انه طلع من الحبس .

« وفي تلك الايام ، ونحن نزور الحبوس ، اتو برجل من اخوتنا الموارنة ، ونعرفه من الاتقيآء ، وقد خجل مني كثيراً ، وانا قعدت جنبه ، وحكى لي عن سبب حبسه وان ابنه الشاب هو الذي كان سبب حبسه . وصار يبكي ، وقال لي : بدل ما ان يساعدني عند اشغالي، وقت كِبَري ، يسبب لي الحبس والاهانات التي حرقت قلبي . فقلت له : لا بأس يا اخي ، يلزم الصبر والتذكر بالام فادينا الالهي يسوع مخلصنا ، الذي احتمل لاجلنا الاهانات والصلب والعذابات والتفل بوجهه لكي يخلصنا . فانت يجب عليك ان تتحمل هذه الاهانة لمجد يسوع فادينا الالهي .

« وكنت بعض الايام ، اعمل اكلة « صفيحة » لكل المحابيس وآكل معهم ، فقال لي المدير : اذا كنت تريد ، بدل الاكل وكُلفته ، تعمل حوايج للعريانين . فقلت له الحق معك ، لان كثيرين بالحبوس ، من الغرباء ومن الشام ايضاً ، ملابسهم اهترت من الطُّولة ولحمهم باين ، وليس لهم احد يزورهم لان اكثرهم من الغربآء . فذهبت واشتريت اثواب خام من السميك وصبغته واعطيته للخيَّاطات الفقرآء وخيَّطوا ١٥٠ غنباز واثواب . واعطيناهم للمدير ليوزعهم على العريانين ،

ففرحوا بهم كثيراً . وصرنا كل سنة ، نعمل للعريانين غنابيز ، فكانوا يفرحون بهم اكثر من الاكل لان الذين ليس لهم اهل ، يجيبون لهم اكل الحكومة ، وتعطيهم الخبز حاف ، ونحن نساعدهم بالدراهم .

« ومرة اشتغلنا أثواب ، واخذناهم الى القلعة للمحابيس . وبوقته راح معنا سيادة المطران نقولاوس قاضي ، وزار المحابيس كلهم . ولكي يتمكن سيادته حتي يعظهم ، فالمدير صفوحي بك فتح أبواب الحبوس ، واطلعهم الى سهلة امام ابواب الحبوس . وسيادته وقف في هذه السهلة وبدأ يعظهم . والمحابيس تجمعوا حوله ، وانا معهم ، ونظرت البعض من اخوتنا الاسلام كانت الدموع تنسكب من اعينهم كالمطر ، وانا نظرتها بعيوني ، وانا لمَّا نظرت هذا الخشوع الزائد ، تأوهت وقلت بفكري : ياليت نحن المسيحيين نبكي على خطايانا نظير هؤلاء الباكين بكاء مراً .

« وكنت ادخل الحبوس مراراً كثيرة ، وبغير استئذان ، وكان المدير لطيفاً ويخصص بنا السجن المليح ، ويخرج منه السجناء الاسلام ويبقي فيه كل المسيحيين . ومراراً يحضر معي واحد من الكهنة ، منهم الخوري الكسيوس عاقل ، فيعرِّف جميع المسجونين الكاثوليك . وعملنا هيكلاً على طاولة وقدس للجميع ، وناول جميع ابناء الكنيسة وانا تناولت معهم ، وكان الجميع مسرورين . »

ذلك كان دأب جرجي بيطار مع جميع اخوة يسوع المسيح فلا عجب ان يكون له في قلوب الجميع ذلك الاعتبار النادر والاحترام العميق الذي لا يرافق على الارض غير الفضيلة الراهنة . فلقد اشبه القديس منصور دي پول في دمشق ، فلقَّبه الشعب

كذلك . واتفق يوماً ان كان جرجي سائراً في المحلة المدعوة « طالع القبّة » بدمشق فصادف هناك رجلاً كان اشتغل له جرجي صندوقاً ولم يكن ذلك الرجل دفع له الثمن . فطالبه به فانكر ، فبين له جرجي بلطف انه لايتقاضى منه اجرة عن الشغل بل ثمن الاخشاب فقط ، وان هذا الثمن المطلوب هو للفقرآء . فغضب الرجل وبلغت به القحة الى حد ان قذف جرجي بقوله : « انك كاذب ! » فسكت جرجي ولم يقل شيئاً واراد ان يتابع سيره ، ولكن بعض اللحامين الذين سمعوا الرجل يقول لجرجي انك كاذب هجموا عليه بسواطيرهم وكادوا يقطِعونه لو لم يطفىء جرجي شرّة غضبهم بكلامه العذب ، لانه شق عليهم ان يوصم بالكذب وهو عندهم وعند غيرهم الرجل الصادق الصديق وابو الفقرآء وطبيب المرضى ومؤاسي المسجونين . ولعمري ان من يتأمل حياة هذا الرجل لا يعتِم ان يقول حقاً انَّ جرجي بيطار هو منصور دمشق الجديد .

الفصل الثاني عشر

جرجي يطار وجمعيات القديس منصور

لقد كان جرجي أميناً منذ حداثته على القيام بواجبات الرسالة الخاصة التي دعي اليها ، اعني خدمة المسيح في اشخاص الفقرآء والمرضى والعراة والمسجونين ، مردداً في ذهنه قوله تعالى : « ان كل ما فعلتموه باحد اخوتي هؤلاء الصغار في فعلتموه . » ولذلك صار مثلهم صغيراً بالمحبة والتجرد والتضحية ، وابتعد طيلة حياته عن كل ما من شأنه أن يحول دون اتحاده بيسوع المسيح حبيبه في شخص الفقير . ولم تكن وضاعة خدمته لتورثه سأماً او مللاً او صغراً في النفس ، لانّ انظاره وعواطف قلبه لم تحد يوماً عن الله ، فكان يشعر بدافع سماوي يدفعه بشدة الى السير في طريق رسالته هذه التي خُلق لاجلها . وهذا ما يشرح لنا كرهه للمجد العالمي وسروره في التمرّس بالذل والمسكنة والجهاد . وكان يعتبر رسالته مواصلة لعمل المسيح الذي خصّ الفقرآء والمرضى بجزء كبير من عنايته الالهية واعاجيبه الباهرة فكان جهاد جرجي وصبره العجيب في محبّة القريب متفجراً ومتفرعاً من تلك المحبّة التي وقف حياته لاجلها .

رأيناه في صباه يميل كائمّا بنوع فطري الى ذوي البؤس ،

ويعطف عليهم عطفاً خالصاً مقروناً بالتضحية وبذل النفس . فلمّا تأسست بدمشق اول جمعية للقديس منصور ، كان اول المنضمّين فيها واكثر اعضائها غيرةً ونشاطاً . ولما كان قد اشتهى عن عزم نبيل ونيّة صادقة ان يخدم القريب الخدمةَ الروحيّة في الرهبانية والكهنوت ولم ينل تلك الامنيَّة ، فقد كان له هذا الفشل برهاناً مقنعاً على انَّ الله اراده في العالم لخدمة الانسانية البائسة [١] . فسار في دعوته هذه لاينظر الى سواها ، ولا تلذ له الا اعمالها . وحين اختير للرئاسة العامة على الجمعيات بدمشق لم يكن من دافع لذلك الاختيار سوى غيرته وفضيلته وتقواه . غير انّه ما لبث ان رأى اثقال الرئاسة حاجزاً يحول دون توسّع فضيلته العاملة فاستقال بروح تواضعه ، وفرحت نفسه بتلك الاستقالة كما فرح بها الفقرآء الذين لم يكونوا يتعزّون به رئيساً كما تعزّوا به عضواً عاملاً ، من حيث انه اضحى اقرب اليهم ليتذوقوا طعم حنانه .

وليس من يجهل انه كان مطلق التصرف في ايرادات الجمعيّات نظراً للثقة الشاملة التي احرزها . ولذلك استحقَّ ثنآءً خاصاً من الرئيس الاكبر لجمعيات القديس منصور في باريس .

على انَّ غيرته المشهورة على الخدمة في صفوف هذه الجمعيات لم تقلّ عن غيرته على تكثير وحداتها وفروعها ، وعلى ان يكون

---

(١) راجع الفصل السابع : الرهبانية ام الزواج (ص ٧٧)

جميع اعضائها مُنتقَين من اصحاب التقوى الراهنة .

وقد مرض [1] يوماً مرضة كادت تودي بحياته ، ولما شعر بالخطر المحدق به طلب بالحاح ان يحضر اليه ابن ابنته حنينة ، جورج خليل ساره ، فحضر فقال له جرجي : « اني سميتك جرجي لكي تخلفني في خدمة الفقرآء فأوصيك بهم » . ثم قال : « الان ارتاح ضميري فلا خوف من الموت ولا خوف على الفقرآء اخوة يسوع المسيح . »

فكان همه اذن ان يكون في جمعيات القديس منصور من يخلفه في مواصلة عمله وفي طريقة عمله . ولكي يتسع امام هذه الجمعيات ميدان خدمتها ، وكان عددها سنة ١٩٢٨ ستاً ، قد سعى سعياً فعّالا لا نمائها ، فتألفت في تلك السنة عينها جمعية سابعة بحماية القديس يوسف وتعيّن رئيساً عليها ابنه الياس بيطار ، وكان من اول المنتمين اليها ، يوسف بيطار ابن اخيه [2] . واذ كان يوسف هذا مسافراً في تلك السنة الى باريس قد وكل اليه جمع اللمة في تلك المدينة ، حسبما ورد في احدى رسائله الى ولده الدكتور حنين بيطار في باريس بتاريخ ١٠ ك ١ سنة ١٩٢٨ :

« المجد لله في العلا وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة . من مدة كم يوم ، ارسلنا لكم تحارير صحبة ابن عمكم الخواجا يوسف بيطار الذي وكلناه بان

---

(١) من ذكريات ابنته حنينة .

(٢) من رسائله .

يشترك معكم ومع الاب المحترم ارسانيوس عطيه لكي تجمعوا لنا الاحسانات من جميع اقربائنا واعزائنا ابناء وطننا العزيز الذي فيه ولد القديس يوحنا الدمشقي العظيم ، وفيه ايضاً القديس بولس الرسول دلّوه من طاقة السور وهربوه من وجه الملك اراثا ، الذي كان يريد ان يقبض عليه . والآن هذه الطاقة والسور صار لنا وصاروا ذكر عظيم دائم ، فالحمد لله على هذه النعمة العظيمة التي حصلنا عليها بدون استحقاق . فان شاء الله تكونوا باشرتم باللمة التي تجمعوها لنا لكي نوزعها على الفقراء بهذه الاعياد وغيرها . ولا تظنوا ان هذه العطلة والتعب يمضوا سدى لان كاس الماء البارد له ثمن عظيم فكم بالحري التعب والسعي والاهتمام بشغل وصالح الفقراء اخوة يسوع المسيح . »

وقد اشرك في هذه الجمعية السابعة اكثر افراد اسرته . غير انه كان يحتم حتما جازماً ان لا يدخل في احدى الجمعيات الا كل عضو ممتاز بالتقوى والغيرة حسبما يقول هو في احدى رسائله :

« . . . من مدة نبهت على كل اعضاء هذه الجمعية وحتمت عليهم لمجد الله وقلت لهم بان كل واحد منا له اقرباء واصدقاء واصحاب ، فواجب على كل واحد منهم ان يفتكر بان ينتخب واحد من اقرانه الشبان يكون عنده روح التقوى المسيحية ويشركه بهذه الجمعية المقدسة لان هذه الجمعية خصصناها من اولها للشبان ، وانا قاصد واحب ان اكثر اعضائها لانها الى الآن قليلة بالنسبة لبقية الجمعيات . والذين انا اجيبهم لبقية الجمعيات أقول لهم وافهمهم عن كمية الاجرة لان المثل يقول : شرط بالحقلة ولا خناق على البيدر ، وابين لهم حساب الاجرة الواحد
(كذا) وبعده دار الملك السماوي ، الدار التي لايلزمها لا تصليح ولا مرمّة ٣٠
٦٠
ولا طينة من تراب الاحمر الذي يجيبوه من ارض جوبر . . . وقلت ١٠٠
لاعضاء هذه الجمعيّة : انتم كلكم ، البركة ، شبان ، وانا اول شاب بينكم ، ١٩٠

وقدمت لكم واحد شاب وهو يوسف ابن اخي ، ولا أكتفي بواحد فقط بل ان اراد الرب سأسعى بغيره بقدر مكنتي . وقد فرضت على كل الجمعيات ان كل عضو فيها يجب ان يكون تقي ليتمجد الله على سائر الاحوال . »

وفي سنة ١٩٢٩ صار عدد الجمعيات بهمته وسعيه ثمانية ، ثم تسعة . واحسن ما يمكن ان يقال عن غيرة جرجي على هذه الجمعيات ما كتبه هو في ١٢ تموز سنة ١٩٢٩ :

« . . . ثم نخبرك عن نجاح جمعيات القديس منصور الثانية والآن صاروا تسعة ، لاني انا من زمان ملاحق رئيس المدرسة [١] الخوري مخائيل بواب ، لكي نؤلف جمعية بالمدرسة من الاولاد نظير جمعيَّة مدرسة الاولاد بدير العازرية . . . أخيراً عملنا جمعية مشورة وتوجهنا انا وكم واحد لعند الرئيس وألحّينا عليه حتى تصير جمعية من الاولاد لمار منصور نظير دير العازرية . فبوقته قَبِل ، وقد انتخب من بين الاولاد اثنين وثلاثين ولد من الاتقياء الذين كنت متكلم معهم ، وراغبين هذا الكار ، والبعض منهم اشتركوا من زمان بجمعياتنا وهم بالمدرسة . فهؤلاء الاولاد قد صاروا الآن عساكر لمار منصور وقد فرحت بهم كثيراً وداغاً اقول لهم : لازم ان تثبتوا داغاً بهذه العسكرية المقدسة لمار منصور حتى الباري تعالى ينجيكم من عسكرية الدُوَل الصعبة ، لان الدول يعطوا عساكرهم الاسلحة الجهنمية والمدافع لكي يقتلوا ويفنوا بعضهم بعض ويخربوا البلاد والمدن ، واما عساكر مار منصور فيعطيهم الدرهم او المواكيل والكساوي ليوزعوها للفقراء اخوة يسوع المسيح ، وعلى المحابيس والعريانين . عساكر الدول يلزم ان يكونوا في عز شبوبيتهم ، اصحاء الجسم ولا متقدمين بالسن ، وانا صرت بسن التسعة والثمانين سنة ، اخدم بهذه العسكريَّة الخدمة اللذيذة . ولا مرة الجنانار [٢]

---

(١) المدرسة البطريركية بدمشق (٢) لغة عامّية في « الجنرال »

جمعيات القديس منصور في دمشق وترى المرحوم جرجي البيطار عن يمين سيادة المطران انطونيوس فرح النائب البطريركي

الكبير مار منصور قال لي : انت حاجتك صرت كبير كتير ، والى الآن لم ازل اخدم هذه العسكرية التي تقوّي الجسم وتجعله ان لا يقبل التقاعد ، بل يخدم لاجل كثرة الاجرة التي بها نمحي كثرة خطايانا التي قد تعالت فوق راسنا اعلى من برج ايفل في باريس . ثم انا من زمان كنت انبه على كل الجمعيات لتتصور كلنا ، ومن مدة قلت لهم : الآن ما عدت اقدر أصبر ، وقلت لكاتب الجمعيات ان يرسل اعلانات لكي تحضر كل اعضاء الجمعيات ، الاحد الذي بعد خميس الجسد، لدير العازرية وتكلمنا مع المصور لكي يحضر . واخذنا قول من سيادة المطران انطونيوس فرج لكي يكون موجود فيما بيننا ، وسيادته حضر في النهار المذكور ، وجميع اعضاء الجمعيات ورئيس الدير ومدير جمعيات اولاد المدرسة لمار منصور بالعازرية، والجميع اخذوني ووضعوني عن يمين سيادته وصار التصوير، والان كل الاعضاء ومتوظفين الجمعيات أخذوا صور وقلت لكاتب الجمعيات ان يرسل لكل المعارف صورة . . . » .

واذ كان سيادة المطران فرج النائب البطريركي العام في دمشق يلقي آخر موعظة في الرياضة الروحية التي اقامها النادي الكاثوليكي في ٩ كـ١ سنة ١٩٢٩ ، وكان جرجي حاضراً ، جاشت عواطف الغيرة في نفسه فكتب في اليوم التالي :

« . . . حطّيت عيني على هؤلاء الشبان المهذبين والعالمين لكي اسحبهم عساكر لجمعيَّة مار يوسف المنتمية للقديس منصور ، وبذلك تكون هذه المملكة قويَّة بواسطة كثرة عساكرها أي جمعيات مار منصور ، التي انا اول خدامها بدون استحقاق . ولا لذة لي في العالم غير هذه الخدمة الشريفة ، التي لي بهذه الخدمة واحد وستين سنة ، وما كنت اكلّ ولا احسب حساب احد ولا استحي من احد لاني الى الآن صرت شيخ الشحادين واقدمهم . »

فمن لا يرى في هذه الكتابة الشائقة صورة امينة لما انطوت عليه نفس جرجي من الغيرة على جمعيات القديس منصور والاهتمام بانمائها وتكثيرها لخدمة الفقرآء، حتى انه لم يخشَ ان يقدّم نفسه للشبان مثالاً بالعمل والقول غير ناظر الى المجد الباطل، اذ اراد، وهو الشيخ التسعيني، ان يظهر في الرسم الشمسي ليلقي على الملإ امثولة الجهاد والتضحية، ويبيّن ان خدمة الله في شخص القريب لا تحول دونها اثقال الشيخوخة، اذا كانت الارادة الصالحة دعامتها، والايمان الحي اساسها المكين.

الفصل الثالث عشر

حياته الداخلية

ايمان عظيم، وتواضع عميق، وتديّن راسخ، وصبر عجيب، وتقشف شديد، وابتسامة عذبة هي عنوان المحبة والشعار الصادق لصفآء النفس: تلك هي ميزة حياة جرجي بيطار الداخلية.

لن نرى في هذا الفصل الدقيق ذلك التسامي الذي بلغ اليه بعض رجال الله في تحليلاتهم العالية لمبادئ الفضيلة وللعلوم الالهية، ولا تلك الجولات التي تغلغلوا بها في أسرار الحياة والخلود، بل نرانا أمام نفس ساذجة، اتخذت من بساطة تعاليم الانجيل

أساساً لبنائها الروحي ، وطريقاً الى غايتها ، ونوراً صافياً قادها بأمان الى ابديتها .

لقد زرع ذلك الوالدان الفاضلان في قلب ولدهما جرجي بذار الايمان الراسخ فنما فيه بعنايتهما ومثالهما ، وبرز بأجلى المظاهر ولاسيما في علائقه مع الله ومع نفسه ومع القريب . وهذا مايشرح لنا سر ذلك الثبات العجيب البارز في أطوار حياته اذ انه لم يحد عن الخطة التي تقيد بها منذ صباه اي الاعتصام بالله في كل الاحوال . وكان ايمانه العظيم يُنشىء فيه الشعور العميق بضعفه ووهنه اذ يجلو لبصيرته عظائم الله وقداسته ، ولكنه في الوقت نفسه كان ينشىء فيه الثقة الوطيدة بانه تعالى مؤتيه الأيد والقوة ، ولذلك كان يقول دائماً : « نتوكل على الله في الملمات والصعاب . »

وبقوة هذا الايمان الراسخ ، كانت أشواقه تُهيب به دوماً نحو السماء بيت الله ، فكان يقول لبنيه :

« يا اولادي نحن مسافرون وبيتنا في السماء . وهنالك ناخذ المكافأة والاجر في دار الملكوت السماوي . »

ولذلك أيضاً كان يبدأ نهاره ويختمه بالصلاة في غرفته ، وبالذهاب الى الكنيسة لحضور القداس الالهي . غير انه لاعتقاده بحقارة نفسه لم يكن يتناول القربان المقدس الا مرة في الاسبوع ، يوم الاحد ، فيقضي من الخميس الى السبت في الاستعداد لقبول

الضيف الالهي ، ومن الاثنين الى الخميس ، في الشكر على النعمة الالهية التي نالها بتناول جسد الرب . وكان دائماً في طليعة المقبلين الى الكنيسة لحضور الحفلات والطقوس ، فيقف هناك ازاء الحضرة الالهية بتهيب عظيم يُبرزه امام الجماهير كأنه ملاك في جسم انسان وكأنّ ايمانه بالله يسمّر فيه خوفه تعالى فلا يلتفت يمنة ولا يسرة . وكنتُ قد رأيت لاول مرة بين جمهور الشعب شيخاً جليلاً يحضر صلاة البارا كليسي وامائر الخشوع المسيحي على وجهه ، وكان راكعاً بتذلُّل واتضاع . فاستوقفني منظره فقلت : لن يكون هذا الشيخ غير جرجي بيطار ، فلم يُخطئ ظني . ولم يُرَ جالساً في الكنيسة الا في السنتين الاخيرتين من حياته لكثرة امراضه وشدّة ضعفه .

وكان يعتبر الصلاة غذآء للنفس وضمانة للخلاص ، فلم ينفكّ عنها البتة ، ليقينه أن الذي يصلي يخلص ، والذي لا يصلي لا يخلص ، وان الصلاة هي عينا الايمان النيّرتان ، لما بين كليهما من العلاقة المتبادلة .

وكان يزور القربان المقدس يومياً ، وقد اشترك لاجل هذه الغاية في الرهبانية الساروفية الثالثة . وهنالك امام سجين المحبة ، كان يناجي السيد المسيح تلك المناجاة البنويّة الصادرة عن قلب تغلغلت المحبة في كل شعابه .

وقصارى الكلام ان الايمان كان لجرجي بيطار صلة وثيقة

تصله بالله غايته الكبرى ، وترشده اليه تعالى في جميع اطوار حياته واعماله ، فلم يكن ذكر الله يفارق قلبه . وقد زرع هو نفسه ، بذار هذا الايمان المقرون بالتقوى ، في نفوس اولاده وذويه فغدوا هم أيضاً مثال الاسر المسيحية والبنين الصالحين . وقد قدّم لله ثلاثة من اولاده للانتظام في سلك الرهبانية ، وهم جبران وروز وايلين ، والثلاثة الاخرون ، حنينة والياس وحنين ، أسسوا عائلات تُتوارث فيها تقاليد القداسة والفضائل المسيحية .

ان الفلسفة العصرية تريد بظاهرها الخارجي الفتّان أن تجعل الله تعالى في معزل عن كل تدخُّل في حوادث الكون عموماً ، والتأديبية منها خصوصاً ، فتشرح كل شيء بمبدأ الاتفاق الذميم ، او القَدَر القتّال ، او الاسباب الثانوية الطبيعية . أما جرجي بيطار الذي كان سعيداً في بساطته الانجيلية ، فكان له من عاطفته الدينية وتشرُّب نفسه من حياة الايمان الفيّاض فلسفة قويمة تُريهِ في الله أباً يؤدّب العالم احياناً بانزال الضربات والنوائب . وقد كتب في هذا الموضوع الى ابنه الدكتور حنين في باريس ، في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢٨ :

« ... توضحون عن عطل الطقس وكثرة البرد والزوابع القوية وغزارة الامطار التي سببت اضراراً كثيرة لكل اصناف الخضر ، ونحن (نوضح) قلّة المطر التي كانت في بلادنا سوريا ، وآخر مَطرة كانت ايضاً قليلة ، بشهر شباط ، وما عدنا شفنا نقطة مطر ، ومياه الانهر قليلة والخضرة ايضاً غالية جداً ... وفي

هذه الجمعة صار حريقة مهولة قدام سوق علي باشا بسوق الخيل وسوق التبن وسوق الزرابلية لحد السنجقدار ، وكم لوكندة وجملة بيوت ، وصارت هذه الحريقة بعد الظهر ، وكان هوآء قوي بنوع ان احد ربات البيوت ما قدرت أن تهرب من باب البيت فخرجت الى البلكون وولدها على يدها وأخذت سجّادة ولفت بها ولدها ورمته على الشارع المملوء من الناس الذين استلقوه ، وكلهم قالوا لها : ارمي حالك ونحن كلنا نستلقيك ، فخافت ، واذا اللهيب وصل اليها ولهب فسطانها واحترقت . ويقولون البعض ماتوا . وبعد ما توضّح سبب هذا الحريق ، انه كان في سوق التبن محل كبير يشتغلوا فيه السينما ، فانفجر فيه أزان البنزين ، فاشتعل المحل ، وبكل سرعة مشى الحريق من قدام سوق علي باشا لحد السنجقدار وقدام السروجيّة ، واصبح كثيرين بحالة تعيسة لا يملكون شيئاً ابداً . الله يساعدهم ! »

ثم يضيف قائلًا :

« وهذا كله مع الغلاء ناتج عن خطايانا ، وخصوصاً الموضات . »

ولئلّا تسري هذه « الموضات » الى افراد اسرته قد حذّرهم منها لانها تجلب غضب الله . ولكنّه يشكره تعالى على أن كل آله « محشومو اللباس » ، ويقول في هذا المعنى مخاطباً روز ضباعي خطيبة ولده الياس :

« ان قلبي مسرور من حشمة ملبوسك لانك مثال لكل البنات والستات ، وهذا ما يزيد به الحسن والادب المرضي يسوع المسيح . »

تواضعه العميق — قلنا ان ذلك الايمان الحي المتلألئ في نفس جرجي بيطار هو الذي أنشأ فيه تواضعه العميق . ثم ان هذا التواضع جعله يلقي بنفسه بثقة تامة بين يدي الله أبيه . فلقد عرف

نفسه ضعيفاً وعرف نفسه حقيراً ، ولكنه عرف ايضاً ان لا قوة له ولا قيمة الا بالالتجاء اليه تعالى بعاطفة الايمان والثقة ، حتى ليتجلى لنا ان ميزة هذا الرجل هي التواضع . وبهذا المعنى كان فقيراً بالروح قبل ان يكون فقيراً بالجسد ، وبسيط القلب وديعهُ متأسياً بالسيد المسيح القائل : « تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب . » وكان تواضعه بسيطاً من غير تكلُّف او تصنُّع . وسرّ هذا التواضع انه عرف عظمة قداسة الله فقاس بها عيوبه ونقائصه وضعفه فاستنتج من هذا المقياس الالهي جسامة النقائص والزلات التي لا نبالي نحن بها . وكذلك كان يعتبر نفسه « اول الخطأة واكبرهم » . وهي لعمري نزعة في كل القديسين العظام ، قلما نفهمها على هذه الارض . أما نحن فقد نظنُّ ان فعل فضيلة ما يكفي نفسنا المسكينة الصغيرة . ولقد كان جرجي يقول بصدق المتواضع الحقيقي :

« ان الله غمرني بنعمته فكيف يمكنني ان لا اكون اميناً نحوه تعالى ؟ ولو صارت هذه النعم لغيري ، لكان استفاد منها أكثر مني انا الخاطئ الكبير . »

فبروح ذلك التواضع العميق ، كان يكتب على كثير من اوراقه هذه الآية :

« يا الله اغفر لي فاني اكبر الخطأة وأشقاهم وأشنعهم واتعسهم . »

وفي الكنيسة كان يبكي على خطاياه بكاءً مرّاً ، وفي الليالي كان ينهض من سريره ويتأوه ويقول : « يا الله ارحمني انا

الخاطي ! » وكل مرة يَقْدَم أحد لزيارتهِ ولا سيما في سنيه الاخيرة ، كان يسمعه يصرخ والدموع تتدحرج من عينيه : « اني اكبر الخطأة . الويل لي انا المسكين الشقي ، اني قد خطئت كثيراً . » وقد سمعته مرة ابنته روز يقول هذا الكلام بنفس منكسرة ، فأجابته ببساطتها : « اذا كنت انت خاطئ فمن هو البار ؟ » وعلى هذه الصورة كان تواضعه العميق مدعاة لان ينطرح كل يوم على أقدام الله ، سوآء في الكنيسة او في غرفته ، وبذلك توثقت علائق اتحاده به تعالى .

ومثلما أنه كان متواضعاً امام الله ، كان متواضعاً امام البشر فكان يكره المديح ويهرب منه ، ويتجنب كل مجتمع تنبعث منه اليه نفحات المجد ، فيذهب وينضم الى الفقرآء متواضعي الارض ، حاملاً معهم أثقال المذلة والهوان ، حتى انه دعى نفسه « رئيس الفقرآء وشيخ الشحّادين وخادم الفقرآء » . وكان هو رسولهم في التسوُّل على ابواب الاغنيآء . وقد بلغ به تواضعه هذا الى حدّ انه منع الفقرآء عن التسول ليتسوّل هو باسمهم ، ويتفرّغ لموعظتهم وحضّهم بما كان له عليهم من نفوذ على ان يرجعوا الى الله تعالى بالتوبة الصادقة . فكان يريهم ان الفقر الذي يتذوقون مرائره هو تأديب من الله ، او طريق يوصلهم بالصبر والايمان الى سعادتهم الابدية . بيد أن منعه الفقرآء عن التسوّل كان ايضاً ناتجاً عن اعتقاده الراسخ بان تسوُّل الفقير يلجئه احياناً الى استخدام

الكذب في استعطاف قلب الغني . ولما كان جرجي يكره الكذب كرهاً شديداً اراد ان يوفر عن الفقرآء خطايا الكذب ويكون هو المتسوّل ، وهذا ما يشرح لنا شيئاً من نشاطه الغير الاعتيادي في هذا السبيل . ولذلك كان بهمة لا تعرف الملل يطرق ابواب الرحمة ولا يهوله اتساع موضوعها ولا يقف عند صعوبة في سبيلها ولقد احتمل الاهانات وصبر على الذل والمسكنة كما صبر على عنآء الاسفار ومشقات التسوُّل . وكان ماهراً في معرفة أخلاق الفقرآء . فتأوهه في كتاباته الخاصة على « تعاسة احوالهم » لم يكن يظهر منه شيء امام العامة ، وخصوصاً امام الفقرآء أنفسهم ، ليخلق فيهم القناعة بحالتهم الفقرية . وبينا كانت الجماهير تتلفظ باسم جرجي بيطار ، كان هو تائهاً في احيآء التسول ومتغلغلاً في مخابىء الذل والمسكنة ، لان تواضعه كان يتألم من اقوال المديح الموجَّهة اليه ، ولكنه كان يظهر حيث تدعوه الرحمة .

وعلى قدر شعوره بنهاية سفره على الارض ، ودنوّ مثوله امام الله عز وجل ، كان يزداد فيه تواضع نفسه ويشتد اعترافه بأنه « أشقى الخطأة وأتعسهم » ، وبأنه « عبد بطال ».

تعبده لمريم العذرآء — واذ كان يخاف خوفاً مقدساً من الوقوع بين يدي الله ، قد اتخذ لنفسه محامياً عنده تعالى مريم العذرآء « ملجأ الخطأة » طالباً اليها ان تحامي عنه ، لاعتقاده انه « خاطىء

كبير واكبر الخطأة » . ولقد نشأت في نفسه منذ عهد الصبا ثقة عمياء ودالة بنوية في مريم العذرآء ، فكان لا يلذ له الا التلفظ باسمها المحبوب . وقد اصبحت له تلاوة السلام الملائكي حاجة في النفس لا يقدر ان يتخلى عنها ، وعذوبة في الفم تفوق حلاوة الشهد والعسل . بل ان التعبد لمريم البتول قد اضحى موضوع اشواقه وعواطفه وملجأه الامين في كل الصعاب والنوائب .

وحين كان يمرض هو او احد اولاده كان يلتجىء الى العذرآء قبل استشارة الاطبآء . ولكنه لم يكن يطلب منها الشفآء لنفسه الا لغاية نبيلة هي ان يواصل خدمة الفقرآء والتوبة عن خطاياه . وقد كان مبتلًى بعلة ثقيلة تذيقه امر العذاب . فالتجأ الى الام البتول بصلاة حارة فنالت له الشفاء التام بدون توسط طبيب او استعمال علاج . وقد روى هو نفسه تفاصيل الخبر في احدى ذكرياته . وكان ذلك سنة ١٩٢٩ .

وبمثل هذا الايمان الحي كان يلتجىء الى مريم العذرآء كل مرة كان يمرض احد اولاده . فقد مرض يوماً اولاد ابنه الياس ، مرضة قوية كادت تودي بحياتهم ، فابتهل جرجي الى مريم العذرآء بهذه الصلاة البديعة لاجل شفائهم قائلًا :

« ايتها العذرآء الكلية القداسة اشفعي فينا لدى ابنك يسوع فادينا . وتلت ليسوع والدموع تهطل من عيوني : يا يسوع الرحيم ، ارحمنا كما رحمت الامرأة الكنعانية وشفيت ابنتها ، فاشفِ اولاد ابني الحبيب الياس ، اشفِ لنا

جورج وجوزيف الملاكين ، اكراماً لوالدتك مريم لانها هي ملجأ الخطأة ومعزية الحزانى ومعونة كافة المسيحيين . »

وقد بقي جرجي رئيساً لاخوية سيدة البشارة منذ سنة ١٨٨٢ الى آخر حياته ، وأشرك فيها اكثر آله وذويه .

صبره وتقشفه — اما عن صبره العجيب وتقشفه الشديد فحدّث ولا حرج . قال في احدى رسائله :

« اليوم أبقيت ذاتي في التخت حيث نظرت ان رجلي تورمت اكثر من كل الايام ، حيث البارح نهار الاحد مشيت عليها كثيراً لاجل الجمعيات وغيرها ، وما قمت لحد الظهر وبقيت بدون حضور القداس ، فصمت للظهر بدل القداس ، وبعد الظهر نزلت من التخت حيث الورم خف ، وهذا قليل على خطايانا . »

والحق يقال انه كان جباراً في الصبر وجباراً في التقشف . فقد عرف ان الصليب منذ انغرس على الجلجلة اضحى تلك الامثولة الالهية الملقية على العالم اجمع اصولَ الحياة المسيحية الحقة محلَّاةً برسم المثال الاعلى المسمَّر على تلك الخشبة ، والذي اضحى بآلامه وصمته في الآلام ، عنوان المحبة والصبر . ولذلك اتخذ جرجي الصليب وما فيه من نور الخلاص ومعاني التقوى أساساً لحياته . وبهذا الروح المقدس كان يحافظ أشدّ المحافظة على واجباته المسيحية من اجتناب المسارح وإدمان الصيامات والقطاعات الكنسية ، حتى وهو ابن تسعين سنة .

وقد كتب اليه شقيقه الدكتور نقولا بيطار والد حضرة الدكتور ابرهيم بيطار . رسالة يقول له فيها :

« يا أخي العزيز ، لقد فهمت ان همتك لم تزل همة الشباب ، وانك مرة تذهب لحوران وأخرى لصور . . . ألم تشبع من هذه الخدم ، وتقتصر على خدمة الفقرآء لا غير ؟ حتى انه يلزمك في الوقت الحاضر ان تتجنب الامرين وتريح جسمك من هذه المتاعب ويكفيك ان تكوّن تلاميذ تنشئهم لهذه الخدمة ليحلوا محلك . . . »

ثم قام عليه اولاده وارغموه على التخفيف من اماتاته محافظة على صحته . فكان جرجي ينزل عند ارادتهم الى حين ، أعني طيلة المدة التي يكون فيها مريضاً أو متعباً ، وبعد ابلاله كان يعود الى الصيام والقطاعة . وبهذا المعنى كتب الى ابنته حنينة والى ابنه الدكتور حنين بيطار وقد مزج كتابته بشيء من نكاته وظرافته :

« . . . عرفتوني باني لازم اداري صحتي كثيراً لاجلكم ولاجل الفقرآء ، والان صار لي جمعتين وانا اعتني بصحتي اكثر من اللازم ،نظراً للسعلة القوية . . . ولكني الحمد لله صدري صاغ سليم ، « على العليق والبيطار » ، ولاجل ذلك ما باليت بقوة السعلة واداري حالي من البرد ، وما عدت صمت الاربعاء والجمعة . وبعض الايام افطر الصبح حليب حتى تبقى صحتنا ماكنة ونقدر نخدم اخوتنا الفقرآء المنضامين من البرد والعري والجوع . . . والان صحينا من السعلة ورجعنا نصوم، لله الحمد، وانا من تسعين سنة قاطع الدخان و كل المشروبات . . . وأظن لا احد يداري صحته اكثر مني لاني يومياً انام طول الليل حتى من المسآء الى الصبح لاجل صحتنا ، ويومياً نطعم هذا الجسد ثلاث مرات لاجل صحتنا، ولاجل صحتنا

حرمنا حالنا كل ايام حياتنا لذة جميع المشروبات وخصوصاً حليب السباع وشرب الاركيلة والدخان الجبيلي الذي مثل النديم يسلي كل محزون، وايضاً لاجل صحتنا لبسنا قمصان فنيلا صوف كل الشتآء، ولاجل الاعتناء بصحتنا ومن قبل الشتاء رمينا خمسة عشر قنطار حطب زيتون لندفيء هذا الجسد حيث يقول المثل: الدفا عفا، ولاجل صحتنا ايضاً كل سنة نعمل ونشحد من الناس مرتين.»

هكذا كان يفهم هذا الرجل كيف يمكن الانسان، على تقدّمه في السن، أن يجمع بين المحافظة على الواجب الديني والاعتناء بالصحة، ذلك الاعتناء الذي أضحى عند الكثيرين حجة سهلة للعدول عن كل ما يقسر الطبيعة ويضغط على رغائبها.

ويحسن بنا أن نورد هنا ذكريات خاصة كتبتها الآنسة اولغا خليل سارا، عن جدها جرجي بيطار، فنعرف تلك الروح العالية المتجلية في هذا الرجل:

«كنا نعتقد أن الله يتكلم في نفس جدّنا، وكنا نعد ضرباً من الجسارة معاكسة ارادته. ففي سنة ١٩٢٦، اذ كان شاع خبر انتهاء الثورة الدرزية، عزمنا أن نتفسح في جنائن دمشق، وكانت هي المرة الاولى التي اعتقدنا فيها أننا نستطيع اجتياز ابواب المدينة بعد تلك الثورة. فلما عرف جدي عزمنا هذا قال لنا: ان الخطر لا يزال موجوداً فلا تخرجوا اليوم. ولم يكن أحد منا يرضى بان يحرم نفسه لذة تلك الفسحة. غير أننا لم نكن نريد أن نذهب اليها رغم ارادته. وعبثاً حاولنا أن نقنعه ليأذن لنا. وبينا كنا على استعداد لان نخرج من البيت رغم ارادته اذا بنا نسمع دوي البنادق في الشارع فتطلعنا فأبصرنا جمعاً مزدحماً بالنساء والاطفال وقد هربوا مذعورين، فذعرنا معهم ورجعنا وأوصدنا الابواب ونحن ذاهلون، لان لم يكن شيء جعلنا نستدرك وقوع

حادث مثل هذا سوى كلام جدنا ولاشك عندنا ان محادثتنا معه لاقناعه كانت سبباً لان نسلم من المضرة ، ولا شك أيضاً أن العناية الالهية ظهرت في نفس جدنا لننقذ من ذلك الخطر .

« وكنا نعتقد بقداسته وفضيلته المبنية على الصبر والاماتات والتواضع والاتحاد الدائم مع يسوع المسيح الذي كان ، مع قديسيه ، موضوع أحاديثه بيننا . ولم يكن يقبل أن نلثم يده لانه كان يعتبر نفسه « خاطئاً كبيراً » . واذ كنا نزيد منه أن يخفف من شدة إماتاته وصياماته ، ونقول له ان الصيام لا يلزم بعد السن الستين ، كان يجيبنا على الفور : « أتظنوني عجوزاً ؟ » . في اوقات الصيام والقطاعة كان يأكل الخضر المسلوقة أو المقليَّة بزيت ويجلس الاخير على المائدة وكان يصوم ويتقشف أكثر مما تتطلَّب الكنيسة المقدسة ، ولم يكن يكتفي بأن يوزع على الفقرآء أموالاً وصلواتٍ واماتات بل انه كان يسمو بفضيلته الى تلك الآفاق السامية بالتواضع والمحبة ، برقة ووداعة لا يصل اليهما سوى الروح المسيحية الكاملة . واذا اتفق له أن يكون يوماً عاجزاً عن مساعدة الفقرآء كان يتضايق في نفسه لاجل مساعدتهم ، او يتعذب معهم بالاماتة والتضحيات لئلَّا يكون أحسن منهم حالاً . »

ولم يزل هذا شأنه في جميع اطوار حياته الداخلية ، فسار بأقدام ثابتة على انوار ايمانه وفي سبيل التواضع وقوة الفضيلة الى الاتحاد بالله تعالى غايته الكبرى .

الفصل الرابع عشر

على اعتاب الابدية

لم يكن لجرجي مطمع في طول الحياة لانه كان متجرداً عن الدنيا وما فيها . واذا كان يلتجىء الى الله ليشفيه من الامراض التي ألمت به فلكي يخدمه تعالى بخدمة الفقرآء ويكفّر ، كما يقول ، عن خطاياه .

وقد نظر الى هذه الحياة نظرة الحكيم ، وعرف ان مقدار عمر الانسان في اقصى طوله سبعون سنة . ولما دنا من هذا الحد جعل الابدية نصب عينيه وتصوّر نفسه على قرب الولوج فيها . فكتب الى ولده الخوري جبرائيل بيطار ، بتاريخ ١٥ نيسان سنة ١٩٣٠ :

« . . . أنتم تعرفون عظم قصوري في التحارير ، وكذلك كم اني مقصر بتقديم واجباتي لسيادة سيدي الاب العام الكلي الاحترام ، وكنت دائماً أعلل النفس بأني عازم على التوجه الى العامر لاقضي الايام القليلة الباقية لي في هذه الحياة المملوءة من المخاطر الروحية ونادباً كثرة خطاياي التي يلزمها دائماً بكآء مر . »

وكتب الى ولده الدكتور حنين بيطار في باريس :

« . . . عندما قطعت سن السبعين سنة . افتكرت اني قاربت السفر من هذا العالم ، وبوقتها اشتغلت صندوق لحالي من خشب السرو ، واشتغلته مظبوط

كثير خوفاً من ان يدخل الدود ويرعى هذا الجسد الشقي الممتلىء من الخطايا التي قد تعالت فوق راسي مثل جبل الشيخ ... وهذا الصندوق عامل فيه محلين لابي وامي الذين توفوا ، ابي سنة ١٨٧٢ وامي سنة ١٨٧٤ ، ومن بعد وفاتهم بسنتين فتحت صناديقهم وجبت جماجمهم ، والآن موجودين عندي هم والصندوق بجمعية مار منصور . »

وكأن رماد البلى بدأ يظهر في اطراف جسمه ورجليه ليتمرّن على ما يكون في القبر في ضجعته الاخيرة . بل ان حياته كلها لم تكن الا استعداداً لذلك المقرّ ، بما فيها من التجرد والتضحية والفقر بالروح . وقد اخذت الامراض والبلايا تنهش ذلك الجسم الجبار فتؤلمه دون ان تصرعه ولكنها تدنيه شيئاً فشيئاً الى اعتاب الابدية ، وهو يسير معها غير متحسِّر في الحياة الدنيا الا على مفارقة اخوته الفقراء .

واول صدمة نالته هي الحادثة التي جرت له في آب سنة ١٩٢٧ ، ولكنها صدمة عجيبة ، وقد تصدى هو لها ليدفعها عن احب الناس اليه . وكنت سمعت هذه الحادثة غير اني لا اريد ان اروي ما سمعت بل ادع الآنسة اولغا ، ابنة ابنته حنينة ، ترويها لنا لانها شاهد عياني :

« لقد جرت الحادثة في شهر آب سنة ١٩٢٧ ، اذ كان شقيقي ميشال يتألم بشدة من اوجاع عصبية حادة في عروقه . فكل مفاصله حتى مفاصل اصابعه كانت تذيقه مر العذاب عند اقل حركة فيها ، الى حد اننا كنا نقضي وقتاً طويلاً في تحريكه على السرير لتغيير مركزه ، وكان ذلك يكلفه اوجاعاً حقيقية ،

لانه كان يتألم بنوع أخص من مفصل قدميه عند الكاحل ٠

وكل مرة يراه جدي في تلك الحال ، كان يذهب من عنده الى بيته مرتعشاً بالتوجع ، وكأن صورة حفيده وهو يتقلب على سرير عذابه لا تبرح فكره وقلبه ٠

ثم حضر اليه نهار أحد بعد الظهر ٠ وكان ميعاد فرض أخوية سيدة البشارة قريباً ، وكنت حاضرة مع والدتي ، وكانت فوق سرير شقيقي صورة العذرآء ٠ فرأيت جدي كأنه سمَّر نظره في تلك الصورة ٠ وبعد سكوت عميق ، قال لنا بلهجة الملهم : سيُشفى ميشال اليوم ٠ فاجابت أمي : فليرتضِ الله يا أبي ! فقال جدي : اني ذاهب الآن لالتمس من العذرآء ان ترفع الاوجاع عن رجليه وتجعلها عليَّ ٠ فاحتججنا بشدة على قوله هذا ، لانه تعالى اكرم من ان يرتضي بذلك ، وهو قادر ان يشفي الواحد دون ان يضرب الآخر ٠

اما جدي فذهب عند ذلك لحضور فرض الاخوية على هذه النية ٠ ولم يكد يقطع مسافة مئة متر ، واذا بسيارة يقودها سواق سكير صدمته فقلبته ، ودهست رجليه عند الكاحل ٠ فحملوه الى بيته ، وبعد الفحص وجدوا كسراً في آخر ساقه عند مفصل القدم اليمنى وزيحاً أليماً (Luxation grave) في الكاحل الايسر ٠

في ليلة ذلك النهار أيقظ ميشال والدته وقال لها : « يا أمي اني أحوك ساقيَّ دون مساعدة ودون ألم وهذا عجيب ، واكاد اراني في الحلم ولكني كررت الحركة مراراً ٠ أليس هذا استجابة لصلاة جدي ؟ على شرط ان لا تكون استجابت العذرآء الجزء الثاني من صلاته ٠

ومنذ ذلك اليوم تماثل سريعاً الى الشفآء وما عتم ان قام من سريره ٠ اما جدي فكان مسمَّراً في سريره بدل حفيده ٠ وان اسرتنا كلها والاصدقآء وجميع سكان الحارة قد أثارهم هذا المصاب الحال بشيخ جليل، فهمّوا ان يقبضوا

على السائق السكران لمعاقبته فاعترضهم جدي ومنع إيصال الحادث الى الحكومة ليقينه ان السواق لم يكن سوى أداة في يد الله لعذابه فقيل له : انك يا ابا جبران قادر ان لا تطلب تعويضاً لنفسك ولكنك لست قادراً ان تمنع تنفيذ الحق العام في هذا المجرم . فحينذاك كتب جدي اقراراً شهد فيه ان سمعه كان ضعيفاً وان السواق معذور بسبب ذلك ، وبهذا الاقرار الشهم الصادق افرج عن السواق . »

كان جرجي حينذاك في السنة الثامنة والثمانين . على ان تركيب جسمه المدهش ساعده كثيراً على الشفاء من تلك الصدمة . ولكنه شعر بالضعف يسري اليه لان العمر اخذ حقوقه على القوة يوماً فيوماً . اما نشاطه في خدمة الفقراء فلم يضعف البتة فاستأنف الخدمة كما في السابق .

وقد اشار الى ذلك في جوابه على رسالة لغبطة السيد البطريرك كيرلس التاسع الكلي الطوبى سنة ١٩٢٨ :

« رغماً عن ٨٨ سنة والحادثة التي اصابتنا لحد الان فاني اشعر بذاتي ان هذا الكاركار الشحادة هو قوي وازداد معي عن الاول من بعد قيامتنا من التخت وجبر وتحسين رجلنا . والجبر يقول لازم ان تستريح من المشي حتى تخلص من الوجع والعكازه . . . »

وبقي كذلك الى سنة ١٩٣١ التي فيها ابتُلي بمرض حصر البول ، وكان لا بد من ان تجري له عملية جراحية . فأذعن لارادة الله ولكنه رأى نفسه على اعتاب الابدية فودع لفيف افراد أسرته ، وتزود بالاسرار المقدسة استعداداً لملاقاة ربه ، ثم سلم ذاته لايدي الاطباء غير حافل بنجاح العملية او اخفاقها بل متأهباً

بين للمثول يدي الله ، الذي اراد بحكمته ان يستجيب ادعية الفقراء فمنَّ على جرجي بالشفاء ، فكتب حينئذٍ بطريقته الظريفة الدالة في الوقت نفسه على روحه المسيحية :

«لولا هذه العملية لكنا سافرنا الى الابدية . ولما كان غبطته في مصر واتى الى الشام وسلمت عليه قال: يا بني كيف حالك؟ فقلت له كنت رايح اسافر للآخرة وما ارادوا أن يقطعوا لي ورقة سفر ، حيث قالوا لي انت عليك دين كتير فالاوفق ان تني هذا الدين وانت في العالم ، وأوفي (وأوفِ) بالدموع التي تمحي كثرة الخطايا . . . وهكذا مار بطرس ارجعني الى الحياة . »

والحق يقال ان جرجي لم يعش يوماً بغير عذاب وبكاء منذ تلك المدة . والظاهر ان العناية الالهية ، ارادت ان تكون سنوه الاربع الاخيرة ، سني اوجاع ومذلة . وكان الى ذلك الوقت ، فقيراً ومتواضعاً بالروح ، فكان عليه ايضاً ان يتذوّق طعم الفقر والمذلة في جسده .

وبسبب تقدمه في السن وشدة الاوجاع التي قاساها أخذت حواسه تضعف شيئاً فشيئاً ، وقد ضعفت ذاكرته دون ان يضعف عقله وقلبه ، لان الصلاة الحارة كانت غذاءها ، والصبر المقدس أساسها . بيد ان اوجاعه ، على شدتها ، لم تسترِقْ منه مرة واحدة تذمراً او تأوهاً . وإذا كان تمنّى يوماً ان يشتري له ابنه الدكتور حنين بيطار ، من باريس ، آلة لتقوية سمعه ، فلكي يتمكن فقط من

سماع الصلوات الطقسيَّة ، وفرض اخويَّة سيدة البشارة ، حسبما كتب هو في رسالته الى ولده المذكور .

ولم تزل الطبيعة تحفر بينه وبين الحياة حفرة يتعاظم عمقها ، على مقدار دنوه من ساحل الابديَّة ، فكان يغادر غرفته في ظروف نادرة ، وان غادرها فلكي يذهب الى الكنيسة متوكئاً على عكازه وحاملًا ثقل اوجاعه ، بصبره العجيب . وما عدا هذا كان يقضي نهاره على سرير الألم في عزلة لا يؤنس وحشتها غير استحضاره الله وتلاوة الصلاة اللفظية وتناول القربان المقدَّس وحضور اولاده ولا سيما ابنتيه روز وايلين ، اللتين لم يكن يربطهما في العالم الا حبهما البنوي لوالدهما . ولقد اراد له الله تعالى في الايام الاخيرة ان يعيش منزوياً عن العالم ليكون اشد تجرداً عن كل ما في الدنيا ، فيَثِب حُرًّا طليقاً وثبتَه الاخيرة الى الابدية . فدخل في شَفَق الحياة باسماً للآخرة ، ولم يعد له من علاقة في الارض سوى انفاسه المتقطعة ، وقلبه النابض بحياة الايمان والرجاء .

الفصل الخامس عشر

الرسالة الظافرة

مثلما ان الشمس عند الشفَق تبدو كبيرة بقرصها الذهبي الفتان فتسبي النواظر جمالاً وصفآء ، هكذا يبدو لنا هذا الرجل ، جرجي بيطار ، وقد وقف على اعتاب ابديته ، على وشك ان يقطع آخر خيط يربطه بالحياة ، ليدخل في عالم الخلود .

شيخ جليل ، بوجه جميل ، لم تقوَ عليه تجعُّدات الهرم ، قد رَسم عليه جمالُ النفس أمائرَ الصفآء بينا يلفحه الموت باصفراره دون ان يطفئ انوار ابتسامته الجذَّابة . وها إنَّه تجلَّى بعد قطعه مرحلة حياته الطويلة ، بصورة لامعة تُقرأ فيها أروع امثولة واجمل عبرة : اتحاد دائم مع الله بالنعمة ، فضيلة راهنة ، محبَّة نيرة مضطرمة ، تواضع عميق ، تجرد كامل ، تضحية حقة ، وقصارى الكلام ، رسالة ظافرة في سبيل الفقرآء اخوة يسوع المسيح .

في اواسط شهر تموز سنة ١٩٣٥ حبس المرض نهائياً شيخنا الجبار في عزلة غرفته الضيِّقة ، فأخذ يتجرَّع كأس الاوجاع جرعةً جرعة ، ليلاً ونهاراً ، بينا كان يصلي الى الله بالشكر والصبر .

وقد شاهدته في سكوته الخاشع واذعانه لارادة الله ، فبدا لي عظيماً في الالم وعظيماً في الصبر ، وكل ما فيه كان يتألم ما عدا قلبه وفمه المتحركين بذكر الله .

وظلّ الضعف يسري في جسمه الى ان تقطعت انفاسه فجأة في ٢٧ تموز فسآءت حاله ولم يكن يعود الى رشده الا فترات قليلة. وحينذاك أخذ يتلفظ باسم يسوع وتنبعث من قلبه تأوهات التوبة والمحبة. وعند المسآء تزود بالمسحة المقدسة. وفي صباح اليوم التالي ٢٨ تموز، تناول لآخر مرة سر القربان المقدس، بكامل التهيُّب والخشوع. ثم دخل في النَزْع بحضور جميع اولاده الذين التأموا حوله ولم يرُعْهم شبح الموت المطلّ عليهم بجلباب رهبته. وكانت ابتسامة والدهم لا تفارق شفتيه فوقفوا لا يملون من التحديق اليه بنظرات الوداع. وكان منظره المشرق، وهو على آخر رمَق من الحياة، يوحي الى نفوسهم شعوراً لطيفاً وقوياً هو الشعور بالسلام والفرح المستترْ في تلك النفس البارة، والامل الوطيد بقرب اتحادها مع الله خالقها. واذ كان يجود بأنفاسه، منحه ولده الخوري جبرائيل بيطار الحلّة السرية الاخيرة والغفران الكامل، وجثوا جميعهم وألفوا جوقاً يشيّع تلك النفس، عند خروجها من الحياة الدنيا، بصلاة السبحة. ولم يفرغوا من تلاوة آخر «سلام ملائكي» حتى طارت تلك النفس كالحمامة البيضآء تشق طريق الاعالي الى السمآء. وكانت وفاته في تمام الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.

وانتشر الخبر في احيآء دمشق انتشاراً غريباً فتقاطر الناس الى بيت جرجي بيطار ليحيُّوا جثمانه الكريم ويَرَوْا كيف يموت

جرجي البيطار ميت على سريره في غرفته

القديسون ويقبّلوا تلك اليد الفاضلة الفاعلة الخير.

وكان في طليعة المقبلين غبطة البطريرك كيرلس التاسع المغبغب، بطريرك الطائفة، واصحاب السيادة نقولاوس قاضي وباسيليوس خوري وانطونيوس فرج وكيرلس رزق، والرئيس العام للرهبانية المخلصية الارشمندريت نقولا برخش، ولفيف الاكليرس الدمشقي الشرقي واللاتيني. بل ان الحكومة السورية نفسها اعتبرت موت جرجي بيطار رزءا شاملًا مُنيت به دمشق، فأقبل حضرة ممثلها صاحب العزة عطا بك الايوبي، وزير العدليّة ونائب رئيس الوزارة، وحيًّا «منصور دمشق الصغير»، ووَفد معه طغمة كريمة من اعيان المسلمين، وجميع الطوائف الدمشقية. واقبل الفقرآء ايضاً وافراد العائلات المستورة ليودّعوا من كان اباهم وساتر فقرهم. وعظَّم الجميع بلسان واحد فضيلة الراحل الغالي. ثم جُهّز فبُسط على سريره في غرفته الخصوصية التي تحوّلت الى معبد تتّقد فيه الانوار ويتصاعد منه بخور الصلاة، واكتست بالاكاليل والزهور والرياحين. ومكث اولاده واقاربه واصدقاؤه يتناوبون الصلاة بخشوع حول جثمانه وكان وجهه مشرقاً بنور الخلود كانه حيٌّ راقد.

وفي الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالي في ٢٩ تموز، شُيّع الجثمان بموكب أشبه بتطواف انتصار، فوُضع جرجي في التابوت الذي كان هيأه لذاته بيده من خشب السرو، منذ ٢٥ سنة وكان

التابوت مغشّى بنسيج بنفسجي، وفي وسطه صليب كبير من النسيج الابيض. ولم يتطرق الى فكر جرجي في ذلك الوقت ان هذا التابوت الوضيع سوف تتسارع الايدي وتتنازع شرف الاشتراك بحمله الى مقرّه الاخير.

ومشى في مأتمه الى الكنيسة اصحاب السيادة نقولاوس قاضي، وباسيليوس خوري، وانطونيوس فرج، ورئيس الرهبانية المخلصية العام، ورئيس المرسلين البولسيين العام، واكليرس دمشق الكاثوليكي، ووفدَين من الآباء البولسيين والمخلصين، وجميع ممثلي الطوائف الكاثوليكية الموارنة والسريان والارمن والكلدان وبعض من الآباء اليسوعيين واللعازريين والفرنسيسكان، وراهبات بزنسون مع فرقة من ايتامهن، وممثل الحكومة السورية، واعيان المسلمين، والجمعيات الخيرية، وخلق عظيم من كل الطبقات والنِحَل لا يدرك الطرف حده. وبينا كان يترنم جوق الآباء المخلصين بنشيد «آجيوس» سار الموكب بابهة وجلال من زقاق القصبة، فالعازريين، فطالع القبّة، لحارة الزيتون، والناس على جانبي الطريق يتطلعون الى هذا التطواف الكبير والى التابوت الوضيع المرفوع على الأكف الذي غدا بلونه البنفسجي رمزاً الى تعظيم الفضيلة المستترة تحته. ودخل الموكب الكنيسة الكاتدرائيّة، حيث كان السيد البطريرك ينتظر واقفاً في عرشه وحوله صاحبا السيادة المطران كيرلس رزق وجورج ستيته مطران السريان الكاثوليك.

وللحال تألقت الكنيسة بالانوار ، وابتدأت صلاة التجنيز بجوقين : جوق الكهنة في الخورس ، وجوق الآباء المخلصين الذين ترنَّموا ، من داخل الهيكل وبعد استئذان صاحب الغبطة ، بالجزء الاول من الجناز ، وهو مؤلف من آيات مُنتَقاة من المزمور ١١٨ « طوباهم الذين بلا عيب » وكانوا يختمون كل آية بأنشودة هللويا او « ارحمني يا رب » . وترنم الكهنة من الخورس بالجزء الثاني المعروف . وبعد قراءة الانجيل أبّن الفقيدَ العزيز سيادةُ المطران كيرلس رزق المستشار البطريركي .

ثم استأنف الموكب سيره حاملاً الجثمان الى مقره الاخير . وعند باب الكاتدرائية وقف السيد ميشال فلّاح مؤبناً «ابا الفقراء» فرُفع التابوت على الاكف ، تعظيماً لذاك الذي قضى حياته الطويلة وضيعاً متخفياً ، والذي علّى الموت شأنه وأبرزه علَماً للفضيلة ، ترفرف فوق دمشق في طياته الرحمة والحنان ، داعياً الجميع الى التأسي بحياة كانت كلها لله وللقريب .

وعند وصول الموكب الى المدفن الكائن في التلّ ، كانت الشمس قد غابت وخيَّم الظلام ولم يبقَ الا ما يذكره الحاضرون من نور حياة الراحل . فصلّى السادة الاساقفة على الجثمان ثم ابّنه السيد عبد الله فلّاح باسم اخوية سيدة البشارة .

ودُفن جرجي بيطار في مقبرة الآباء المخلصين حسب وصيته الاخيرة وبعد موافقة الرئيس العام ، ووُضع جرجي بيطار الى

الشمال برفقة اولئك الآباء المرحومين الذين كثيراً ما تمنى ان يكون من عدادهم في الحياة الرهبانية .

ولما كانت حياة هـذا الراحل مظهراً لفضيلة نادرة وتقوى راهنة ، عُمل بها محْضَر خاص حُفظ ضمن قنينة مختومة بالشمع الاحمر ، في التابوت ، بعد ان وقَّع عليه غبطة السيد البطريرك كيرلس التاسع المغبغب ، والسادة الاساقفة نقولاوس قاضي وباسيليوس خوري وانطونيوس فرج وكيرلس رزق ، والرئيس العام للرهبانية المخلصية الارشمندريت نقولا برخش ، ورئيس المرسلين البولسيين العام الخوري انطون حبيب ، وولد الفقيد الارشمندريت جبرائيل بيطار المخلصي ، وهذه صورة المحضر :

« كريم بين يدي الرب موت باره »

في السنة ٧٤٤٣ للخليقة والسنة ١٩٣٥ للمسيح ، على عهد قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الحادي عشر المالك سعيداً في مدينة الفاتيكان ، وغبطة السيد الجليل كيريوس كيريوس كيرلس التاسع بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق الكلي الطوبى ، والنائب البطريركي العام في دمشق وضواحيها كيريوس انطونيوس فرج ، والانتداب الافرنسي تحت ولاية الكونت دي مَرتِل ، ورئاسة صاحب الفخامة محمد علي بك العابد للجمهورية السورية ، رقد بالرب بسلام نهار الاحد الواقع في ٢٨ تموز سنة ١٩٣٥ الساعة ٢٧ بعد الظهر ، مزوَّداً بكامل الاسرار الالهية ، الرجل البار المشهود له من الجميع بالصلاح والتقوى

جرجي البيطار محمول في نعشه من البيت الى الكنيسة

المثلث الرحمات جورج بيطار

١٨٤٠ – ١٩٣٥

خادم الفقراء اخوة يسوع المسيح ، الرومي الملكي الكاثوليكي ، عن ٩٥ عاماً مملوءة باعمال البر والرحمة . انتقل من هذه الفانية انتقال القديسين على اثر اوجاع مبرحة ألمَّت به في الاربع السنين والنصف الاخيرة من حياته احتملها بصبر عجيب ، وذلك في منزله الكائن في زقاق القصبة باب شرقي دمشق . وضع جثمانه في تابوت بسيط من خشب السرو هيأه المرحوم لنفسه بيده منذ ٢٥ سنة . حضر مأتمه الوف من الدمشقيين من جميع الطوائف والاديان . صلَّى على جثمانه الطاهر في كنيسة الكاتدرائية بدمشق كل من صاحب الغبطة البطريرك كيرلس التاسع الكلي الطوبى ، والسادة الاساقفة كيريوس انطونيوس فرج النائب البطريركي العام ، وكيريوس نقولاوس قاضي ميتروبوليت بصرى وحوران ، وكيريوس باسيليوس خوري رئيس اساقفة حمص وحما ويبرود ، وكيريوس كيرلس رزق ميتروبوليت قيصرية فلسطين شرفاً المستشار البطريركي ، والسيد جورج ستيته مطران السريان الكاثوليك ، والارشمندريت نقولا البرخش رئيس الرهبانية المخلصية العام ، والاب انطون حبيب رئيس المرسلين البولسيين ، وولده الارشمندريت جبرائيل بيطار المخلصي ، الذي أمَّ دمشق بعناية الهية قبل وفاته بخمسة ايام للتزود ببركته الابوية الاخيرة ، ولفيف اكليروس دمشق الرومي الملكي ، وغيره من الطوائف الكاثوليكية لاتينية وشرقية ، ورهط كبير من الاباء المخلصيين ، وممثلي الحكومة السورية . شيَّعه الى القبر خلق عظيم يرأسه اصحاب السيادة النائب البطريركي العام كيريوس انطونيوس فرج ، وكيريوس نقولاوس قاضي ، وكيريوس باسيليوس خوري ، ولفيف الكهنة المذكورين اعلاه . ودفن حسب وصيته وتصديق الاب

العام للرهبانية المخلصية في مدفن الآباء المخلصيين الكائن في التل شمالي المدخل، على رجاء القيامة الاخيرة، وذلك في التاسع والعشرين من شهر تموز الساعة السابعة مساء سنة ١٩٣٥

وضع هذا المحضر في قنينة مختومة بالشمع الاحمر موقعاً عليه من غبطة البطريرك كيرلس التاسع الكلي الطوبى، والسادة الاساقفة انطونيوس فرج ونقولاوس قاضي وباسيليوس خوري وكيرلس رزق، والارشمندريت نقولا البرخش أب عام ب م والاب انطون حبيب رئيس البولسيين، وولده الارشمندريت جبرائيل بيطار ب م ووضعت القنينة في التابوت شهادة بعيشته النقية وحياته المبرورة ورقاده المقدس .

« ليكن ذكره مؤبداً »

الامضاء	الامضاء	الامضاء
المطران انطونيوس فرج	نقولاوس قاضي	كيرلس التاسع
النائب البطريركي العام	ميتروبوليت حوران	بطريرك انطاكية واسكندرية
في دمشق وما اليها	وجبل الدروز وتوابعها	واورشليم وسائر المشرق

الامضاء	الامضاء
الحقير في رؤساء الكهنة	باسيليوس خوري
كيرلس رزق	رئيس اساقفة حمص وحماة
ميتروبوليت قيصرية فلسطين	ويبرود وتوابعها

الامضاء	الامضاء	الامضاء
الارشمندريت	الاب انطون حبيب	الارشمندريت نقولا برخش
جبرائيل جرجي بيطار ب م	الرئيس العام على المرسلين البولسيين	اب عام ب م

ورجع الموكب متخشعاً ومتأثراً تأثيراً مقدساً، لمشاهدة الاحتفال بجنازة رجل شهد له الجميع بالبر والقداسة . فليرتضِ الله العجيب في القديسين بأن يمجد هذا الرجل ويعلي به شأن الفضيلة والتقوى .

ملحق

شذرة من كلمة الحبر الجليل كيرلس رزق المستشار البطريركي
في تأبين جرجي بيطار

« من آمن بي وان مات فسيحيا »

. . . .

عاش جرجي بيطار نحو ٩٥ سنة ، انتهت امس الغابر بتسليم نفسه ليد مبديها ومعيدها . فان نظرنا اليه من حيث الاعمال الدنيوية ، فقد قام بواجبه نحو ذويه باعالة اسرته بلياقة ، وقد احترف النجارة وأخذ بقوة ذكائه الطبيعي ، دون استاذ ، يترقى بها حتى ابتكر فيها نفاس صناعة اهمها فن التطعيم الدقيق واختلاف التكسيم ، فنال فيها شهرة لم تعادلها شهرة في الشرق ، وقدّم من هذه النفائس الدقيقة الصنع تقادم ممتازة الى جلالة السلطان في الاستانة ، والى قداسة البابا في رومة ، والى المعارض العالمية ، فنالت الاعجاب العام وقدَّرها الكبراء ، ونال عنها النياشين والمداليات الشرفية . ولا نبعد بالذكرى ، فان المنبر الذي أخطب فيكم من فوقه ، والعرش البطريركي الجالس فيه صاحب الغبطة هما من صنعه يشيدان بذكره .

ولكن الجهة التي كانت تهم الفقيد وتهمنا ايضاً في تأبينه ، هي المركز الروحاني والاخلاقي اللذان امتاز بهما ، وهما اكليل فخره وتقديره الدائم . فانه

رحمه الله ، منذ نعومة اظفاره ، التي بنفسه بين يدي الله ، وخصص له جميع جوارح نفسه وجسده ، وجعل هذيذه بكلام الانجيل وسائر كتب العهدَين القديم والجديد ، وطبّق سَيْره في حياته عليها ، ومارس كل نوع من انواع الفضائل المسيحية نحو الله ، وقام نحو القريب بكل ضروب المبرّات ، وما توجبه المحبّة المسيحية والانسانية ، من إسداء المعروف والابتعاد عن طرق المنكر ، بمثله القويم ونصائحه الفعّالة المثمرة . واخص صفاته المعروفة للجمهور : ايمانه الحار ، وتقواه الراهنة ، وثقته الوطيدة بالله ، وممارسة اعمال الرحمة الروحية والجسدية لدى القريب، غير مميّز بين الفقرآء ، وصبره العجيب على مَكارهِ الحياة وايثاره الفقير على نفسه وآله ، حتى ليحرم ذويهِ أحياناً من الطعام المعدّ لهم ، ويأخذه سراً ليوزّعه على البائسين ، وجهده بكتمان عمله المبرور حتى لا يعلم به أحد .

وكان همه الجهاد المتصل للفوز بما يسدُّ به رَمَق الفقير ، فهو لذلك يضحّي بوقته وراحته ومصلحته الخاصة ومقامه للوصول الى غايته ، ولو بَعُد عن دمشق ، لاشغال له في البلاد الغربية ، لا ينسى الفقير ، بل يترك كل عمل له ويأخذ بجمع الاحسان لمؤاساته . وماذا أعدّد من صفاته ولا سيا أعمال الرحمة ، فهي مما لا يحويه حصر .

ولا ننسى انه كان عضواً ورئيساً ومستشاراً لجمعيات خيرية كثيرة ، ولا سيا جمعية القديس منصور ، وقد برَّز فيها على الجميع بنشاطه وحرارة عمله ومداومته ، وبكلمة مختصرة أقول :

ان جرجي بيطار المسجّى الآن امامكم، بلغ الذروة العليا في سلّم مكارم الاخلاق والعطف على الفقرآء ، واصبح المثال الاعلى للمتديّنين ، والركن الركين للجمعيات الخيرية ، والمجاهد الصنديد في سبيل الفضل والفضيلة والخير والبذل

والتضحية ، بماله ونفسه وجسمه وكل جوارحه الظاهرة والباطنة . وقد امتحنه الله في أواخر حياته الطيبة بالامراض الطويلة المبرّحة ، حتى ينقيه من كل كدورة في جهات حياته ، كالذهب في الكور ، فاحتمل ذلك بصبر عجيب وتسليم تام لارادة الله ، حتى اسلم روحه كانه يقول : الآن أطلق عبدك ايها السيد بسلام .

هذا هو الرجل البار العصامي الفذّ ، رجل الايمان والعمل ، الذي نقدّمه لكم للتشبُّه والقدوة الصالحة ، ولعمري لقد خسرته دمشق ، بل القطر السوري والطائفة واسرته الكريمة ، خسارة لا تقدَّر قيمتها الا عند فقدها ، لكنه باقٍ بروحه وامثاله الصالحة واعماله المبرورة ، وهي أعظم كنز وميراث يتركه لأُسرته وللجمهور ، ولنا العوض الجميل باولاده الذين أحسن تربيتهم .

والآن ايها الراحل الكريم اليك أُوجه حسن ختامي ووداعي : لقد جاهدت الجهاد الحسن وحفظت الايمان واتممت سعيك ، فها قد أُعدّ لك اكليل العدل ، الذي يُحفظ لك عند الله . أيها العبد الامين ، وُجدت أميناً في القليل ، وأُقمت على الكثير فادخل الى فرح ربك ، لتتمتع بسعادته التي لا تفنى . وطوبى للموتى الذين يموتون بالرب ، والتسبيح لله ، رب الحياة والموت ، اولاً وآخراً .

تأبين الاب نقولا ابي هنا ب م

« وفاضت روح ابرهيم ومات بشيبة صالحة شيخاً قد شبع من الحياة » (تكوين ف ٢٥ ع ٨)

ايها الحضور الكرام

الاعمال موازين الرجال ترَجح اقدارهم برُجحانها ، وتخف بخفتها . وهي تتفاوت في هذه الحياة قيمةً وعظمةً ، وصغراً وحقارةً ، بتفاوت نتائجها ، واختلاف الغاية التي يُرمى اليها من خيرٍ وشرٍ ، وصلاحٍ وفسادٍ . لذلك نرى أناساً تسمو بهم أعمالهم الى حد ان يصير الفرد منهم بمثابة أُمَّة . وما اكثر ما ينبسط أمام عيوننا وبصائرنا من اعمال اولئك الافراد النابهين ، والعظماء النابغين ، الذين ترنُّ أصداء مفاخرهم في مسامع الخافقين ، وتحفل بجلائل مآتيهم وآيات أعمالهم صحائف التواريخ ، حتى لقد رُفعت لكثير منهم في حواضر البلاد تماثيل مجد وشرف احياءً لذكرهم ، وإشادةً باقدارهم ، وتنبيهاً للخلَف على تعظيم السلَف والنَسج على منواله والتطريس على آثاره في سَنَن أعماله .

على أننا نجد قبالة اولئك الرجال أقواماً لم يأتوا من الاعمال الا ما يناسب أنانيَّتهم ومنفعتهم بحتاً ، وكثيرون منهم لم يكونوا الا آلات شر وطغيان ، وعوامل ماضية في استباحة المحارم ، وتدويخ الدنيا ، وسفح الدماء الزكية ، الى آخر ما يُساق هذا المساق من نوازل البلاء ، وفظائع الاستبداد ، ومع ذلك فهم راجحون في ميزان اهل الدنيا ، ويُعَدّون من العظماء الذين يليق بهم الاجلال والتكريم وتقام لذكراهم الأنصاب والتماثيل .

ولكن ميزان الله ايها السامعون هو غير ميزان البشر . ان أبناء البشر

كاذبون في الميزان كما يقول نبي الله داود . وكثيراً ما يقولون للخير شراً وللشر خيراً، كما وصفهم النبي اشعيا . فهم مستغرقون في محبة الدنيا وسكرات أباطيلها فلا بدع اذا نظروا نظرة إعظام الى من يُحرز مفاخر الزائلة من عَبَدَة هذه الحياة ورُوَّاد جاهها وعظمتها .

ان قوام الانسان، على الحقيقة، ايها السامعون الكرام، انما هو نفسه الحية الخالدة التي هي نفحة علوية من روح الله الخالق . فمن البديهي ان هذه النفس يجب ان تكون ذات صلة متينة بخالقها، ولا يمكن ان تكون كذلك الا اذا توجّهت الى الله خالقها وغايتها، ولا تتّجه الى الله الا اذا خَلَصت أعمالها عن مبدإ تقوى الله والائتمار بأوامره والانتهآء بنواهيه . فتكون أعمال الانسان كبيرة وعظيمة، او صغيرة وحقيرة على مقدار اتصالها بذلك المبدإ العالي او على مقدار انفصالها عنه، وصدورها عن مبدإ زائف مختلّ عن سَنَن النظام الذي رتّبه الله لخليقته .

فاذا قرأنا في الكتاب المقدس ترجمة أبي الآبآء ابرٰهيم، ووقفنا على سريرة ما يُحيي نفسه من فضائل سامية، نعجب من أعمال ابرٰهيم وقوة ايمانه، وسموّ طاعته لرب السمآء والارض ونخشع أمام تلك النفس الكبيرة وحياتها العليا . تلك حياة ملؤها الايمان والرجآء والمحبة، ملؤها التضحية بالنفس وأكرم النفائس حتى لقد أرضى ابرٰهيم الله احسن الارضآء . فقال له الله : « بنفسي أقسمت يقول الرب بما انك فعلت هذا الامر ولم تذخر ابنك وحيدك لأُباركنّك واكثرنّ نسلك كنجوم السمآء وكالرمل الذي على شاطئ البحر . . . ويتبارك في نسلك جميع امم الارض من أجل أنك سمعت لقولي . »

تلك بركة الله لابرٰهيم الذي آمن بالله وعمل لاجل الله ولم يذخر ابنه وحيده دون الله . ولاجل هذه الاعمال العظيمة اعطاه الله مواعيد الخلاص فعاش في حياة

صالحة واعمال مَرضية واستحق ان يموت موتاً صالحاً شيخاً قد شبع من الحياة .

وكم في كنيسة الله ايها السامعون من امثال ابرٰهيم رجالٍ تجنَّدوا للفضيلة ومشوا تحت لوآء الله وفي كَنَف طاعته والعمل لمجده واعلآء كلمته؟! كم من نفوس كريمة حضَنَتها الكنيسة وأنشأتها على تقوى الله ودفعتها للاعمال العظيمة، لتقديس الناس، للانتصار للفضيلة، لمكافحة الشر والرذيلة، لبذل الخير وإغاثة الفقرآء، وجبر المكسورين، وتعزية الحزان، واطعام الجياع، وكَسو العراة، وزيارة المسجونين، وعيادة المرضى، وتعليم الجهال، وارشاد الضالين؟! لقد كان ويكون كل منهم على حد ما قال ايوب الصديق « عيناً للاعمى ورِجلًا للاعرج وأباً للمساكين . »

ان كنيسة الله ايها السامعون لا ينقصها في زمان ولا في مكان، امثال هذه النفوس الزكية . وها ان نفساً كبيرة طاهرة قد طارت من بيننا اليوم الى فردوسها الاعلى . ها ان رجلًا من أعظم رجال الخير والصلاح قد أتم شوطه في هذه العاجلة وسار الى ملكوت ربه لينال اكليلًا لا يفنى، اكليلَ جهاده المجيد الطويل الأَمد، الحافل بكل مبرَّة وتقىً وفضل واحسان . اننا قد اجتمعنا ايها الحضور الكرام لنصلي عن نفس اخينا وأبينا التقيّ النقيّ الذي بذل وقته وحياته وحياته كلها لله وللقريب . اجتمعنا لتكريم هذه النفس القدسية وتشييع جثمانها الطاهر الى مقرّه الاخير . اجتمعنا الى حيث دعتنا رنة الناعي الهاتف قائلًا :

مات رجل الله الكامل! مات رجل البر والصلاح! مات مغيث الملهوف، ومعزي الحزان، وماسح دموع البؤسآء والفقرآء! مات جرجي بيطار!

رجل عظيم فقدناه، محسن كبير الى الانسانية قد بكيناه، آية من آيات الله في خلقه خسرناها، جوهرة كريمة من جواهر السمآء عادت الى مقرّها في السمآء حيث تتلألأ بأتم سناها، هو جرجي بيطار وكفى .

حياة طيّبة نزيهة تتمثّل بها حياة أبي الآباء ابرٰهيم وجلّة اولياء الله القديسين، تُختَم اليوم بوفاة هنيئة سعيدة مطيَّبة بعَرْف الفضائل، مشمولة برضى الله ورحمته، يرقى بها فقيدنا الى مقامه الاعلى الى استقبال وجه ربه مزوَّداً ببركات الله وبركات الكنيسة امه وذخائر اسرارها القدسية، ليفوز هناك بأجره العظيم جداً أجر جهادٍ بلغ به الخامسة والتسعين من عمر مكرم بذل دقائقه كلها في العمل لله ولمجده وللقريب وتعزيته لحقَّ له ان يوصف بقول الكتاب: وفاضت روح جرجي بيطار ومات بشيبة صالحة شيخاً قد شبع من الحياة.

وُلد فقيدنا الجليل في المدينة العظيمة التي رافق تاريخ البشرية كيانها، في المدينةِ التي عرفت خليل الله ابرٰهيم وعرفها وكان قيّمُ بيته منها. وُلد في دمشق التي اشرق من سمائها نور المسيح على القديس بولس رسول الامم وإناء المسيح المختار وكانت هي الميدان الاول لجهاده في سبيل شريعة المسيح وحقه. تلك المدينةِ التي شهدت قداسة بعض رسل المسيح تتلألأ في مشاهدها وتتغلغل في نفوس الكثيرين من سكانها. تلك المدينةِ التي امتزج ترابها بدماء الشهداء في العصور المتقدمة والمتأخرة، والتي أطلعت كواكب كثيره زيّنت فَلَكَ الكنيسة بأنوار هداها وزواهر تعاليمها من امثال صفرونيوس واندراوس الكريتي وقزما المنشئ ونابغة الكنيسة الشرقية العظيم ومعلمها الجليل وآية الفلسفة الصحيحة وشمس الفضائل الساطعة أبينا القديس يوحنا الدمشقي.

في تلك المدينة المشهورة بماضيها الساطع وحاضرها المكتنَف بالشدائد والمخيّم عليها فيه ظلامٌ يتمطّى استبداداً ويردف أعجازه جوراً وينوء بكلكل أهواله ارهاقاً، أعدّت عناية الله لفقيدنا والدَيْنِ هما من خيرة الآباء والامهات رصانةً وفضلاً وتقى وصلاحاً وعطفاً على البؤساء والمساكين والغرباء.

وآتى الله ذلك الطفل نفس ملاك وقلباً كأنما جُبل من الرحمة، تنفذ الى نفسه

الطاهرة وقلبه الغض شعاع اولئك الرسل والاولياء الصالحين الذين استنارت بهم دمشق في غابر الزمان، وتنسَّم من ثراها رَوْحَ دماء الشهداء، وتغذى في حجر والديه من فضائلهما المسيحية الراهنة خصوصاً عطفهما على الفقراء والغرباء فاذا هو يتخلّق بأخلاق القديسين ويتأثر سَمْتهم في حياته حتى يصح القول انه كان منذ غضاضة سنه صورة للفادي الكريم وكان نظيره « ينمو ويتقوى ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه . »

وكانت دمشق منذ قرنين على الاخص ، مجالاً لجهاد آبائنا الرهبان المخلصيين الاولين ودامت على ذلك مدة طويلة رأت في خلالها مدينة دمشق كيف يَبْذل رجال الله دماءهم واعراقهم دون الذود عن حقيقة دينه وكيف يدافعون عن كرامة ابناء الطائفة الاعزاء . ولعل شيوخ الطائفة ووالدي فقيدنا الجليل كانوا يروون له ما عاناه آباؤنا الاولون من الجهاد والاضطهاد وقد رأى هو من ذلك في ريعان شبابه ما فيه الكفاية فنزعت نفسه بل دعاه الله كما دعا ابرٰهيم ليقرب نفسه محرقة على جبل الرب في الرهبانية فمن ساعته لبَّى امر العلي كما لبّاه ابرٰهيم وأقبل الى دير المخلص زاهداً في الدنيا منقطعاً عن كل ما تَعِدُه به من كرامةٍ وغنىً ولهوٍ وأباطيل . وكأن الله رأى في ذلك الشاب حسن الطاعة لامره كما رآه في أبي الآباء ابرٰهيم فحين ازمع هو على تقديم نفسه قرباناً على مذبح الرب اذا الصوت الالهي ينطلق من فم السيد البطريرك رئيس الطائفة الاعلى داعياً اياه للعدول عن الترهُّب والرجوع الى بيت الوالدين . فخضع بأتم التسليم لامر الله الذي كان قد ذخره لخير عظيم ربما لم يتهيأ له القيام بجزء منه في حالة الرهبانية .

عاد جرجي بيطار الى دمشق وانخرط في سلك العالم وكأنه لم يزل بروحه وقلبه وكل جوارح نفسه في الرهبانية ، فلم يترك العكوف على الزهد والتقشف والاماتة والصلوات العقلية واللفظية والمثابرة على التقرب الى الله بالاسرار المقدسة

غير منقطع عن حضور القداس والاشتراك بمائدة الفادي يوماً واحداً .

واذ لم يكن له بدٌّ من حرفة يكتسب منها رزقه الحلال ومعايش عياله وما يوزعه صدقات ، لم يَرَ أحب الى نفسه من حرفة يسوع الصغير في بيت مربّيه القديس يوسف فاحترف النجارة .

ولو التى الناظر نظراً على شخص فقيدنا الجليل لراعه منه جبهة متسعة ونظر قوي حادّ يشف عن عقل كبير وذكاء ثاقب وخيال واسع ، فلا بدع لمثله أن يتخير الاتقان في حرفته الجديدة حتى بلغ منها مبلغاً لم يُعهَد لسواه وحتى ابتكر صناعة التطعيم بالفسيفساء في الخشب فأبدع فيها كل الابداع وبهر في هذه الصناعة أبصار كل من زار مخازنه في دمشق ومن رأوا روائع فنه في مشارق الارض ومغاربها .

لا أُريد التبسُّط في بيان هذه الصناعة التي امتاز بها فقيدنا العظيم فحسبي الالماع وكفى . وكلكم ايها السامعون تعرفون بدائعها اكثر مني ولكني اقول لو ان جرجي بيطار من اهل الطموح الى حشد الاموال لكان ولا مغالاة من اعظم المتموّلين في شرقنا لكثرة ما تدرّ عليه صناعته لو أراد . بيد انه لم يكن يرضى من الربح الا أزهد القدر حتى لقد كان زوار بلادنا من الاوروبيين يعجبون حين يتقاضى من احدهم خمس ليرات او عشراً ثمناً لقطعة لا يستكثرون فيها ثلاث مئة ليرة مثلًا . واقول ان ذلك العقل الواسع ، والذكاء الثاقب في صناعته ، وتلك الهندسة العجيبة البيّنة في آثار يديه ، ان هذه المواهب العقلية والصناعية لم تكن على جلالتها ونفاستها شيئاً مذكوراً بالقياس الى قوة نفسه في التقوى وذكائه في طلب الخير والسعي له والى نظام عقله وارادته في اتمام العمل بوصايا الله ووصايا الكنيسة والى الهيام الغريب الفائق التصور في مؤاساة الفقراء ومسح دموع الباكين من البؤساء والارامل والايتام .

لذلك كان يدقّق كل التدقيق في حفظ الرسوم الدينية ويبالغ في اكرام السلطة الروحية والمدنية ورجال الكهنوت ولا تفوته فريضة او نافلة من الصلوات والاصوام كأنه ، وهو يعيش في العالم ، يحيا بروح الزهادة والتعبد باشد ما يبلغ اليه النساك وأكابر المتعبدين . ولهذا كان حين يرزقه الله ولداً ، يمضي توّاً الى الكنيسة ويناجي الام البتول بهذه العاطفة : « يا والدة الاله اذا كنتِ تعلمين ان هذا المولود الجديد سيمجِّد الله في حياته فأبقيه وان كان مزمعاً ان يغضب الله بالخطيئة فأرجو منك ان تميتيه طفلًا صغيراً قبل ان يعرف الخطيئة . »

وهيهات ان يتسع المقام لذكر امثال ايمانه الحي ففي كل حركة وسكنة منه كان يتلألأ فيه ذلك النور الذي يحيي نفسه الكبيرة وحسبي ان اذكر بيّنة على ايمانه القوي ما اظهرهُ عند وفاة نجله المرحوم جوزيف . كان هذا الشاب غلاماً لم يتجاوز السادسة عشرة وهو في أتم جمال وكمال خَلقاً وخُلقاً وادباً وذكاء الى طهارة وجدان ونفس ملاك ، فمرض مرضة طارت بها روحه من جسدها الغض كما يطير عرف البخور عن المجمرة . اكثر والده الحنون من الصلوات والاماتات وسكب الدموع وقت مرضه رجاء ان يمن الله بالشفاء على فلذة كبده . فاذ وقعت الفجيعة وقف صنديد الايمان ازاءها وقفة المؤمن الصبّار المسلِّم لحكم الله يبرد لوعة الام الثاكل ويأسو حزن اهل بيته الجازعين حتى لقد اغلق على غصنه الذابل غرفته المنارة بالشموع ودعا كل الاهل والاقرباء فذهب بهم الى الكنيسة يصلون عن روح الراحل العزيز ، فكان في موقفه هذا اشبه بداود النبي اذ أُصيب في طفله فقال كلمته المسجّلة في كتاب الله « لما كان الصبي حياً صمت وبكيت لاني قلت من يعلم لعل الله يرحمني ويحيا الصبي ، واما الآن فقد مات فلماذا أصوم ؟ أفأستطيع ان أردَّه بعد ؟ انا اصير اليه وهو لا يرجع اليَّ . »
(٢ مل ١٢ : ٢٢ و٢٣)

ولم يشإ الله ان يحرم فقيدنا الجليل كمال التشبُّه بأبي الآباء ابرٰهيم فحين دعاهُ ليكفَّ عن تقدمة حياته ذبيحة ومحرقة على جبل الرب في الرهبانية كان بسابق علمه الالهي قد هيأ له حملًا للمحرقة في شخص بكره العزيز حضرة اخينا الفاضل الاب جبرائيل البيطار . كذلك يقول الفقيد في احدى رسائله «اذ كنت انا خاطئاً لا استحق نعمة الانتظام في الحياة الرهبانية قد خصصت لها برضاي التام بكري العزيز جبران . » بل ان من يتأمل في هذا الرجل العظيم يجده اشبه الناس بأبي الآباء ابرهيم في كل حياته واحواله .

لقد كنا نشاهده حين زيارته لدير المخلص يبكّر لمشاركة الرهبان في صلواتهم فيقضي الوقت منذ ابتداء التأمل الروحي الى الفرض الى قانون الايمان في القداس وهو واقف بكل تهيب وخشوع ومن قانون الايمان الى آخر القداس يلبث راكعاً مستوياً دون ان يتكئ على شيء بتّة .

وما اجمل اتضاعه حين كان يؤثر تناول الطعام مع الرهبان على مائدتهم فكان الرئيس العام يدعوه بالحاح ليجلس قربه فيأبى الاَّ ان يجلس في آخر المائدة بعد اصغر الرهبان .

اما ما امتاز به طول ايام حياته من محبة الفقراء ومؤاساتهم ومساعدتهم فحدّث عنه ولا حرج . فقد كان يذيب نفسه وجسده اهتماماً بأُولئك المساكين بل يذرف الدموع الغزار في كل يوم لما يحس ببلاياهم وشدة عسرهم وكان ينخرط في كل الجمعيات الخيرية المعاونة لهم ويرأس اكثرها بل كان ينفق في سبيلهم اكثر ما تدر عليه صناعته ولا سيما وهو قد وجد في شريكة حياته الفاضلة المرحومة ماري القاضي ساعداً مساعداً على قضاء اوطاره في الاحسان . وبلغ وجده بالفقراء ان جعل توقيع كتاباته الخاص « جرجي بيطار خادم الفقراء اخوة يسوع المسيح . »

وكم كان يفتش عنهم ويزورهم في بيوتهم واكواخهم وسجونهم باذلًا لهم مع

الاحسان جميل النصح والارشاد والتعليم . قرأت له مرة رسالة كتب بها الى ولده الاب جبرائيل في عهد التلمذة بمدرسة الرهبانية، يقول فيها ما معناه : «اشكر الله ان اخاك حنين قد انهى دروسه في العازرية وصار يمكنه ان يساعدني في المحل وصار عندي وقت اكثر لازور الفقرآء . »

في سنة ١٩٠٨ حضر الى دير المخلص واذ رأى المكتبة فيه تقتضي بعض الاصلاح شمَّر عن ساعده وبدأ يصلح . وفي ذلك اليوم هيأنا له طعاماً خاصاً على مائدة المدرسة ولكنه عرف ما كان طعام التلامذة فرفض ان يتناول الا من طعامهم . وفي اليوم التالي اعددنا له مائدة خاصة فاذ جلس شرع يبكي بدموع غزار ولما سئل عن سبب ذلك قال وصوته يتهدّج :«اشكر الله ان امامي طعاماً فاخراً ولكن ما حالة اخوتي الفقرآء وماذا يأكلون ؟ » واستخرط في البكآء . »

ولم يكن يشكو في خدمة الفقرآء كلالًا ولا يتجنب هواناً بل بكل جرأة ووداعة واتضاع يتسول لهم على الابواب ولا يريد ان يدخل الى البيوت لرغبته الشديدة في التشبُّه باخوة يسوع الفقرآء . ولهذه الغاية كان يعاني مشقات الاسفار لا سيما الى مصر يستندي لمعونتهم اكف الاجواد الخيّرين وحيثما ذهب فالناس يعرفون جرجي البيطار وغيرته على الفقرآء لذلك كانوا يبذلون له عن ايدٍ سخية وهو يبذل للمساكين عن قلب يسيل رحمة وحناناً ونفس لا تجد لذة في غير الاغاثة وما يكون معناه احساناً .

تلك حياة طيّبة كان الفقيد الحميد العين والاثر يتمم في كل دقيقة منها قول الرسول بتقدمة نفسه وجسده وكل جوارحه وجميع اوقاته « ذبيحة حية مقدسة مرضية كاملة عبادة منه عقلية » (رو ١٢ : ١) فلا شك اذن ان صاحبها اشبه الاصفيآء القديسين بابي الاباء ابرهيم . وكما انه شابهه في تلك الحياة القدسية فقد شابهه ايضاً بموته المقدس المرضي بشيبة صالحة شيخاً قد شبع من الحياة .

تهيأ فقيدنا للموت السعيد طول حياته وهيأه الله له بارساخ قدميه في سبيل الفضيلة وتجريده لخدمة الفقراء والمنكوبين البائسين كما هيأه لذلك ايضاً بالجهاد واحتمال مرائر الآلام والعذاب لتتمَّ فيه صورة المسيح المتألم لخلاص البشر . لذلك كانت تنزل به مسافة حياته بعض المصائب والفجائع فيتلقاها بالصبر والتسليم لاحكام الله . وآخر ما مسَّته به يد القدير مرضه المبرِّح الذي كابد منه امرَّ الاوجاع واشدَّها وهو وادع النفس ، مطمئن البال ، مقيم على الصلاة والحضور الى الكنيسة حتى في عجزه وشيخوخته الناضجة المكرَّمة .

على انه مع تعزية الروح القدس له في الباطن ، كان متعزياً في الظاهر ايضاً لانه شهد بركة الله شاملة بيته كما شملت بيت ابراهيم ، ورأى انجاله الافاضل من سادة وسيدات ينمون في مرج الكنيسة الخصيب ويكثرون وكلهم يقتدون به وبفضائله المسيحية العالية .

وتلك تعزية لا نجد الطف منها تبرّد حرَّ الفجيعة في قلوب ابنائه وانسبائه فما الانسان الا ابن الله والى الله يرجع ولا يصل الى غايته السعيدة الا على مثل السبيل الذي سلكه فقيدنا الجليل الذي نرجو ان يكون قد بلغ ساحل الامان فطوبى له لانه عاش لله بإيمان ابراهيم و« مات في سبيل الله بشيبة صالحة شيخاً قد شبع من الحياة » نظير ابراهيم فهو يتمتع الان في ملكوت ربه « بما لم تشاهده عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر . » (١ كو ٢ : ٩) انه يتمتع برضوان الله حيث لا وجع ولا حزن ولا بكاء بل حياة لا تفنى آمين .

تأبين السيد ميشال فلاح العضو المتقدم في اخوية سيدة البشارة

قف قليلاً ايها الراحل العزيز ليتسنَّى لي بالنيابة عن جمعية القديس منصور دي پول بدمشق وعن رؤسائها واعضائها العاملين والفخريين والمحسنين اليها وفقرائها الواقفين هنا ان احييك التحية الاخيرة .

سبعون سنة شهدَتْ محبتك وغيرتك وجليل خدماتك لهذه الشركة المحبوبة . كنت لها من اعظم اركانها . تولَّيت رئاستها طويلاً فاحييتها وانميتها وكثرت فروعها ثم تنازلت عن مناصبها العالية بملء رضاك واختيارك كما تشهد بذلك سجلاتها، لتكون عاملاً وضيعاً في تأدية جميع اعمال الرحمة التي كانت اشبه بازهار عاطرة ضُفر لك بها اكليلُ مجدٍ وسعادة ابدية .

كم وكم من جياع اطعمتهم وعطاش سقيتهم وغرباء آويتهم وعريانين كسوتهم فالمسجونون يلهجون بذكر احساناتك والمرضى يشكرون عموم افضالك . كم فقير كان نصيبَه الطعامُ الذي كان اعدَّه منزلك غذاء له . الى غير ذلك من اعمال الرحمة التي يضيق بي الوقت والمقام لتعدادها ووصفها وقد اصبحت معلومة لدى القاصي والداني .

لم يكن اهتمامك باعمال الرحمة الخارجية اقلَّ نشاطاً من غيرتك على ادارة شؤون واعمال الجمعية الداخلية . كم وكم اثنى رئيسها العام في باريز على جهودك الطيبة اما انت فكنت تجيب : ان ما اعمله ليس لمجد عالمي بل لمجد الله وخلاص النفوس . وكفى دليلاً ساطعاً على تواضعك العميق هذا النعش الخشبي الذي صنعته يداك وأوصيت ان تُوضع به ليظهرَ من فقره انك اخٌ وخادمٌ للفقير . عنوانه «جرجي بيطار خادم الفقراء . »

نم اذاً هنيئاً ايها الشيخ الجليل على رجاء القيامة واسمع منه تعالى مكافأةً على حياتك الصالحة هذه الكلمات العذبة : تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملك المعدّ لكم منذ انشاء العالم .

الاثنين في ٢٨ تموز سنة ١٩٣٥

تأبين السيد عبدالله فلّاح الاخ المتقدم في اخوية سيدة البشارة

باسم اخوية البشارة اقف هنا امام المقر الاخير لاودع شيخاً جليلًا نراه الان نائماً علـى سرير الموت . باسم اخوية البشارة اندب بدر فضيلة اخطتفته ايدي المنون . وكان الاولى بي ان اقول باسم الطوائف كلها ، باسم الاخويات التقوية ، باسم الجمعيات الخيرية ، باسم الفقير البائس ، باسم الدين والانسانية .

لعمري ان سيرة الفقيد الطيبة وفضائله السامية مصورةٌ على فؤاد كل واحد من الاحداث والشبان والشيوخ والكهول . معروفة لدى القاصي والداني يكفي انه الملقب بابي الفقرآء . عاش نموذجاً للكمال ومثالا للتقوى . مقبلًا في كل حين على القداسة والبر ، حاملًا في ذاته صورة الوداعة والتواضع . فان قمت الآن في رثائه اعدد مناقبه العالية اكون كمستبضع التمر الى هجر او كمن يتصدقُ بالنزر اليسير على ذوي الثروة الواسعة .

فيا فقيد الادب اين وداعتُك وورعك ? يا زهرة الانس اين هي رحابة صدرك ? يا ريحانة في دوحة اللطف والمرؤة اين هي شهامتك ? انت تنام الان هادئاً انما روحك الطاهرة ومبادئك الشريفة لن تموت وان مات جسمك .

شاءت العناية الالهية ان اقامت لك في هذا العام يوبيلًا الماسياً على الارض لتفانيك في خدمة اخوية البشارة طول ايام حياتك فهي الآن تقيم لك يوبيلًا ملاكياً في السماء بين الابرار والقديسين فادخل الى فرح ربك انما أبقَ ناظراً لنا من فوق منعطفاً نحونا . كن شفيعاً لنا امام العرش الالهي لكي يؤهلنا ان نجتمع واياك عن يمينه في ذلك اليوم الرهيب . فالوداع الوداع والى الملتقى !

نضيف الى ما تقدم بعض كتابات التعازي الواردة على آل الفقيد الجليل ، نوردها بحسب تاريخ صدورها ، ففيها جلاء لصورة نفسه الكاملة التي رسمناها في هذا المؤلف وكلها تثبت له الفضيلة الراسخة والتقوى الحقيقية والكمال المسيحي الاكمل .

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس افتيميوس يواكيم مطران الفرزل وزحلة والبقاع الكلي الوقار

لحضرة الابناء الاعزاء الارشمندريت جبرائيل بيطار واخوانه المحترمين

السلام والبركة والدعاء

ان انتقال المأسوف عليه كثيراً المرحوم والدكم رجل الخير والمبرات من هذه الدنيا الفانية هو بدء حياة سعيدة في الاخدار السماوية سعى اليها منذ نعومة اظفاره . فأيُّ عمل خيري ولم يكن في مقدمة فاعليه ؟ وأيُّ مؤسسة دينية لم يكن له فيها يدٌ بيضاء ؟ ان اسم جرجي بيطار كان مرافقاً دائماً بذكر التقوى والاحسان وخدمة الفقير وذوي الحاجة من بني الانسان . فلا غرو اذا شاطركم ايها الاعزاء جميع مواطنيكم الاسف على فقده ، ولكنه اسف ممزوج بتعزية روحية اولاً لان الفقيد الكريم حصل على غايته القصوى وهو يسمع صوته تعالى « هلم ايها العبد الصالح الامين ، هلم يامبارك ابي . » ثانياً لانه غادر هذه الدنيا تاركاً اجمل التذكارات الحميدة ومخلفاً بنين يتحلّون بصفاته الجليلة ناسجين على منواله . نسأله تعالى ان يريح نفس الفقيد الصالح الذكر في ملكوته السماوي ويعوّضنا بسلامتكم ويحفظكم من كل مكروه ، موزعين على جمهوركم العزيز سلامنا وبركتنا تكراراً .

† افتيميوس
مطران الفرزل وزحلة والبقاع

زحلة في ٣١ تموز سنة ١٩٣٥

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس اغابيوس نعوم متروبوليت صور الكلي الوقار

لحضرة ولدنا العزيز الارشمندريت جبرائيل بيطار الجزيل الاحترام

كان لنبإ انتقال والدكم الجليل وقعٌ اليمٌ في النفس وقد حرمت الطائفة بفقده مثال الحنان الاسمى ، والفقرآء والبؤسآء أباً عطوفاً وقف حياته الطويلة بكاملها على اغاثة المسكين ومساعدة المعوز فكان المثال الحيَّ للمعلم الالهي الذي بذل نفسَهُ عن البشر وقد شآء بجزيل خيريته ان ينقل اليه فقيدنا الكريم ليُنيلَهُ جزآء مبراته الكثيرة تلك السعادة التي لم ترَها عينٌ . وهو القائل إن مَن سقى كاس مآء باردٍ باسمه فأجرُهُ لا يضيع . وهو المُثيب الجوّاد لكل محبّيه والجارين على منهاجه المقدّس . فلذلك نحن وانتم على يقين تام اننا بخسارة هذه اللؤلؤة الثمينة من هذه الحياة الفانية قد اكتسبنا شفيعاً حارًّا عند الله مقبول الشفاعة مَرضي التوسل يعطف علينا جميعاً بأكمل حنوٍّ واتمّ شفقة .

فالاولى بنا ان نتعزى بفقد شيخنا الجليل ونطيب نفساً عن ان نعزيكم به ونحزن لفقده . وعلى كل نرجو لشخصكم العزيز ولافراد العائلة الكريمة السلامة والوقاية من كلّ ملمّةٍ ونازلةٍ ورزيئة بفضل المخلص وجزيل احسانهِ

† اغابيوس نعوم

صور في ٣١ تموز سنة ١٩٣٥ متروبوليت صور

كتاب سيادة الحبر المفضال كيريوس بولس سلمان الكلي الاحترام

سيادة الاخ الجليل كيريوس نقولاوس قاضي الكلي الوقار

اصافحكم اخوياً بالرب ، وبعد حمل البريد نبأ وفاة المرحوم جرجي البيطار المأسوف عليه جداً . مات رجل البر والصلاح ، مات ابو الفقرآء ورئيس الجمعية المنصورية هوى نجم طالما كان ساطعاً تستضيءُ بنوره الشام ، وانتقل من هذه الفانية

مطعم اليتيم وكاسي العراة ومعزي السجناء. وحامل لواء الاحسان في كل مكان من كان مثلاً حياً للكبير والصغير والخطير والحقير بحبه للمبرات ومؤاساته للبؤساء. فلا انسى تلك الطلعة الملائكية المرتسمة عليها انوار الملكوت . ولا تلك النفس الطاهره العائشة على الارض والسابحة في عالم النعيم والمناجية القديسين . ولاعجب فهو ابن الشهداء ورسول المسيح لدى الفقراء ، ولا غرو ان ذكره سيبقى خالداً في القلوب بعد ان سطر المولى حسناته في سجل الحياة ، فالى سيادتكم والى ابنائه الاعزاء اقدم تعازي الصادقة متوسلاً اليه تعالى ان يكافىء الراحل الكريم بالاخدار السماوية ويسكنه جنانه الابدية ويلهمكم الصبر والتعزية الحقيقيين . ويصونكم وآله الكرام بطول العمر والبقاء مكرراً مع التعزية المصافحة الاخوية بالرب

اخوكم بالمسيح

المطران بولس سلمان

عمان في ٣١ تموز سنة ١٩٣٥ رئيس اساقفة شرقي الاردن

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس اكلمنضوس معلوف الكلي الوقار

سيادة الاخ الجليل المفضال الكلي الشرف والوقار

بعد المصافحة الاخوية وطلب الدعاء تقول افتقدكم الله برجل الفضيلة والتقى ابي الفقراء ومعيل الايتام والضعفاء. فشاركناكم بالاسف على فقده وسألنا المخلص الالهي الذي وعد بالسعادة الدائمة لعاملي الخير والمبرات ان يعوضنا بسلامتكم وسلامة عائلة الفقيد المثلث الرحمات ويمتع نفس المحسن الكبير برحمته ويسكنه فسيح جنانه مكافاة لمبراته وحسناته انه تعالى مجيب الدعاء.

مستمد دعاكم الابرّ

اخوكم

جديدة مرجعيون في ١ آب سنة ١٩٣٥ اكليمنضوس

مطران بانياس وتوابعها

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس مكاريوس سابا متروبوليت حلب وتوابعها
الكلي الوقار

سيادة الحبر الجليل والاخ الحبيب كيريوس نقولاوس متروبوليت حوران
الكلي الشرف والوقار

بعد المصافحة الاخوية بالرب اقدم لسيادتكم التعازي القلبية بوفاة الشيخ الوقور المأسوف عليه صهركم المرحوم جرجي بيطار الذي ولا بد انه انتقل من هـذه الدار الفانية الى المقر السماوي حيث نال من لدن الهنا الازلي اكليل المجد واضعاف ما فعله ايَّام حياته البارة من الخير والبر والاحسان. وكلنا يعرف من كان جرجي بيطار ايَّام حياته . ففيما اني اتقدم منكم بهـذه العواطف ارجوكم ان تبلغوا بركتكم وسلامي مع آيات التعازي لاولادكم افراد اسرته الكريمة الذين كلهم ولا بد هم ابناء التقوى والفضيلة وقدوة الصلاح الذي رضعوه وتعلموه من ابيهم البار ، حفظكم الله وحفظهم جميعاً مـع افراد عائلتهم المصونة الى عمر مديد بالصحة والتوفيق والبر والصلاح . وعلى هذه الامال اكرر مصافحتكم ايها الاخ الجليل مستدعياً مبرور ادعيتكم لاخيكم المخلص

مكاريوس سابا

حلب في ١ آب سنة ٩٣٥ متروبوليت حلب وتوابعها

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس نقولاوس نبعه الكلي الوقار

حضرة الاب العزيز الارشمندريت جبرائيل بيطار ب م الجزيل الاحترام

بعد السلام والدعاء بحفظكم تلقينا بملء الاسف منعى والدكم الجليل وشاركناكم الحزن على فقده . فقد كان رحمه الله رجلًا باراً ومسيحياً كاملًا على مثال معلمه الالهي، وسيرته وحياته الطويلة الملأى بجلائل الاعمال أفصح دليل على ما انطوت عليه تلك النفس الكبيرة من الفضائل المسيحية الراهنة وبالاخص

فضيلة المحبّة للفقرآء والمساكين . فالخسارة اذن جسيمة ليس على بيتكم فقط بل على الطائفة وعلى الكنيسة ، ولا بدع اذا شاركناكم الحزن والاسى على فقد هذه الجوهرة الكريمة وذاك الكنز الثمين ، على اننا نتعزى بذكرى امثلته الرائعة وحياته المسيحية واملنا كبير بأنه نال رحمة واسعة لدى من قال : طوبى للرحمآء فإنهم يرحمون . مع ذلك صلينا وسنصلي واياكم لاجل راحة تلك النفس الطاهرة سائلين ابا المراحم ان يمطر ضريح الفقيد العزيز غيوث مراحمه الالهية وان يسكن نفسه البارة فسيح جنانه وان يحفظكم مع لفيف ذويكم الاعزآء من كل مكروه ويلهمكم الصبر والعزآء . انه سميع . مشاطركم الحزن والاسى

† نقولاوس نبعه

مطران صيدا ودير القمر

كتاب سيادة الحبر الجليل كيريوس مكسيموس صايغ متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعها الكلي الوقار

حضرة الابن العزيز الارشمندريت جبرائيل بيطار وكل افراد اسرته الكريمة تعزية مقدسة بالرب وبركة

علمت على اثر رجوعي الى بيروت لمدة قصيرة ان الله قد اختار والدكم القديس ليكافئه في دار الخلود عقب مبرات مارسها بتتابع عجيب وغيرة تامة وتجرد كامل وتضحية لا مثيل لها دامت اكثر من ثلاثة ارباع القرن . وإذ كان مديح الاحياء ليس بمستحب لان الانسان ما دام حياً لا يزال مهما كان معرَّضاً للزلة والخطأ فمديح الاموات ولا سيما الذين امتازوا بفضيلة سامية تجعلهم في مصاف خاص بهم لعدم تمكن العامة من الوصول الى درجتهم ، يُعدُّ فرضاً واجباً ، ووالدكم المرحوم كان — كما يشهد جميع الناس من أيَّة نحلة كانوا — من تلك الطبقة

الممتازة من رجـال الفضل والقداسة الذين يعزّ وجودهم والذين كانوا يعملون بمثلهم في سبيل تعزيز الدين والفضيلة اكثر ممـا يفعل كثير من رجال الكنيسة بوعظهم وارشادهم . والان اذا كنا نكتب لكم هذه الكلمة لتعزيتكم فانا نهنئكم اكثر مما نعزيكم لان والدكم عـاش عيشة الابرار ومات ميتة القديسين وهو الآن في السمآء يتمتع بثمرة جهاده وسيكون على الارض قدوةً ومثالاً لكل عمَّال الخير وهو في الوقت نفسه شرف للكنيسة المقدسة ولطائفته ولاسرته العزيزة . وبدلاً من ان نطلب الصلاة عن نفسه نرى نفسنا محولين على طلب شفاعته . ولكن مع ذلك فاننا نبتهل اليه تعالى لاجل نفسه ونبتهل اليه لاجل نفسنا . هذا مع تكرار عواطفنا الابوية ومشاركتنا اياكم وكل افراد اسرتكم بهذه الخسارة ومع اهدائكم البركة الرسولية ودمتم . الحقير

بيروت في ٣ آب سنة ١٩٣٥ ✝ مكسيموس صايغ

متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما

كتاب المثلث الرحمات الارشمندريت باسيليوس شحادة ب م الرئيس العام السابق للرهبانية الباسيلية المخلصية

حضرة الفاضل الاسيف الخواجا الياس بيطار واخوانه
الحزان الكرام المحترمين

تلقيت منذ عشرين يوماً وانا مريض منعى والدكم رجل الفضل فلم اجزع على عِظَم المصاب الا لخسارة البؤساء عونهم والارامل عاضدهم والايتام أباهم واولي الحاجات عائلهم والمرضى طبيبهم والعميان ضياءهم والعجّز عكازهم . يالخسارتهم ما اجلّها وامرَّها . واما موته فهو كريم لدى الله وذكر الصديق يدوم الى الابد . وان قلت لم اجزع لموته فذلك لان ايماني راسخ ان موت البار انتقال من حياة فانية

الى سعادة خالدة كما هو موت والدكم أيها الاماجد فاني اعزيكم لان خسارتكم كبيرة لا بل اني اهنئكم لان مجدكم عظيم لان اباكم اصبح شفيعكم وشفيعنا يرعاكم من علو سمائه ويذب عنكم بمحبته وغيرته فانتم اسعد بنين . اسعد بنين بشفيعكم واسعدهم لانكم ابناء الرجل الصديق واسعدهم بايمانكم وحسن ديانتكم لانكم نشأتم في حضن الفضيلة المجسمة واقتبستم عن ابيكم حسن الادب والكمال المسيحي فانتم سعداء بابيكم وهو سعيد بابنائه الذين يحيون ذكره باقتفائهم آثاره وترسمهم مبادئهُ القويمة وفضائله السامية وايمانه ومحبته ورجاءه ولي امل كبير براحم الله مكافئ الفضيلة ان لا بد من انه تعالى يمجد عبده بكرامته وتضمه الكنيسة الجامعة الى عداد قديسيها العظام فيشرق حينئذ بابهى جلال مجد الفضيلة وعمل البر والاحسان . فثقوا اذاً ايها الكرام ابناؤه وبناته وانسباؤه الباكون والحزان ان الفقيد حل في ديار ربه ينعم برؤية الحمل الذي دعاه الى سعادته وليكن ايمانكم معزيكم ورجاؤكم سلوانكم وليصنكم المولى من كوارث الدهر بمنه تعالى ورحمتهِ . مشاطركم الاسى

الخوري باسيليوس شحادة

دير المخلص في ١٩ آب سنة ١٩٣٥ ب م

كتاب سيادة الاب الجليل الارشمندريت استفانوس سماحة الرئيس العام للرهبانية الباسيلية الشويرية الكلي الاحترام

حضرة الافاضل الكرام الارشمندريت جبرائيل بيطار واخوته وسائر آلهم المحترمين

لما بلغنا نعي فقيدكم وعميدكم بل فقيد وعميد الفضل والتقى والرحمة تمثلنا ذلك الراحل الكريم المأسوف عليه ماثلاً لدى منبر العدل الازلي وقد التف حوله جوق من المعوزين والبائسين ينظرون اليه بعين الشكر والعرفان ثم ينظرون

الى الديان العادل بعين من يطلب المكافأة لمن شمله بحبه وحنانه وخلصه من ذله وفقره وشقائه . وان ذلك الحاكم الذي شُغِف بحب الرحمة والاحسان وشاء ان يعتبر ما يصنع بالمساكين مصنوعاً معه هو بنفسه التفت بناظره العطوف نحو المنتقل العزيز قائلاً له : « تعالَ يامبارك ابي رث الملك المعد لك منذ انشاء العالم . لان كل ما فعلته بهؤلاء الصغار بي قد فعلته . . » أجل وعندنا ان ما ترآءى لنا بالخيال هو عين الواقع لانه ان لم يكن ذلك حظ من قضى العمر بطوله لا يعرف طريقاً غير طريق الفضيلة والبر والتقوى ، باكياً مع الباكين وماسحاً بيده دمعة الحزين ومتحملاً العناء ليخفف البلوى عن الاشقياء ، فلمن تكون السعادة وثواب السماء من بعد ؟ على اننا مع هذا الرجاء نأسف شديد الاسف ونشاركـكم وسائر آل الفضل والاحسان في الحزن على خسارة ذلك الرجل البار والمثال الصالح الكامل ، كما اننا نشارك الجميع في املهم بان ذكره الحميد المؤبد سيكون باعثاً للاقتداء به وان الذين يسري في عروقهم دم قلبه الطاهر قد ورثوا مع اسمه الجدير بالثناء روحه الطيب المحب الخير والندى ، وهذا سيكون ان شاء الله لكم ولنا وللجمعية التي فقدت ركناً من اعز اركانها اوسع باب للصبر والعزاء ، نسأله تعالى ان يحقق الآمال والرجاء وان يصونكم وذويكم اجمعين من كل بلية روحية وزمنية ، وان يسبغ على قلوبكم وابل العزاء والسلوان آمين .

الارشمندريت

استفانوس سماحة

دير الصابغ في ١٩ آب سنة ١٩٣٥ — اب عام قب

كتاب حضرة الاب المفضال الارشمندريت باسيليوس حمصي الجزيل الاحترام

سيادة الحبر الجليل والراعي النبيل كيريوس نقولاوس قاضي

رئيس اساقفة بصرى وحوران الكلي الوقار

بلغني اليوم خبر وفاة نسيبكم المرحوم جرجي جبرائيل بيطار ، اسفت لرحيل هذا الرجل الفاضل الى الديار الابدية لا لسبب آخر سوى انه كان المثال الحي للفضائل المسيحية، وفاته هي بالحقيقة انتقال قديس الارض الى سعادة السماء التي استحقها جزاء خدماته العديدة للفقير خاصة، هو من الرجال الذين يستحقون اعلان قداستهم فوراً لصوت الشعب ، ولن نعجب ان سمعنا بعد القليل من السنين ان السلطة العليا اعلنت قداسة فقيدنا المجيد .

ولذا فاسطري هذه تحمل الى سيادتكم لا عبارات التعزية فحسب بل تمجيد الراحل القديس واعلان فضائله وتهنئة دمشق الفيحاء بانها اعطت وحوت نحو جيل تقريباً رجلًا هو خيرة رجالها، لا بل قديساً بكل معنى الكلمة سيكون في المستقبل موضوع فخرها وإعجاب القطر السوري كله بها .

ارجو من فضل سيادتكم تقدمة عبارات التعزية لافراد عائلة المتوفى الجليل سائلًا المولى ان ينفعنا بصلوات هو احرى بايصالها الى العزة الالهية من احتياجه اليها ودمتم لولدكم الارشمندريت

مرسيليا في ٥ آب سنة ١٩٣٥ باسيليوس حمصي

كتاب رئيس شركة القديس منصور دي بول بالقطر المصري

حضرات الاخوة رئيس واعضاء شركة القديس منصور دي بول بدمشق

بلغنا نعي المرحوم المأسوف عليه الاخ جورج بيطار الذي يمكن ان نعتبره عميد شركتنا في الشرق ليس فقط بطول مدة خدمته للفقراء بل ايضاً بفضيلته

وتقواه . ولولا اننا نخشى ان نسبق حكم الكنيسة لكنا ندعوه من الآن قديساً

لجنتنا بهذه السطور نعزيكم على فقد هذا الاخ العزيز ونعزي على الخصوص اخوتنا الفقرآء . ولكننا في الوقت ذاته نبتهج معكم لان هذا العبد الامين قد دخل الى فرح ربه لينال المكافأة على اعماله الصالحة ويمكننا ان نقول ان شركتنا ربحت بوفاته شفيعاً جديداً لها في السماء

نشترك معكم ومع عائلته الكريمة في هذه العواطف وندعو لكم بالتعزية وطول العمر .

رئيس شركة القديس منصور دى پول بالقطر المصري

القاهرة في ٦ آب سنة ١٩٣٥ فيليب عزيز

كتاب الخواجا غنطوس المصوبع وعائلته

حضرات الافاضل الخواجات الياس بيطار واخوته واخواته المحترمين

بعد الدعآء بطول بقاكم . . . تلقيت اليوم بمزيد الأسف نعي الطيب الذكر والخالد الاثر والشيخ الوقور والعم الجليل مجموعة الفضائل المرحوم والدكم العزيز جرجي جبرائيل بيطار .

اعزائي الاحبآء .

لو ان جميع الناس يعيشون على مثال العيشة التي قضاها الفقيد العزيز في حياته على الارض لكان السلام والسعادة يرفرفان فوق رؤوس البشر جميعاً على السوآء .

وهل كانت حياته كلها الا انموذجاً للانسان الكامل الذي يضحي بنفسه وبجميع قواه وهنائه في خدمة المعوزين ووقفاً على اعمال البر والاحسان والخير والرحمة .

أجل انه قد تتبع وصية السيد المسيح بالمعنى الصحيح « احبب قريبك

كنفسك » فمن كانت هذه صفاته وعلى هذا المثال قضى حياته — والحياة هي فكر وذكر — فذكراه ستكون خالدة واعماله الحميدة باقية بيننا يتناقل اخباره البعيد والقريب ويتداولها الخلف عن السلف الى ما شآء الله . على هذا المثال كانت حياته البارة .

اما حياته العائلية فهي المثل الاعلى للآباء من حيث التربية والادب والفضيلة وحسبنا افتخاراً وتخليداً لذكره من النجبة من الابنآء الكرام والبنات الفاضلات فانهم جميعاً — والحمد لله — يمثلون في اشخاصهم الكريمة تلك الصفات الممتازة والسمعة الحسنة كلما دار ذكرهم على الالسنة مدى الايام . .

هذه ايها الاعزآء عواطفنا نقدمها لكم مع عظيم محبتنا وشعورنا بموقفكم الأليم المؤثر فنسأل الله تعالى ان يرحم نفس فقيدنا العزيز عداد حسناته واعماله المشكورة ويعوض علينا بسلامتكم عوضاً كريماً . انه السميع المجيب .

المخلص والآسف

مصر في ٥ آب سنة ١٩٣٥ — غنطوس المصوبع وعائلته

كتاب السيد خليل افندي ابرهيم عبسي المحترم

لحضرة العزيز الخواجا الياس بيطار المحترم

وردتني اليوم الاذاعة . من اعقب كما اعقب الشيخ الجليل المرحوم المبرور والدكم لم يمت وذكره مخلد وفقدانه لا يشملكم وحدكم بل يشارككم به كل من عرفه سيما الايامى واليتامى والبؤسآء والفقرآء لانه كان متجرداً طيلة ايام حياته لمؤاساتهم ومساعدتهم بنفسه ومساعيه الخالصة لوجه الله فاليكم ولأشقائكم وذويكم ارفع تعزيتي هذه سائلاً لكم ولهم عمراً طويلاً بمنه تعالى وكرمه وهو اكرم مسؤول

الداعي

خليل ابرهيم عبسي

كتاب سيادة الحبر الجليل مار اغسطين البستاني مطران صيدا الكلي الشرف والوقار وقد فاتنا ان نذكره في محله

حضرة الاب الفاضل الارشمندريت جبرائيل بيطار الباسيلي المخلصي
الجزيل الاحترام

بعد اهداء البركة بوافر الحب والاكرام . تلقينا بالاسى الشديد نعي رجل الفضل والتقى المرحوم والدكم الجليل فاسفنا كثيراً على تلك الصفات الكريمة والفضائل المسيحية والاخلاق العالية التي تجمل بها طيلة حياته وذكرنا بحزن وألم تلك الرحمة الانجيلية التي كانت تحرك قلبه للشفقة وكفه للبذل عندما كان يشاهد البؤس والشقاء يثقلان على كواهل اخوته البشر وكل مرة كان يجد لعمل الخير سبيلاً . فاذا كانت هذه الفضيلة جميلة وممدوحة في كل وقت فهي في عصرنا الحاضر الذي سادت فيه على الخصوص روح الانانية والجشع أكثر بهاء وادعى للتقدير والثناء .

فبينا نشارككم من القلب في الحزن والاسف على هذا الفقيد الصالح الكثير المحامد والمبرات نعزيكم بالرب ايها الاب الفاضل وبشخصكم الجليل نقدم التعزية لسائر اخوانكم وذويكم الكرام سائلين الله ان يتغمّد روح الفقيد الزكية برحمته الواسعة ويجزل له الثواب في نعيمه الخالد على عدد حسناته ويعوض علينا بسلامتكم الغالية ولا يريكم من بعده مكروهاً .

هذا وبعاطفة الحب الابوي والاكرام نكرر اهداء البركة الى حضرتكم طال عزيز بقاكم .

اغسطين البستاني
مطران صيدا

١٨ آب سنة ١٩٣٥

كتاب الخواجا كامل مدور لالياس بيطار

Le Caire, *le* 6 *Août* 1935

Cher confrère et ami,

Dois-je vous exprimer des condoléances et des regrets à l'occasion du décès de votre père, ou dois-je plutôt manifester la joie chrétienne de compter un saint de plus au Ciel, qui est en même temps un nouveau et puissant protecteur pour sa famille, ses amis et ses pauvres? Je conçois la douleur que vous devez tous éprouver dans la famille en voyant disparaître d'au milieu de vous votre chef si aimé et si vénéré. Aussi, je m'associe à votre douleur humaine ; mais je m'associe encore à vos sentiments chrétiens et à la joie de l'Eglise, qui est heureuse de voir un de ses Justes recevoir la couronne de la gloire après un si long combat pour la cause du bien. Que de pauvres et que d'amis et que de parents, qui l'ont précédé au ciel, vont être heureux de le recevoir parmi eux et de former autour de lui un cercle d'âmes reconnaissantes! Et lui, quelle joie ne va-t-il pas éprouver en se voyant en compagnie de St. Vincent de Paul, son modèle, de la Ste. Vierge, sa mère, et de Notre-Seigneur Jésus-Christ qu'il a tant aimé et servi!

Vraiment, je ne puis être triste à la nouvelle de cette mort ; et si des larmes me viennent aux yeux, ce sont des larmes de joie, à la pensée du nouveau saint que Dieu a élu.

Votre ami devoué
K. Medouar

كتاب الخواجا بشارة متوق

Le Caire, *le* 8 *Août* 1935

Monseigneur,

Nous venons de recevoir le faire part nous annoçant le décès de l'homme de bien que fut Georges Bittar.

Malgré son age avancé, la mort de ce saint homme ne saurait manquer d'endeuiller toute notre colonie, car, nous n'a-

vons pas encore connu un ami des pauvres aussi pieux et aussi dévoué.

Nul doute que du haut du ciel cet homme de bien ne manquera pas d'être le protecteur de toutes les œuvres auxquelles il s'est intéressé pour le grand bien de notre Communauté et de notre Nation.

Je vous prie donc Monseigneur, d'accepter pour vous-même, et d'être mon interprète auprès de toute la famille Bittar pour leur présenter l'expression sincère des vives condoléances de moi-même et de toute notre famille.

Veuillez agréer, Monseigneur, l'hommage de mes sentiments les plus respectueux et les plus dévoués.

Bichara Matouk

كتاب شاعر القطرين خليل بك مطران

حضرة الاماجد انجال المرحوم جرجي جبرائيل بيطار المحترمين

وردني الآن نعي المرحوم والدكم وآسيت كل الاسى من جراء هذا الرزء الفادح الذي حرمكم ظل والد كامل وحرم الاصدقاء والمحبين الكثر بل الطائفة كلها مزايا رجل كان مثال الرجل البار في معاشراته ومعاملاته وعطفه خاصة على العاثرين والمستضعفين .

واني لارجو ان تجد قلوبكم تعزية بما وجدتموه من عميم المشاركة لكم في احزانكم وبما يؤكده لكم ايمانكم وعلمكم بفضائل فقيدكم العزيز من ان نفسه في السماء

وتفضلوا بقبول مواساتي الصادقة مع فائق احترامي

خليل مطران

مصر في ٨ آب سنة ١٩٣٥

وكتبت جريدة « *Les Échos* » التي تصدر بدمشق بتاريخ ٣١ تموز سنة ١٩٣٠

DES FUNÉRAILLES

exceptionellement touchantes et pieuses

Ont eu lieu au « St. Vincent de Paul » de Damas

Tout Damas peut-on dire a accompagné hier jusqu'à leur dernière demeure les dépouilles de cet homme simple et pieux que fut le défunt Georges Bitar.

On fut dans le convoi comme dans la compagnie d'un saint qu'on allait inhumer. Et c'est ce qui faisait le caractère particulièrement touchant et grandiose des obsèques d'hier.

Des délégations des prêtres du St. Sauveur étaient venues de Saïda et des Paulistes de Harissa ont accouru à Damas pour faire partie du convoi.

Toutes les Sociétés de bienfaisance chrétienne et musulmane accompagnaient le cercueil que se disputaient jeunes et vieux comme on se dispute une relique sacrée.

Le cercueil avaient été d'ailleurs confectionné, il y a environ 25 ans de bois très simple, par le défunt lui même à l'intention de recevoir plus tard ses propres dépouilles.

A l'église, débordant des fidèles et d'assistants, S. B. le Patriarche fit une exception en autorisant l'Archevêque Rizk, de prononcer l'oraisou funèbre du défunt.

Au cimetière également de nombreuses allocutions étaient prononcées pour dire ce que fut l'homme qui disparaissait et le vide qu'il laissait dans les œuvres de charité et de bienfaisance.

Les depouilles de l'homme saint que Damas perdait hier furent dépcsée dans le caveau des PP. du St. Sauveur, à titre exceptionnel, sur le désir qu'il avait formulé avant son décès.

Aux familles Bitar et Sara directement affectées et à tous ceux touchés par ce deuil, nous renouvelons nos plus vives condoléances.

ذكريات حفيدته اولغا سارة

Mon Grand père ne vivait que pour les pauvres au point de dérober de la maison la nouriture toute prête pour le repas et la porter aux indigents. Mais il avait en même temps pour sa famille la tendresse la plus profonde, la plus délicate aussi, une tendresse capable de tous les dévouements, de tous les sacrifices. Il serait bient exact de dire de lui qu'« il aima les siens jusqu'à la fin », jusqu'à l'excès. Qu'on en juge par ce trait dont fut témoin toute sa famille et beancoup d'amis.

C'était au mois d'Août 1927. Mon frère Michel souffrait de rhumatismes articulaires aigus d'une extrême violence. Toutes ses articulations, jusqu'à celles des phalanges, lui causaient une douleur intolérable au moindre mouvement, et l'on devait mettre un temps infini pour lui bouger les membres inférieurs afin de lui changer de position ; mais c'était au prix de réelles tortures, car il souffrait surtout à l'endroit des chevilles. Chaque fois qu'il le voyait, Grand-Père retournait chez lui tout remué et il ne pouvait détacher sa pensée de son petit-fils sur son lit de douleur. Un dimanche, il était chez lui après déjeuner, sur le point d'aller à l'office de la Congrégtion. Je me trouvais là moi aussi, avec maman. Au-dessus du lit il y avait un tableau représentant la Vierge et l'Enfant-Jésus. J'ai vu mon Grand-Père regarder longuement l'image. Après un silence, il nous dit sur un ton inspiré :

- « Michel guérira.
- Plaise à Dieu répond maman.
- Je vais aller demander à la Vierge de lui ôter les douleurs de ses pieds et de me les donner .»

Nous protestons tous avec énergie : le bon Dieu est plus généreux que cela ; il peut bien guérir l'un sans frapper l'autre.

Mais lui s'en alla sur ces mots pour assister à l'office de la congrégation qui commence a 2h. Il n'avait pas franchi une centaine de mètres qu'une automobile conduite par un ivrogne monta sur le trottoir, le renversa et lui marcha sur les pieds à l'endroit des chevilles. On l'emmena chez lui et l'on constata

une fracture près de l'extrémité inférieure du tibia droit et une grave luxation de la cheville gauche.

La nuit même, Michel réveillait sa mère : « Maman, dit-il, j'ai bougé les jambes tout seul et sans douleur. C'était tellement beau qu'au début je croyais rêver ; mais j'ai recommencé le mouvement plusieurs fois. C'est certainement grâce à la prière de Grand-Père ; pourvu que la Vierge n'exauce pas la seconde partie de sa demande ! » Bien entendu, on ne lui apprit la réalité que plus tard. A partir de ce jour sa guérison avança à grands pas et il ne tarda pas à se lever.

Quant au Grand-Père il était, sur sa prière, immobilisé à la place de son petit-fils. Toute la famille et les amis, tout le quartier indigné de l'accident survenu à un vieillard aussi vénérable voulaient poursuivre le chauffeur ivrogne et le châtier. Mais lui s'opposa à toute action en justice, estimant que le chauffeur n'était qu'un instrument entre les mains du bon Dieu. On lui dit qu'à défaut des réparations qui lui étaient dues, il ne pourrait pas empêcher l'action publique contre le délinquant. Alors il rédigea une déclaration disant qu'il avait une ouïe très faible (ce qui est exact) et que le chauffeur était excusable; et ce dernier fut épargné par la justice.

A ce moment là, il avait 87 ans. Grâce à sa merveilleuse constitution, il put se remettre assez rapidement après sa fracture. Mais il était désormais nettement plus faible qu'auparavant. L'âge affirmait ses droits de jour en jour, mais ralentissait à peine la sainte activité du vieillard. Il en fut ainsi jusqu'en avril 1931. Il avait 91 ans. On devait lui faire d'urgence une petite intervention chirurgicale, qui présentait quelque danger en raison de l'âge.

Après des adieux touchants à sa famille, muni des derniers sacrements, il se confia aux médecins. L'opération, partiellement réussie, lui donna quelques jours de répit. Il écrivit alors avec ce ton plein de bonhomie mais si hautement surnaturel, qui est l'un des côtés les plus saisissants de son caractère.

« J'ai pris un billet pour le grand voyage, mais sur le point d'arriver au but, saint Pierre m'a dit : c'est prématuré; retour-

ne, car tu as encore à expier . . . » Et de fait, c'est à partir de ce moment qu'il ne resta pas un seul jour sans souffrances. Les desseins de la Providence étaient que ces quatre dernières années de sa vie fussent pour lui quatre années de douleurs et d'humiliations. Il avait jusque là pratiqué la pauvreté et l'humilité par l'esprit, il lui était réservé de mourir en les pratiquant dans son propre corps. Car l'âge et la souffrance continuelle avaient fait baisser toutes ses facultés. Il voyait peu, entendait de moins en moins. Pas un instant, la douleur ne lui a arraché une plainte. Et quand il causait avec l'un des siens c'était toujours pour regretter ses péchés et verser des larmes d'humilité et de contrition.

La nature creusait un fossé de plus en plus profond entre lui et le monde des vivants. Il sortait à de rares occasions, pour aller à la messe ou à l'office de la congrégation. Il passait toutes ses journées dans sa chambre, étendu sur son lit où il ne pouvait plus lire. Il voyait très peu de monde. Il s'affaiblissait progressivement, mais son appareil digestif et son cœur, restés aussi solides qu'à l'âge de 30 ans, laissaient croire qu'il vivrait plusienrs années. On n'avait pas prévu une intoxication causée par le mauvais fonctionnement de ses reins.

Le 27 Juillet 1935 son état devint très grave. Il ne recouvrait sa connaissance qu'à de rares intervalles. Le soir on lui administra l'extrême onction. Le lendemain matin son état semblait légérement amélioré au moment où il reçut la Communion. L'après-midi à 3h.30 commençait l'agonie. Ses enfants, groupés autour de lui, récitaient le chapelet. Il rendit l'âme au dernier « Ave Maria ».

La nouvelle se répandit rapidement en ville. Tout le clergé, patriarche, évêques et prêtres sont venus immédiatement saluer la vénérable dépouille. Le lendemain jusqu'au moment des funérailles, ce fut un défilé continu de connaissances et amis qui venaient se recueillir et baiser pieusement la main qui avait fait tant de bien.

Le cortège, l'après-midi, fut une véritable marche triomphale. Le défunt avait confectionné de ses propres mains un

cercueil en bois très pauvre destiné a recevoir sa dépouille. Il ne doutait pas à ce moment, que ce pauvre cercueil serait disputé un jour par des dizaines de bras qui voudront tous avoir l'honneur de le porter à sa dernière demeure.

Les gens estimaient en effet que c'était une réelle bénédiction que de pouvoir porter une aussi sainte dépouille. Sa bière était élevée au-dessus des têtes, et rares étaient ceux qu'on laissait la porter ainsi deux minutes de suite ; ils étaient immédiatement remplacés. Les parents qui conduisaient le deuil étaient constamment bousculés par la foule qui voulait approcher le cercueil et le toucher.

On n'avait jamais vu un élan aussi spontané chez le peuple ; jamais on n'avait vu un homme rallier autour de son nom une aussi touchante unanimité de vénération et de louanges. Et chacun revenait du cimetière profondément impressionné et ému d'avoir assisté aux funérailles d'un saint.

ويحسن بنا ان نضع هنا ختاماً لهـذا الملحق الكتاب السامي الذي ارسله غبطة مولانا السيد البطريرك الكلي الطوبى يهنىء به الفقيد بسلامته من الحادث الذي ذكرته حفيدته الآنسة اولغا سارة فيما تقدم :

ذكرنا غلطاً في عنوان الصفحات السابقة ان الذكريات للآنسة اولغا حفيدته وهي في الواقع ذكريات اخيها البير اما ذكريات الآنسة المذكورة فهي الآتية .

La mort rappelle d'ordinaire une idée terrible, un châtiment affreux que la Justice de Dieu a inventé pour punir les crimes des hommes. Rien de semblable lorsqu'il s'est agi de la mort de mon Grand'père. La présence des dépouilles si chères donnait une impression de douce paix, presque de joie. Cette mort paraissait être l'union parfaite, enfin réalisée, d'une âme avec son Dieu. Tous ceux qui visitaient la chambre mortuaire étaient saisis par l'atmosphère de calme et de recueillement qui s'en dégageait. Tous emportaient la profonde conviction que reposaient là les reliques d'un saint. Un saint ! . . On écrit sa vie, on la répand, on raconte ses traits de sainteté. Il y aurait peut-être beaucoup à dire sur un homme qui a vécu quatre-vingt quinze ans. Pour moi, qui ne l'ai connu que pendant ses dernières années. je me suis demandé ce que je pourrais bien en raconter. Non pas que j'ignore la haute sainteté de mon Grand'père, mais tout ce que je connais de lui se réduit aux mêmes idées : Vie d'union continue avec Jésus, vertu souriante, apostolat conquérant, esprit de pénitence, charité dévorante et éclairée, enfin humilité profonde et peu commune.

Depuis le premier éveil de ma raison, Grand'père s'est présenté à mon esprit comme le saint, celui avec lequel Dieu est manifestement présent. Nous savions que pour ne pas suivre sa volonté ou ses désirs, il fallait être téméraire. En 1926 alors que l'insurrection des Druzzes semblait terminée, nous avions projeté de faire un goûter dans les jardins entourant Damas. C'était la première fois qu'on pouvait dépasser les portes de la ville. Nous étions tous heureux à cette idée. Grand'père n'était pas de notre avis. « Il y a encore du danger, nous disait-il, ne sortez pas aujourd'hui. » Mais personne ne se résignait au sacrifice de la promenade. Chacun discutait avec lui pour le convaincre, car nous appréhendions d'aller sans son consentement.

Nous étions enfin décidés, quand, au moment de quitter la maison, la panique se met dans la rue. On entend des coups de fusils ; une foule compacte de femmes et d'enfants paysans afflue et encombre le chemin. La paix était de nouveau troublée. Effrayés, nous refermons la porte, bien aise de n'être pas dans la cohue. Rien ne faisait présager ce grave désordre. Seule la volonté de Grand'-père nous donnait des soupçons, et c'est sa bienveillante patience qui nous a retenus plus longtemps au gîte. On ne peut s'empêcher de reconnaître une intervention spéciale de la Providence en notre faveur par l'intermédiaire de notre Grand'père. Pour tous les dangers, il était notre sauvegarde, et lorsque nous avions un malade, il passait ses nuits à l'église les bras en croix.

C'est toujours ainsi que nous l'avons connu. Ses actes, ses paroles ne nous étonnaient guère ! Pour nous, il était celui dont la compagnie nous mettait en contact avec le surnaturel. Il déversait son « Trop plein » de Jésus, sur nos âmes encore toute neuves, Grand'père ne nous parlait jamais de contingences matérielles. Nous savions que tout ce qu'il disait, avait pour objet le bien et le beau sous ses différentes formes. Le centre de toutes ses histoires était Jésus ! Jésus, c'était pour lui la réalité vivante, l'Ami avec lequel on cause et de qui l'on ne se lasse jamais de parler. Il nous prenait souvent sur ses genoux et nous racontait de belles histoires : tantôt c'étaient les persécutions de 1860 et le martyre de son cousin Massamiri, tantôt il nous parlait des misères qu'il rencontrait en visitant les pauvres gens et la joie qu'il éprouvait à donner. . . Les profanes, qui ne comprennent pas la possibilité d'une amitié véritable avec Notre Seigneur, souhaitent peut-être pour leurs enfants des grands parents plus gais et des histoires plus amusantes. Ceux-là ne savent pas que la joie est une des caractéristiques de la sainteté ; ils n'ont pas entendu le précieux témoignage de Pascal : « Nul n'est heureux comme un vrai chrétien ». Grand'père qui était un si parfait chrétien avait donc la joie ! Sa vertu était aimable, ses histoires ne nous paraissaient jamais austères ; nous étions ravis de l'entendre et lorsqu'il arrivait, nous accourions au devant de lui pour essayer de lui baiser la main. Mais lui, trop modeste, et se

considérant pécheur ne voulait jamais nous la donner. Souvent il alimentait ses récits de traits d'esprit fins et à propos, tels qu'on en trouve tout le long de ses lettres. Il plaisantait encore souvent sur son âge : on avait dit que le jeûne était obligatoire jusqu'à l'âge de soixante ans. Mais Grand'père voulait continuer ses habitudes de mortification. « Comment ! vous me traitez de vieillard ? » nous disait-il lorsque nous entreprenions de tempérer ses rigueurs. Là nous touchons à un autre trait de son caractère : son esprit de pénitence. Aussi loin que remontent nos souvenirs, nous apercevons notre saint Grand'père attablé avec son bon sourire et ses enfants à bout d'arguments pour lui faire rompre le jeûne ou l'abstinence. Il voulait passer chaque temps de pénitence aux légumes bouillis ou aux fritures à l'huile, en jeûnant bien plus que ne le demandait l'Eglise. Ces mortifications, il les faisait par charité et par humilité.

Par charité: car ce saint ne se contentait pas de donner les biens matériels et les trésors de prières aux pauvres. Il poussait sa vertu jusqu'aux régions supérieures, là où la délicatesse devient si fine que seules les mentalités vraiment chrétiennes peuvent atteindre. Les saints ont une telle tendresse de sentiment qu'ils souffrent quelquefois d'une manière intense des misères d'autrui. Ne pouvant soulager le prochain ils voudraient au moins souffrir comme lui. Ainsi, Grand'père ne se résignait pas à être mieux traité que ses pauvres dont on l'appelait le père. Il faut en effet un cœur de père pour arriver à cette délicatesse.

Par charité encore, il essayait de conquérir les âmes au Christ. Que de personnes n'a-t-il pas enrôlées dans les Conférences de Saint Vincent de Paul dont il était la vie !

Quant à l'humilité, elle trouvait son épanouissement en lui. Il était si spontané et si simple! Il se reconnaissait si sincèrement pécheur, qu'à l'entendre parler on aurait pensé à prendre en pitié la détresse de cette âme.

Mais nous ne comprenons pas les saints ! Lorsqu'ils s'humilient, lorsque leurs péchés leur arrachent des accents de si touchante contrition, ils sont et ils restent dans la vérité, parce

qu'ils mesurent leur faiblesse et l'infinie bonté de Dieu. Tandis que nous, un petit acte de vertu suffit à satisfaire notre petite âme . Mon Grand'père était donc sincère et vrai. Il se voyait le dernier des hommes parce qu'il devait se dire : « Dieu m'a assiégé de ses grâces et il m'arrive encore de lui être infidèle; s'il avait ainsi comblé le dernier des hommes, celui-là aurait peut-être répondu à ses grâces mieux que moi.» On comprend alors sa source intarissable d'humilité. Et l'on comprend son souci de réparation . Ses jeûnes et ses mortifications avaient encore pour but l'intention réparatrice.

Ainsi, tout se tient dans le caractère de cet aimable saint: Jésus est le centre de sa vie et par Jésus on s'explique la charité, l'humilité, l'esprit de mortification, la joie de celui dont notre ville s'enorgueillit et qui a suscité une vive explosion de sympathie. Notre pauvre ville a besoin de nouvelles semences pareilles à celle qui vient de disparaître . Que Dieu daigne nous en jeter sur notre sol de Damas, afin que notre antique pays renouvelle ses énergie et les dirige généreusement vers la plus noble cause, achetée par le sang de ses aïeux: la Gloire de Dieu et son Règne!

sa petite fille

le 2 Août 1935 *Olga Sara*

بطريركية

انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق

للروم الكاثوليك

سجل ١ عدد ٣٣٥٣

لحضرة الابن العزيز الخواجا جورج بيطار المحترم

سلام وبركة رسولية

لقد ساءنا جداً الحادث المؤلم الذي اصابكم والقاكم طريحي الفراش والاوجاع الاليمة تتنازعكم بين اسرتكم الكريمة، وكأن الله يريد دائماً ان يمتحن اصفياءه ومحبّيه وينزل بهم الآلام ليتشبهوا بابنه يسوع المخلص، ويصبحوا قدوة صالحة في احتمالهم المصائب وصبرهم على المحن، ونحن قد شاركناكم في عذابكم هذا الشديد وسألناه تعالى ان يمنحكم الشفاء التام وينهضكم الى عائلتكم النبيلة والى الفقرآء الذين هم ابناؤكم وغدوا خاصتكم، الى الكنيسة الكاثوليكية التي تفتخر بجهادكم وتقواكم وتفانيكم في سبيل البؤساء اولادها مكررين عليكم البركة الرسولية.

كيرلس التاسع

بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم

بيروت في ١١ آب سنة ١٩٢٧ وسائر المشرق

الخاتمة

انَّ ما تضمنته هذه الترجمة عن « خادم الفقرآء اخوة يسوع المسيح » جرجي جبرائيل بيطار هو في الحقيقة صفحة تظهر فيها زوجته ماري قاضي ، الشريكة الامينة في الرسالة التي دعي اليها ، بل إنه بيان لما يستطيعه الزوج المسيحي ، الحيّ بروح الله ونعمته ، من الاعمال المجيدة في الوسط العائلي وفي الهيئة الاجتماعية . فاذا ما تصديت لحياة احدهما ، فما انا الا مستعين بحياة الثاني ليكون بهذه الترجمة بعض مظهر للحياتين ، فما يقال عن الواحد يقال عن الآخر ، من حيث ان وحدة نفسيتهما المستنيرة بالايمان والرجاء والمحبة ، كانت لكليهما مصدر قوة ادبيّة سامية ، ومبدأ لحياة مسيحيَّة كاملة .

على ان المكانة العالية التي وجبت لماري قاضي في صدور الجميع من نسآء ورجال ، في مختلف الطبقات والأوساط والحياة المسيحية الممتازة التي تفردت بها يتفق الجميع عليها . وقد عثرت اخيراً على شهادات بذلك من مقامات عالية ، فالى ان يتحقق الامل بان يظهر التاريخ ما في حياتها الخاصَّة من كوامن الفضل والفضيلة ، رأيت ان اختم كلامي عن زوجها جرجي بكلمة

وجيزة ، اثبت فيها تلك الشهادات

في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ كان نفي الى حلب ، سيادة المطران نقولاوس قاضي مطران حوران . فأثّر هذا النفي في قلب شقيقته ماري ، ومن شدة تأثرها انتابتها اوجاع وآلام انهكت قواها وما عتّمت ان اودت بحياتها في الحادية والخمسين من عمرها . فذهب الى حلب رسول من الزبداني ، يحمل الى سيادته نبأ موتها ، فاستلم سيادته الكتاب ، ووضعه في جيبه وهو لا يعلم فحواه . واليك ما كتب[1] ، بعد ان قرأ ذلك الكتاب :

« لم أكد أنظر الى مقدمته ، حتى طار قلبي شعاعاً وأسفاً على من فقدناها . ولم آتِ على الكتاب ، حتى أجهشت في البكآء . ولما كان أحد الكهنة الاب عطايا وحده معي في الدار ، أخذته الرجفة والحيرة ، لكني بادرته الخبر المفجع وقمت حالاً من مكاني الى المعبد المحفوظ فيه القربان المقدس لكي أسجد لاحكامه وأقدم له ذبيحة قلبي . . .

(وفي تلك الليلة) « فارقني الكرى ، ولم يغمض لي جفن ، وقضيت ليلة مزعجة . وثاني يوم الخميس ١٣ منه . . . قدمت الذبيحة لراحة نفس فقيدتنا البارة التي لا ريب عندي بخلاصها . انمّا خشية اطالة مقامها في المطهر ، لا ازال اواصل تقديم الذبيحة اليوميَّة لراحة تلك النفس التي كانت لديّ أعز من والدتي ، بل أعز الناس لديَّ . . . ولما جئت الى الغذآء ، لم يمكني تناول الطعام بدون أن أخلطه بدموعي التي كانت تنحدر من مقلتيَّ رغم تجلدي وصبري . فأخذ

---

(١) الى صهره جرجي البيطار في ١٤ حزيران سنة ١٩١٨

الجميع بالبكاء معي . . . ثم عدت الى الصلاة كل ذلك اليوم . . . انها كانت لنا كلنا بمثابة الاب والام والاخت واي أخت . وماذا أقول سوى الخضوع لمشيئة الرب القدوسة ومطابقة الارادة مع ارادته تعالى ، فذلك خير لنا ولها ، لانها هي ايضاً اعطتنا هذه الامثولة في وفاتها ، شاركة موتها مع موت ذلك المخلص الالهي الذي قال ساعة نزاعه : « لكن لتكن مشيئتك » . . .

وكتب المطران ديمتريوس قاضي ، النائب الرسولي وقتئذٍ للبطريركية[1]

« منذ ثمانية أيام ، سلمت (ماري) نفسها الجميلة في يدي الله . والى ان لفظت النفس الاخير كانت تتحدث بعطف ومودة مع يسوع ملتمسة معونته ، ومقدمة له ذبيحة حياتها وطالبة ان يجمعها به ، فكانت ميتتها صورة لحياتها في الهدوء والوداعة والخشوع والشجاعة والكرم ، ومن العبث القول ان الاسف عليها كان شاملاً ، من حيث انه كان يتعذر ان يتعرف اليها أحد دون أن يحترمها ويحبها . . . على ان ما بذلت أسرتها في سبيلها ابان مرضها كان عجيباً . وقد قدّرت هي ذلك البذل حق قدره لانها لم تفقد لحظة صفاء ذهنها . ولي الثقة الغير المتزعزعة في انها تنعم الآن بثواب فضائلها . وقد حضر الاحتفال بجنازتها نواب اصحاب الغبطة بطاركة الروم والارمن الارثوذكس ، ولفيف الاساقفة الكاثوليك والرهبان والراهبات واكليرسنا وجميع الاصدقاء . وأبيت الا ان ارافق جثمانها الى مقره . . . »

وبلغ منعاها اولاد المرحوم مخائيل صباغ في منفاهم ،

---

(١) هو المثلث الرحمات البطريرك ديمتريوس الاول قاضي . رسالته الى سيادة المطران نقولاوس قاضي .

فكتبوا الى سيادة المطران نقولاوس قاضي بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٩١٨ :

« . . . لقد كانت المثلثة الرحمات والسعيدة الذكر والطيبة الاثر البارة مريم، ركن الاعمال الخيرية ، ورئيسة الاخويات التقوية ، وشرف الرهبانية الثالثة السروفية ، وقدوة الامهات الفاضلات ، ومثال الوداعة والتواضع والحب للقريب والاحسان للبائس ، وبالاجمال كانت حياتها مجموع صلاح وسلسلة كمالات مسيحية ، أكسبتها السعادة الابدية والغبطة الدائمة والملكوت السماوي . وما صعب وشق علينا بنوع خاص ، ومزق أحشاءنا هو انقطاعنا في هذا المنفى مدة سنتين من زيارة هذه القديسة وعدم امكاننا . . . وداعها الوداع الاخير والتزود ببركتها والقيام بواجباتنا نحو البارة الراحلة . . . »

وكلٌ يقول في دمشق وغيرها ، ان ماري قاضي ، كانت مثل زوجها جرجي بيطار أمًّا للجميع بحبها وغيرتها ، وحكمتها وسعيها ، وان موتها في الحادية والخمسين من عمرها ، كان خسارة لا تعوض بكثيرين او كثيرات سواها .

ومما يذكر لها بالخير ويثبت لها الفضل ما رواه المثلث الرحمة الاب باسيليوس شحادة ب م وكان مدبراً ثالثاً فانه كان في دمشق لشغل خصوصي للرهبانية فمرض هناك مرضة شديدة وعلمت به المأسوف على مبراتها المرحومة ماري فحبست نفسها على خدمته بذاتها باذلة لاجله مع اللطف والانس والوداعة ما شاءت تقواها من السهر والعناية والغيرة مما جعل لها في قلبه الاعتبار الفائق والاحترام الكلي طيلة حياته كلها بنوع انه اذ اتى يوماً الى الدير

قبل وفاته بنحو سنة ونزل في غرفة ابنها اخينا الاب جبرائيل بيطار استلفت نظره صورتها الكريمة معلقة على الحائط فشخص اليها بمهابة الاجلال والتكريم وخشع بقلبه الرقيق تالياً لراحة نفسها الزكية تلك الصلاة الطقسيه الشائقة : « مع القديسين ارح ايها المسيح الاله نفس امتك ماري ٠٠٠ »

وكم من مأثرة ومبرة مثل هذه وغيرها تبقى سراً مطوياً الى ان يشاء الله ان يعلنها لمجده . يكفي ان نذكر من جملة حسناتها عطفها الخاص على الجمعية البولسية الكريمة ولا سيما أبان الحرب العالمية (١) اذ كانت تغدق احسانانها على تلك الجمعية ، الامر الذي خلد ذكرها ، مثلما انه مخلّد كلما ذكرت المحبّة والغيرة ، والتضحية في سبيل القريب على مثال زوجها .

ويجمل بنا ان نورد هنا ، ما كتب الخوري ديمتري سكّرية (٢) بعد وفاة ماري ، وكان هذا الاب الفاضل مرشدها الروحي :

« ان المرحومة ماري هي من السيدات التي يبكى عليهنّ دماً ، لما كانت مزدانة به من الصفات النادرة والرصانة العجيبة والفضيلة الراهنة . (وما يعزينا فيها) تقواها ومحبتها لله واحتمالها العجيب حباً بيسوع لانواع الاوجاع ، خصوصاً

---

(١) رسائل الاب يوسف الصائغ رئيس المرسلين البولسيين : وهو سيادة المطران مكسيموس الصائغ ميتروبوليت بيروت اليوم .

(٢) هو المرحوم المطران ديمتري سكرية : رسالته في ١٢ حزيران سنة ١٩١٨

بمرضها الاخير حتى لم أسمعها تتلفظ الا باسمه الكريم ويمكنني ان أؤكد بحسب اعتقادي ، أنا مرشدها ومستودع أفكارها ، خصوصاً في آخر حياتها بان فضيلتها الراهنة ومحبتها لله وللفقير واحتمالها الاوجاع بروح مسيحي صادق ، ستجعل لها مكاناً ممتازاً في دار السعادة الابدية ، وربما لا تمر بالمطهر الا مروراً ، وعليه لا أشك بأنها سعيدة الآن تشفع فينا . . . »

فمن لا يقول بان سيدة ، وامّ اولادٍ ، ورئيسة جمعيات خيريّة ، مثل ماري قاضي ، وقد تجلت حياتها الفاضلة بعد موتها ، بأوضح واصفى ما تكون الدلائل والبينات ، كانت لزوجها جرجي ، تلك المرأة الفاضلة الحكيمة التي يمتدح الكتاب المقدس امثالها . اذ الموت وهو للحياة صورتها ، ومقياس قيمتها ، قد عظّم ماري قاضي بذلك الاثر المجيد الخالد وتلك الذكرى الطيبة اللذين يدوم بهما ذكر الصديقين امام الله والناس ، وما احسن واصدق ما كتبه جرجي بيطار نفسه تحت رسم امرأته ماري ، وهو موجز حياتها ، وعنوان سعادتها « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله » .

لذلك لا يكون من العبث ان ننقل هنا ما وقع لنا من الكتابات عنها ، وقد اثبتنا شذرات من بعضها ، ليكون من حياة رجلها الصالح الذكر ومن حياتها الفاضلة خير محرض على التمسك باهداب الدين وعلى ملازمة التقوى وعمل البر .

كتاب الاب يوسف الصائغ الى ماري قاضي يشكرلها احسانها الى جمعية الآباء البولسيين ويهنئ جرجي بيطار بعيد شفيعه القديس جاورجيوس

حضرة السيدة الفاضلة ماري مدام جورج بيطار المكرمة

لقد وافانا حضرة الاب بولس سيور البولسي يوم الامس مساء حاملاً من خاصة الدمشقيين عموماً ومن حضرتك ايتها السيدة الفاضلة خصوصاً عواطف الشكر والمنّة لما لقيه بين ظهرانيكم من التقوى والغيرة والمساعدة . وقد احببتِ ايتها السيدة المكرمة ان تحيطي الاب المذكور بكل عناية واهتمام مما ساعده على القيام بواجبات الوعظ بنوع متواصل بدون ان يطرأ عليه ما يضطره الى الامساك عن الشغل . وعلاوة على ذلك فقد تكرمت على جمعيتنا الصغيرة بتقدمة مئة فرنك وهي قيمة ذات اعتبار لاسيما في الظروف الحاضرة حيث الدراهم قليلة وعزيزة . وعليه فقد اتيت اشكر لك ايتها السيدة الكريمة عنايتك وتقدمتكِ . ومنذ الان نتشرف بان نحصيك في عدد المحسنين الينا . ولا شك ان الله سيعوض عليك وعلى اسرتك المباركة بخيرات ارضية وسماوية تكون اضعاف ما تكرمت ببذله في سبيل البرّ . وبما اننا نحتفل اليوم بعيد القديس جاورجيوس شفيع قرينك البار فاني اقدم اليه عواطف المعايدة واضم صوتي الى صوت الالوف من الايتام والارامل والفقراء الذين يبذل حياته في مساعدتهم وتخفيف آلامهم طالباً من الله ان يفيض عليه بغزارة نعمته وبركاته العلوية وان يصونه وكل ذويه المباركين من كل كارثة ومضرة . هذا ومع تكرار عواطف الشكر الحميم لحضرتك ايتها السيدة الفاضلة التمس من الله ان يواصل بركاته عليك وعلى كل افراد اسرتك المقدسة ودمت

للداعي

الاب يوسف الصائغ

حريصا ٢٣ نيسان سنة ١٩١٥ — البولسي

وله ايضاً بالمعنى نفسه

حضرة السيدة الفاضلة ماري جورج بيطار المكرمة

بعد التحية والاحترام لقد رجع الينا حضرة الاب بولس سيور البولسي حاملاً من آثار فضائلك الممتازة ما قد اختبرناه مراراً بانفسنا ومجدنا الله عليه . وقد احببت هذه المرة بمالك من الغيرة المقدسة على جمعيتنا الصغيرة ان تتكرمي بعشرين ليرة افرنسية قرضاً بلا فائدة لبعد الحرب. فجآء عملك هذا، ايتها السيدة الفاضلة ، في هذه الايام الحرجة التي لم نرَ اضيق منها ، برهاناً جديداً على ما في قلبك من الحب الصادق نحو الله اذ ان اعظم علامة للحب هي التضحية وحضرتك قد ضيقت على ذاتك لتسعفينا بهذه الدراهم لعلمك باننا نشتغل في تمجيده تعالى . ولا ريب في ان الذي ينجدنا في الوقت الحاضر يشاركنا في ما يمكننا ان نعمله من الخير في جانب النفوس، لانه لولا المساعدة المادية لما قدرنا ان نقوم باعمالنا الروحية . وحسب رغبتك نقيم عن نيتك اخصه في ايام السبت كل شهر قداسين آملين انه تعالى يجود عليك بحسب رغايبك الوالدية المقدسة . ولدى كتابتنا الى حضرتك يتبادر الى ذهننا ذكر تلك السيدات الفاضلات المدعوات في الانجيل المريمات اللاتي كنَّ يتبعن المسيح لاسمه السجود ويصرفن عليه بسخآء من مالهنَّ واللواتي ظهر لهنَّ بعد قيامته قبل ان يظهر لرسله ليدلَّ على ما في قلبه من الحب والاعتبار لهنَّ لاننا وان كنا احقر الكهنة فمع ذلك نمثِّل بدون استحقاق السيد الفادي . فالشكر لكِ ايتها السيدة الفاضلة والشكر لقلب فادينا الالهي الذي الهمك هذا العمل والذي ارجوه من صميم فؤادي ان يكافئك عنا بان يملأك من نعمته الالهية ويصون لك كل افراد اسرتك المحبوبين ويديمك قدوة ومثالاً للسيدات المسيحيات ودمت

للداعي
الاب يوسف الصائغ
رئيس المرسلين البولسيين

حريصا ٣ ايار سنة ١٩١٨

كتاب المثلث الرحمة المطران ديمتريوس قاضي النائب الرسولي يومئذٍ الى سيادة المطران نقولاوس قاضي يخبره فيه بوفاة شقيقته ماري قاضي

Damas, le 12 *Juin* 1918

Mon cher et vénéré Seigneur,

Il y a exactement huit jours, j'écrivais à Votre Grandeur que votre chère malade allait mieux. Le soir du même jour, à huit heures, elle rendait sa belle âme à Dieu. Jusqu'au dernier soupir elle parlait affectueusement à Jésus pour implorer son secours, lui offrir le sacrifice de sa vie, lui demander de l'unir à lui. Sa mort fut l'image de sa vie : calme, douce, pieuse, courageuse, généreuse. Dire qu'elle a été universellement regrettée, c'est superflu. Il était impossible de la connaître sans l'estimer et l'aimer. Pour mon compte je l'affectionnais très vivement. Elle me payait largement de retour. C'est une grande perte pour notre famille et un grand vide dans ma pauvre vie. Sa famille s'est montrée pour elle, durant sa maladie, d'un dévouement admirable, que du reste, elle savait apprécier ; car, elle a toujours gardé sa lucidité d'esprit. J'ai la ferme confiance qu'elle jouit maintenant de la récompense de ses vertus.

Pour nous marquer leurs sympathies, leurs Béattitudes les Patriarches orthodoxes grec et arménien se sont fait représenter aux funérailles par des évêques et archimandrites. Il va sans dire que tous les évêques catholiques, tous les religieux, toutes les religieuses, tout notre clergé et une foule d'amis étaient présents. J'ai tenu à l'accompagner moi-même à sa dernière demeure.

Je présente à Votre Grandeur mes plus sincères compliments de condoléance ; et demande à Notre Seigneur pour vous et pour nous la patience et la résignation.

Agréez cher Monseigneur, l'expression de mon affectueux dévouement.

† *Dimitrios Cadi*
Arch. d'Alep Vic. Apost.

كتاب تعزية من الخوري ديمتري سكرية الى سيادة المطران نقولاوس قاضي

سيادة مولاي كيريوس نقولاوس الكلي الوقار

الثم انامكلم الطاهرة . وبعد مولاي لم أكن لاظن انني سأغط القلم لاكتب لسيادتكم عبارات التعزية في ايام غربتكم هذه بفقد شقيقتكم المأسوف عليها جداً ، وليست غايتي إثارة اشجان قلبكم الرقيق الحنون من جديد . ولكن لا يسعني الا القول بان المرحومة ماري هي من السيدات التي يبكى عليها دماً لما كانت مزدانة به من الصفات النادرة والرصانة الغريبة والفضيلة الراهنة ، فكانت تمثل لنا شخص سيادتكم المحبوب وتخفف علينا من الم فراقكم الذي طال امده . ولكن ما الحيلة وقد نفذ أمر الله ولاحكامه الغامضة السجود . على ان لتعزية قلبكم الجريح سببين عظيمين اولهما ايمانكم الفائق وصبركم واتكالكم على الله الذي لا تدكه جبال المصائب ولا تحركه عواصف المحن مهما اشتدت ، وثانيهما تقوى الفقيدة ومحبتها لله واحتمالها العجيب حباً بيسوع لانواع الاوجاع خصوصاً بمرضها الاخير حتى لم اسمعها تتلفظ الا باسمه الكريم ليس فقط اوقات الصحو بل ايضاً لما فقدت شعورها قبل وفاتها . ويمكنني ان اؤكد لسيادتكم بحسب اعتقادي انا مرشدها ومستودع افكارها خصوصاً في آخر حياتها ، فضلاً عن المعزة الخصوصية التي كانت بيني وبينها رحمها الله ، بان فضيلتها الراهنة ومحبتها لله وللفقير واحتمالها الاوجاع بروح مسيحي صادق ستجعل لها مكاناً ممتازاً في دار السعادة الابدية وربما لا تمر بالمطهر الا مروراً وعليه لا اشك بانها سعيدة الان تشفع فينا وخصوصاً باخيها الذي كانت تفديه بالروح لو امكن . فتنازلوا مولاي بقبول تعزيتي هذه ولو لا يعزيكم الا فضيلتكم مع تكرار لثم الانامل ودمتم لولدكم

فربنا يعوضنا بسلامتكم ويقرب قدومكم الينا المأمول جداً عن قريب ان شآء الله .

الخوري

الشام ١٢ حزيران سنة ١٩١٨ ديمتري سكرية

كتاب تعزية من المطران نقولاوس قاضي الى صهره جرجي بيطار واولاده

حضرة الماجدين صهرنا العزيز الخواجا جورج بيطار واولاده وخليل سارة وعقيلته المحترمين

اول من امس الاربعاء مساء عدت من الخارج الى القلاية الساعة ٨ افرنجية فقالت لي الخادمة لسيادتكم كتاب اتى به خادم من الزبداني فاخذت الكتاب غير ملتفت الى عنوانه وحفظته في جيبي الى ما بعد العشآء. وقبل النوم فتحته ولم اكد انظر الى مقدمته حتى طار قلبي شعاعاً واسفاً على من فقدناها ولم آتِ على الكتاب حتى اجهشت في البكاء. ولما كان احد الكهنة الاب عطايا وحده معي في الدار، فاخذته الرجفة والحيرة، لكني بادرته الخبر المفجع وقمت حالاً من مكاني الى المعبد المحفوظ فيه القربان المقدس لكي اسجد لاحكامه واقدم له ذبيحة قلبي. وقد رافقني الاب المذكور ولم يعد يفارقني الى ان انصرفت الى غرفتي بحجة النوم وكانت نحو الساعة ١١ ولكن قد فارقني الكرى ولم يغمض لي جفن وقضيت ليلة مزعجة جداً وثاني يوم الخميس ١٣ منه كنت مكلفاً لتقديم الذبيحة في كنيسة الفرنسيسيين . . . لوقوع عيد القديس انطونيوس البادويني يومئذ فقدمت الذبيحة لراحة نفس فقيدتنا البارة التي لا ريب عندي بخلاصها انما خشية اطالة مقامها في المطهر لا ازال اواصل تقديم الذبيحة اليومية لراحة تلك النفس التي كانت لدي اعز من والدتي بل اعز الناس لدي . . .

فلما جئت الى الغذآء لم يمكني تناول الطعام بدون ان أخلطه بدموعي التي كانت تنحدر من مقلتي رغم جلدي وصبري فأخذ الجميع بالبكآء معي وقمت عن الطعام دون امكاني توفية الغذآء. ثم عدت الى الصلاة كل ذلك اليوم، واليوم جئت بهذه الاسطر الوجيزة اشاطركم التأسف والحزن الشديدين على تلك الخسارة الجسيمة التى المت بنا جميعاً بفقد ركن عظيم من عايلتنا الاسيفة التي كانت لنا كلنا بمثابة الاب والام والاخت . واي اخت! وماذا اقول سوى الخضوع لمشيئة الرب القدوسة ومطابقة الارادة مع ارادته تعالى فذلك

خير لنا ولها لانها هي ايضاً اعطتنا هذه الامثولة في وفاتها شاركة موتها مع موت ذلك المخلص الالهي الذي قال ساعة نزاعه لكن لتكن مشيئتك . ولنا بكم يا اعزاي افضل تعزية من بعدها . حفظكم المولى بحمايته من كل الاحزان والمصائب وجعلها خاتمة احزانكم ولا اراننا بكم شيئاً ردياً بمنه تعالى وفضله آمين

وفيما نسال الله سبحانه ان يتغمد روح فقيدتنا العزيزة برضوانه ويريحها في احضان ابرهيم ويعزينا بكم وبسلامتكم جميعاً نهديكم من اقصى الفؤاد البركة والدعاء. يحفظكم ٢ و ٣

حلب ١٤ حزيران سنة ١٩١٨ المطران نقلاوس

كتاب اولاد ميخائيل الصباغ الى سيادة المطران نقولاوس قاضي

سيدنا ومولانا المفضال الجليل كيريوس نقولاوس القاضي الفايق الوقار والكلي الشرف والجزيل القداسة

بعد قبلة يديكم بوقار وطلب دعاكم باحترام ليس جل المقصد من هذه الرسالة اعراض شدة تأثرنا واضطرابنا من الخبر المشؤوم وفرط كدرنا وحزننا على وفاة المثلثة الرحمات والسعيدة الذكر والطيبة الاثر شقيقتكم العزيزة البارة مريم اذ سيادتكم اعرف الناس بسمو منزلتها عندنا وباشتراك قلوبنا معكم بهذا المصاب العظيم، وليس المرام منها خصوصاً تقديم تعازي صادقة يتاخر وصولها لبعد المسافة وتجدد اوجاع فؤادكم الاخوي الحنون لا سيما واننا على يقين بان روح الايمان والتقوى المتلؤن منه يسكب على قلبكم الحزين بغزارة نعم الصبر والتعزية ، كذلك ليست غايتنا تعداد فضل وفضايل وحسنات ومبرات الفقيدة الغالية والعالية والمأسوف عليها كثيراً كونها لن تعد وتفوق كل وصف . فقد

كانت رحمها الله ركن الاعمال الخيرية ورئيسة الاخويات التقوية وشرف الرهبانية الثالثة السروفية وقدوة الامهات الفاضلات ومثال الوداعة والتواضع والحب للقريب والاحسان للبائس وبالاجمال كانت حياتها مجموع صلاح وسلسلة كمالات مسيحية اكسبتها السعادة الابدية والغبطة الدائمة والملكوت السماوي. انما نريد ان نخبر سيادتكم عما صعب وشق علينا بنوع خاص ومزق احشاءنا وهو انقطاعنا في هذا المنفى مدة سنتين من زيارة هذه القديسة وعدم امكاننا والحالة هذه عيادتها باثناء مرضها ووداعها الوداع الاخير والتزود ببركتها والقيام بواجباتنا النهائية نحو الراحلة البارة ونحو ذويها الكرام وكل ما تقدم موضوع تعزية كلية بباقي العمر ولكن ما العمل؟ هكذا سمح الرب فلتكمل ارادته وليكن اسمه مباركاً وأياه تعالى نسأل بدموع غزيرة وخواطر منكسرة ان يقوي سيادتكم ويعوضنا بسلامتكم الثمينة وسلامة آلكم الكرام بشفاعة واستحقاقات الفقيدة المجيدة الماثلة بحضوره والمتمتعة برؤياه مع الملائكة والقديسين امين

المشتركين باحزانكم اولادكم

اولاد مخائيل صباغ وعيالهم

كسكين الاحد ٣٠ حزيران سنة ١٩١٨

كتاب المرحوم الاب بولس سيور البولسي الى سيادة المطران نقولاوس قاضي

مولاي الحبر الجليل الابر كيريوس نقولاوس قاضي الموقر دامت قداسته

لست ادري باي عبارة اسكب ما يتدفق في نفسي من مياه الحزن لدى تذكري تلك المصيبة الكبرى التي دهمتنا جميعاً بوفاة السيدة الفاضلة شقيقتكم العزيزة فانها والحق يقال كانت امنا جميعاً بحبها وغيرتها وحكمتها وسعيها. وبافتقادها خسرنا بما لا يعوض بكثيرين او كثيرات سواها اما جمعيتنا البولسية

فقد فقدت بها حمايتها وسندها وعنايتها ومحسنتها الكبرى التي لن ننساها ابداً واباء جمعيتنا كلهم يقدمون الذبيحة الالهية الى مدة طويلة وفاء لجزء من الدين التي لها علينا اعني به خصوصاً الاربعمائة فرنك التي قدمتها لنا قبل وفاتها بمدة وجيزة لاجل هذه الغاية اي لاجل اقامة القداديس لراحة نفسها الكريمة . فنحن نبكيها مع سيادتكم بدموع حارة ولا يعزينا سوى ذكر سعادتها وانتصارها في دار النعيم

هذا واني اليوم مولاي في دمشق عدة ثلاثة اشهر لاجل الاعتناء باخويتي البنات اللتين اقمتهما جديداً في المدينة والميدان ولانهاض اخويات النسآء وبعض الرجال ولاشغال غيرها روحية . وكل يوم ازور بيت الخواجا جرجي صهركم وكلهم بصحة جيدة كذلك سيادة المطران ديمتريوس وكل اهلية سيادتكم

. . . .

اليوم مسآء ابتدي باول جمعية للشبان غايتها المناولة في اول جمعة من الشهر او اول احد وبركة القربان المقدس في مسآء اول جمعة . نستمد دعآء وبركة سيادتكم لهذا المشروع ولجميع اشغال ولدكم المستمد الرضا والدعا

الخوري بولس سيور
البولسي

حريصا في ١ تموز سنه ١٩١٨

فهرس

		صفحة
تقدمة الكتاب		٢
جواب غبطة البطريرك		٣
مقدمة لصاحب الترجمة		٤
مقدمة المؤلف		٥
الفصل الاول	دمشق	٧
الفصل الثاني	اسرة جرجي جبرائيل بيطار	٣٣
الفصل الثالث	نشأة جرجي بيطار	٤٠
الفصل الرابع	نابغة الفن	٤٩
الفصل الخامس	ثورة السنة الستين — حوادث استشهاد	٥٤
الفصل السادس	الصحو بعد العاصفة	٦٦
الفصل السابع	الرهبانية ام الزواج	٧٧
الفصل الثامن	أبو العائلة	٩٥
الفصل التاسع	اسطنبول سنة ١٨٩٥	١١٧

الفصل العاشر	رومة او الكاثوليكي الصميم	١٢٩
الفصل الحادي عشر	جرجي بيطار (مار منصور دمشق)	١٥٢
الفصل الثاني عشر	جرجي بيطار وجمعيات القديس منصور	١٩٨
الفصل الثالث عشر	حياته الداخلية	٢٠٤
الفصل الرابع عشر	على اعتاب الابدية	٢١٧
الفصل الخامس عشر	الرسالة الظافرة	٢٢٣
ملحق		٢٣١
الخاتمة		٢٦٥

اصلاح غلط

صفحة	سطر	غلط	صواب
٣	٨	مبادي	مبادئ
٤	٦	يعملها	يعلمها
٨٣	١٤	يتحبّن	يتحين
١٠٣	١٧	لحلف	الحلف
١١٠	في الحاشية	سنة ١٩١٩	سنة ١٩٢٩
١٤٨	٢	حمعيات	جمعيات
١٦٨	١٢	سنة ١٩١٦	سنة ١٩١٨
١٨١	١٥	يحل	يحمل
١٩١	١	أقلة	أقلُّه
١٩٥	٧	منظرة	منظره
٢٠٥	٣	ذلك	ذانك
٢١٢	٢٠	ابنى	ابني
٢٢٠	١٢	سنة ١٩٢٨	سنة ١٩٢٧
٢٢٦	٨	ووفدين	ووفدان
٢٣٥	١٤	يُحيي	يُحيي

صفحة	سطر	غلط	صواب
٢٣٦	٢	رجالٍ	رجالٌ
٢٣٦	١٥	وقتة	وقتهُ
٢٣٧	٢٢	تنفذ	ينفذ
٢٤٤	٢٤	الاثنين في ٢٨	الاثنين في ٢٩
٢٤٦	١	قدم	تقدم
٢٥٠	١٢	وتوابعها	وتوابعها
٢٥٥	٨	دى پول	دي پول
٢٥٦	٢	اخباره	اخبارها

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

209.2:B624hA:c.1
شتوى ،مكسيموس
حياة جرجى جبرائيل بيطار خادم الفقرا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002640

209.2
B624hA